مختصر
حضارات العالم

شريف سامي

دار دَوّن

مختصر
حضارات العالم
شريف سامي
دار دوّن

مختصر حضارات العالم

شريف سامي: مختصر حضارات العالم، كتاب

الطبعة العربية الأولى: يناير ٢٠٢٠

رقم الإيداع: ٢٠١٠٢ /٢٠١٩ - الترقيم الدولي: 9 - 165 - 806 - 977 - 978

جَميـعُ حُـقــوقِ الطَبْـعِ والنَّشرِ محـــفُوظةٌ للناشِرْ

لا يجوز استخدام أو إعادة طباعة أي جزء من هذا الكتاب بأي طريقة

بدون الحصول على الموافقة الخطية من الناشر.

© دار دَوِّنْ

عضو اتحاد الناشرين المصريين.

القاهرة - مصر

Mob +2 - 01020220053

info@dardawen.com

www.Dardawen.com

شريف سامي

مختصر حضارات العالم

دَوِّنْ
للنَشرْ والتَوزيعْ

إهــداء

إلى الحقيقة الغامضة والتائهة في عبق التاريخ.

إلى ماضينا السحيق، هل حقا كان العالم فيك أفضل، أم أن الشوق للماضي قد زينك للذاكرين؟

إلى أمم باتت تحت الثرى، كيف اندثرت حضاراتكم؟

شريف سامي

مقدمة

مما لا شك فيه أن هدفك من قراءة هذا الكتاب هدفٌ جليٌ، فأعتقد أنك من الأشخاص الذين يقرأون بغرض تعميق فكرهم الإدراكي على حساب القراءة بغرض المتعة، هؤلاء هم الأشخاص الذين يفقهون الحفاظ على الموازنة الفكرية، يتهذبون بقراءة الأدب؛ ويُنشئون أنماطا جديدة لأذهانهم؛ ويوسعون أفاقهم؛ ويمتعون خيالاتهم؛ وينمون بلاغاتهم، لكن لا يمنعهم هذا من إدراك ماضيهم وأصولهم، مؤمنين بالمقولة التي تقول: لا أعرف كيف يمكن تسمية بلاد يجهل شعبها الواقع والتاريخ بلادا حرة؟!

هناك ماض طويل وسحيق، كله أحداثٌ واقعية ألهمت كبار الكتاب في صناعة رواياتهم الخالدة، فالتاريخ هو رواية حقيقية وهو روايتنا الأولى كبشر، بدأت منذ خلق آدم عليه السلام، ومستمرةٌ حتى اللحظة التي تقرأ فيها هذه الكلمات، وهي رواية نهايتها ليست غامضة، بل معروفة، فلكي نتقي شر النهاية يجب علينا قراءة البداية؛ فكلها عبر، ولكي نعيش الحاضر بشكل أفضل، آملين في تحقيق طموحاتنا في المستقبل، يجب قراءة التاريخ، فقراءتنا للتاريخ ليس الغرض منها التسلية أو ضياع الوقت، أو البكاء على أمجاده أو النفر من سلبياته، لأن الماضي قد طويت صفحاته بكل ما فيها من إيجابيات وسلبيات، ولم يعد بإمكاننا تغيير أي شيء من وقائعه، وكل ما علينا فعله هو الاستفادة من دروسه وعبره، حتى نُغير حاضرنا ونخطط لمستقبل أفضل، لنرتقي ونصبح من أولي الألباب الذين يأخذون العبر.

فاقرأوا التاريخ..

تمهيد

عندما نقرأ عن الماضي البعيد، يُلفت انتباهنا شيء، هو سلوك الإنسان القديم، وتميز عقله الذي استخدمه في ترويض الطبيعة، فلقد بدأ آدم وحواء وحدهما، ثم عمّرا الأرض وبدأ نسلهما، ثم بعد فترة ظهر ما يسمى بالحضارات، وبكل بساطة، الحضارة هي نظام اجتماعي يُعين الإنسان على الزيادة من إنتاجه الثقافي كبداية للإنتاج في شتى المجالات، وهي بداية استقرار تأتي حين ينتهي الاضطراب، لا تتحقق سوى بوجود الأمن كشرط أساسي، ثم بعد ذلك يمضي الإنسان قُدما في دراسته للموارد ليُشكل منها ما يريده عقله الذكي، ولكي يُسمى هذا التقدم البشري حضارة، يجب أن يحتوي على مجموعة مقومات منها – زيادة الموارد الاقتصادية - خلق نظم سياسية ناجحة - سيادة العادات والتقاليد الخُلقية الحسنة - التقدم في العلوم والفنون؛ والصناعة والعمران؛ وغير ذلك - حتى تصبح الحضارة تعبير عن الرقي والازدهار في جميع الميادين والمجالات.

وتُطلق الحضارة على المجتمع الناجح والمعقّد الذي يعيش أكثر أفراده في المدن ويمارسون الزراعة، وكل ما زاد حجم الصناعة زاد التحضر، على عكس المجتمعات البدوية ذات البنية القبلية التي اعتادت على الترحال وعدم الارتباط ببقعة جغرافية محددة لكي يتركون عليها بصماتهم وآثارهم في الحياة، وعلى مر التاريخ تم استخدام مصطلح الحضارة كتعبير عن التقدم في الثقافة والفنون والآداب والعلوم والنظم، فهي تلك الموروثات التاريخية التي تركها شعب معين في فترة ما، ابتداء من فترة ما قبل تدوين التاريخ، حتى عصرنا الحديث، وللأسف الشديد ماضينا السحيق مملوء بالألغاز والأساطير نظرا لافتقاد الحجج والبراهين المادية، والتي كان الإنسان نفسه سببا في طمسها لأسباب قد قمت بشرحها في هذا الكتاب، وهذا الكتاب يحتوي على تصحيح بعض المفاهيم والموروثات التاريخية غير الصائبة، والتي توارثناها جيلا بعد جيل، ولقد طرحتها لأنني أرى أنه من الشجاعة البحث عن الحقيقة والقراءة والتنقيب، فالعلم ليس حكرا على أحد، وليس له ممثلون رسميون، فأهلا بك يا من تبحث عن الحقيقة.

الفصل الأول

حضارات العالم القديم

(عالم ما قبل الطوفان – الكارثة الكونية)

حتما لكل بداية نهاية، ولكل شيء قيامته، ولكل واحد منا نهاية خاصة، ولنا كافة نهاية جامعة، ولكوكبنا المظلوم نهاية محتومة بعد كل هذا الظلم الذي يشهده من عثوّ للإنسان في الأرض وفساد، فبالطبع هو أكثرنا معاناة، ربما لسوء عاقبته الآن؛ أو حتى مستقبلا، وربما لأنه عاش نهايةً أولى لم يعشها الإنسان الحديث، فالكون الآن ليس كما كان عليه من قبل، فلقد تبدل هذا العالم بعالم آخر دون سابق إنذار، وشهدت الكرة الأرضية كارثةً تُعد من أضخم كوارث الكون منذ بداية الخليقة.. عالمٌ كاملٌ وضخم اختفى في ظروف غامضة، ولم يبق غير القليل من آثاره الصامدة عبر آلاف السنين، في واحدة من أعظم الكوارث الكونية بلا منازع.

الكارثة الكونية (الطوفان العظيم)

المكان: كل أرجاء البسيطة.

الزمان: ما بين ٩ آلاف حتى ٦٦٥٠ سنة قبل الميلاد تقريبا (نسبة لأحدث التحليلات الرسوبية في أماكن مختلفة – ومسارات مياه الطوفان التي شكلت الأرض الجديدة).

الحدث: هدوء تام يغطي كوكب الأرض مع نهاية يوم طبيعي.. الملايين من الناس يتناولون عشاءهم ويرتاحون من عناء العمل، ومع مُضي الوقت خلد غالبيتهم إلى النوم كالمعتاد، فازداد الهدوء هدوءا.. وعندما جاء منتصف الليل أعطت الأرض إنذارا لساكنيها باقتراب الأجل، واهتزت اهتزازا مريبا وعنيفا، ومالت الأرض ميلا عظيما؛ وكأن يدًا عظمى جرفتها عن محورها، رعدٌ وبرقٌ لم تشهد مثله المعمورة، وبعدها بدأ الغلاف الجوي الأرضي في الاختفاء، ثم انفلقت القشرة الأرضية بسبب الضغوط التي أنهكتها، وبسبب هذا الضغط والتصدع تحررت الأحواض المائية تحت الأرض بسرعة رهيبة.. الكل يفقه دوره.. فبعدها انطلقت محتويات الأحواض المائية إلى السماء نحو أقصى مدى للغلاف الجوي، ثم عادت

إلى الأرض بشكل انزلاقي مريب ومهيب، على صورة أمطار، بل شلالات، تغطي الكوكب كله، ثم زاد منسوب المياه عن سطح الأرض، فبدأت التفجيرات البركانية العملاقة في تدمير الأرض بالكامل، فانزلقت وانجرفت قطع من اليابسة حاملة سكان هذه القطع الأرضية نحو البحر مع إحداث هزة مرعبة عند قذف كل قطعة وانجرافها في الماء.. كل شيء يعلم دوره، وكأنه عقابٌ مبين، فلم تحتمل الأرض ما أصابها من سوء، فتبعثرت وانتابها اضطراب شامل، وتبعثرها محى معالمها، فاختلطت القارات بالبحار.

ثم جاءت الموجة الأخرى من الكارثة، والتي خلفتها تلك التغيرات، فهذه التغيرات قد ساعدت على اندفاع موجات المد، ما ساهم في وجود إعصار مدمر بلغ ارتفاعه ٦٠٠٠ قدم! زحف الإعصار وكأنه يبتلع ما تبقى من الأرض، ثم تمكن من الوصول إلى القطبين الشمالي والجنوبي، وحينها جاء دور تفاعل الحمم البركانية والغازات الخانقة والسامة، للقضاء على ما تبقى من شكل الحياة على الأرض، لتعلن الأرض استسلامها في سيناريو متقن ومرتب بإحكام.

قصة الطوفان في الوثائق والمخطوطات

ما ذكرته هذا هو قصة الكارثة الكونية من منظور علمي، أما من المنظور التاريخي، ربطت العديد من الديانات والثقافات هذه الكارثة بقصة نبي الله تعالى «نوح» عليه السلام، التي لم تكن موجودة في الأديان «الإبراهيمية» فقط، بل هي واضحة في قصص الفيضان في بلاد ما بين النهرين كملحمة «جلجامش» وقصة «بيروسوس»، وقصة «زيزسودا» في الرواية البابلية، وفي قصص شعوب «المايا» و«الكيتشي» في أمريكا الوسطى، وقبائل «مويسكا» و«كانياري» في أمريكا الجنوبية، وقبائل السكان الأصليين في جنوب أستراليا، وفي قبيلة «أوجيبوا» بين السكان الأصليين في أمريكا الشمالية، و«ديوكاليون» و«بيرا» في الأساطير اليونانية، و«مانو» في الأساطير الهندوسية، و«غون يو» في الأساطير الصينية، و«بيرغيلمير» في الميثولوجيا الإسكندنافية.

اختلفت رواياتهم في الوصف ولكن اتفقت في المضمون، فهناك من تحدث عن اختفاء الشمس والقمر، ومنهم من تحدث عن حياة مظلمة دامت لسنوات، ومنهم من تحدث عن إنحراف الأرض وميلانها، ومنهم من قال إن السماء هبطت لتلتقي بالأرض، ومنهم من يحكي عن غرق الأرض وفنائها وظهور أرض جديدة... وجميعهم اتفق على أن الحادث انتهى باستبدال الأرض القديمة بعد غرقها ثم بعد ذلك ظهرت أرض جديدة، ونجت قلة قليلة من البشر على سطح سفينة أبحرت فوق الطوفان وتحدت الصعاب، بشكل إعجازي.

والجدير بالذكر أنه هناك أبحاث أخرى رأت أن الطوفان البابلي الذي حدث في عام ٣٠٠٠ ق.م، هو طوفان نوح، ومنهم من قال إنه كان طوفانا محليا وليس عالميا، وإنه كان في شرق شبه الجزيرة العربية، حيث موطن قوم نوح عليه السلام، ومنهم من قال لا؛ بل إنهم كانوا يسكنون في غرب شبه الجزيرة والطوفان حدث هناك، وقد شهدت تلك المنطقة بالفعل كارثة لكنها أقل مما ذكرناها مسبقا، والتي كانت نتيجة لارتفاع منسوب المياه بسبب ذوبان الجليد الذي أدى إلى زيادة الضغط على المياه الجوفية المخزونة تحت الدرع العربي، فانفجرت فوهات جبال السراة البركانية بماء منهمر، وتفجرت الأرض عيونا فأغرق قسما كبيرا من تلك المنطقة. لكن تظل كل هذه الآراء مجرد نظريات ووجهات نظر لحين إثباتها، وما بين هذا وذاك؛ الله أعلم.

الدليل على وجود حضارات متقدمة

قبل الطوفان

كل الروايات القديمة ذكرت كيفية اختفاء حضارات عظيمة أنشأها الإنسان القديم قبل الطوفان لم يصل لنا أخبارها على الإطلاق، وربما يكون من أهمها: «أطلانطس» و«لوميريا»، وهاتان القارتان الكبيرتان من أعظم الشواهد على حضارة ما قبل الطوفان، فسكانهما كانت لهما حضارات متطورة جدا، وأطلانطس كانت في وسط المحيط الأطلسي، ولوميريا في وسط المحيط الهادي، وخلّفا لنا بعد تلك الحادثة جزرا عديدة مثل جزر الآزور، والتي تقع

في وسط المحيط الأطلسي، الذي بدوره متصل بخط انقسام الكوكب بالكامل، فهل هذا من باب الصدفة؟!

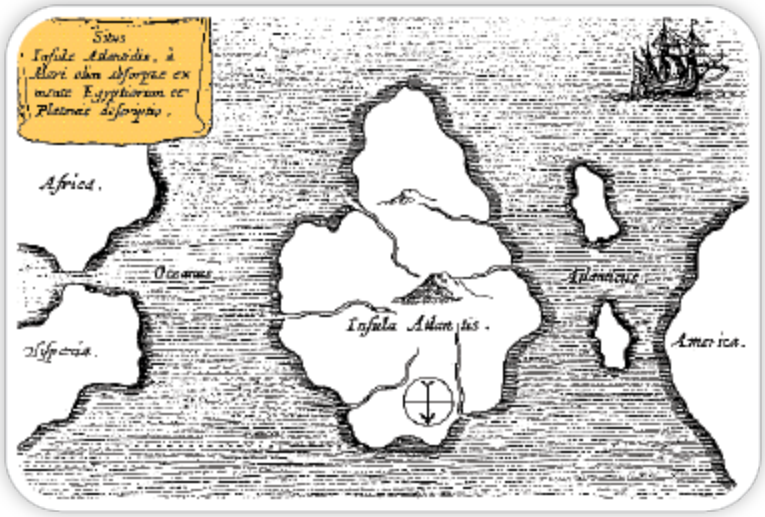

خريطة تخيلية قديمة لموقع قارة أطلانطس

وأطـلانطـس: قـارة

سحيقة لم تستطع البشرية تحديد معالم الحياة عليها قديما بشكل قاطع، فقط ذكرها «أفلاطون» في محاورة «كريتياس» وفي محاورة «طيمايوس»، وفيها يسرد رحلة جده «طولون» ولقاءه بكهنة مصر، وإخبارهم له بأن سكان أطلانطس كانوا يحكمون العالم قبل ٩ آلاف سنة، وقد كتب هذا أفلاطون في عام ٣٦٠ ق.م، أضف إلى ذلك ألفي عام بعد الميلاد إلى الآن.

أما قارة ليموريا أو بليموريا أو حضارة «مو» البائدة، فهي قارة سحيقة مغمورة، أعلن عنها الباحث «أوغطس لو» في القرن التاسع عشر، والذي حاول إثبات أنها قبل اختفائها كان لها حضارة متطورة ومتقدمة، وكانت قد نشرتها في كل أركان العالم، وتبنى فكرة «براسور دو بوربور» وترجمة مخطوطة «ترو كورتيسانوي» أو مخطوطة «المايا»، ثم بعدها استعان الكثير من الباحثين أمثال «لويس كلود» و«جيمس شوارد» بالبقايا الأثرية في جزر المحيط الهادئ، كتماثيل «جزيرة القيامة» وآثار «جزيرة بونبي»، وبرروا ذلك بأن قبائل

وسكان هذه المناطق حاليا أو سابقا لا يملكون شيئا من التكنولوجيا لصنع ذلك، إضافة إلى قصصهم الشعبية التي تروي أن أجدادهم كانوا ملوكا عظاما ولكن غرقوا في الطوفان.

أما الوادي العظيم: فهو من ضمن الآثار الدالة أيضا، وكان قد نشأ هذا الوادي نتيجة شق كبير في الأرض، ظهر خلال الفترة الأخيرة من الطوفان، وبدايته في «المكسيك» وممتد حتى «يلو بارك» في الولايات المتحدة الأمريكية، ومازال قائما إلى الآن، وفي تاريخ ٥ إبريل من عام ١٩٠٩ م نشرت جريدة «فونكس» تقريرا صحفيا مثيرا جدا، يحكي عن المستكشف «ج.أ.كينكتيد» من معهد «السميثسونيان» وأنه اكتشف شبكة من الأنفاق والكهوف المحفورة بشكل يدوي في إحدى جوانب الوادي العظيم، وتفاجأ عندما رأى أثر أداة الإزميل على الجدران، كما رأى مغارات ومتاهات، وآثار التجمعات الموزعة بانتظام على شكل دائري، وقطعا أثرية، وأدوات ذات تقنية عالية، والعديد من المومياوات، ووجد معدنا غريبا يشبه معدن البلاتينيوم. وما نستطيع قوله إن هذه المنطقة إن كانت موجودة منذ عصر ما قبل الطوفان فهي تدل على الحضارة والوعي القديم، وإن كانت أثناءه أو بعده مباشرة فهي أيضا تدل على وعي الإنسان الذي واكب الطوفان وتطوره وتقدمه وتقنيته، أما الفرضية الثالثة التي تخمن أن هذا المكان قد نشأ وقت قيام الحضارات التي نشبت بعد الطوفان بفترة فهذا مستحيل، لأن هذه المنطقة أصبحت من المستحيل قطونها بعد غرقها من توابع الطوفان.

أما منطقة الربع الخالي في السعودية: فتعتبر دليل آخر، وهي تلك المنطقة الخطيرة والممنوعة ومستحيلة الدخول، وتعتبر من أعظم المناطق غير مكتشفة في العالم كله، ونسبة لما ذكرته بعض الأبحاث المجتهدة: أنه في فجر التاريخ ازدهرت فيها خمس ممالك ضخمة، وكانت تتنافس سويا في البنيان وعلو العمارة، وإذا ذهبت الآن إلى هناك في الأماكن المسموح زيارتها فقط، ستجد مدنا قائمة ترتفع مسافة ٩ قوائم أو يزيد.

ثمة حضارات أخرى مذهلة ومدن غير مكتشفة حتى الآن رغم تطورنا الإعجازي، فحتى يومنا هذا توجد أماكن غامضة حول العالم، وبالأخص أمريكا وآسيا وأستراليا وغيرها،

(انظر لعشرات الحضارات الموجودة بنهاية هذا الكتاب). تطور الإنسان وعَمّر الأرض ولكن لا تزال غاباتهم نادرا ما تكتشف، بل هناك قرى بها أشخاص يعيشون الآن لم يروا رجلا أبيض على الإطلاق، وهناك أماكن تظهر لنا بالمصادفة المحضة، فمثلا لقد اكتشفوا آثارا لحضارة غامضة في صحراء أستراليا الوسطى، بمنتهى المصادفة الشديدة، حينما كانوا يقومون باختبارات ذرية في هذه المنطقة. مازال هناك الكثير لم يُكتشف قط، فعلى سبيل المثال أيضا غابات «الأمازون»، التي تعتبر أكبر غابات غير مكتشفة في العالم، والتي شاهد الجميع سلسلة حرقها على فترات، هذه الغابة هي الأغرب على الإطلاق، فعندما يزورها المستكشفون بالطائرة، نظرا لخطورتها، ويقومون بتحديد مواقع أبراج وقرى وآثار، بمنتهى الحماسة والانتصار يكتبون تقارير بذلك، وتنشرح قلوبهم، وعندما يعود أحدهم ليوثق هذه المعلومات بعد عدة أيام يُفاجأ بأن هذه الاكتشافات اختفت وضاعت مرة أخرى. أما منطقة شرقي الإكوادور فلا تقل غرابة عن الأمازون، والتي تحتوي على آلاف التحف والمصنوعات الأثرية، وعلى حد وصف المستكشفون فيها أهرامات عملاقة ومدن هائلة مهجورة، وللأسف تعتبر منطقة محرمة بسبب أن قبائل الهنود المحليون يقومون بقتلِ كل غريب وفضولي محب للاطلاع. وفي منطقة «ماتوغراسو» بالبرازيل ستجد الأمر متشابها، فبالفعل خرج موكب حراسة مهيب يضم مئات الأشخاص متجها ناحية هذه الغابة، ولم يعد هذا الموكب حتى الآن، ونال نهايته في هذا المكان الذي يبتلع الزوار الأغراب باستمرار.

وهناك رحلة استكشافية أخرى ما بين عامي ١٩٢٦ و١٩٢٧ بقيادة الدكتور «هامبورغ»، كانت قد شقت طريقها بالقوارب نحو أعالي إحدى روافد نهر «ريو نيغرو» في ناحية المناطق الحدودية ما بين جنوب فنزويلا وشمال غرب البرازيل، حيث المناطق الغامضة والمجهولة تماما، ثم ساقتهم أقدامهم للدخول إلى عدة مناطق مختلفة خاصة بقبائل من الهنودِ المتوحشين، فانتبهوا جميعا إلى قرع الطبول الدائم من كل مكان، فصمدوا واستمروا واستطاعوا مراوغتهم، حتى ساروا في طريق قديم داخل نفق محفور في منحدرات الوادي، وبعد فترة من السير، انتبهوا إلى شيء أسفل الوادي، ثم نظروا إلى بعضهم

والتقطوا أنفاسهم حينما وجدوا مدينة عظيمة مليئة بالقصور والأبراج والآثار الرائعة، والمعابد والعواميد المنحوتة والأهرامات، كل هذا غارقٌ في أسفل الغابة التي تظهر على أنها ابتلعتها تماما، فكانت شبه مدفونة لا يراها إلا من يهبط للوادي، ووجدوا في المدينة حدائق فاتنة تتوسطها بحيرات ونوافير محطمة، وبعد أن تجولوا داخل المدينة واستكشفوها، خرجوا لاحقا إلى الطريق المؤدي إلى هذه المدينة، ونصبوا كمينا، واستطاعوا القبض على رجل قزم طوله ٤ أقدام، عاري إلا من حزام حول خصره مطعمٍ بالذهب الخالص، ثم راقبوا من بعيد مجموعة أخرى من الأقزام، فتعجبوا عندما رأوا أن جميعهم بشرتهم بيضاء، ونساءهم عرايا مثلهم، ويرتدين أساور وعقودا ذهبية، ثم تجولوا مرة أخرى ووجدوا معبدا ضخما وعملاقا هرمي الشكل، وبداخله ذهب كثير، حتى الأعمدة والجدران والسقف وكل شيء كان مغمورا بالذهب، ووجدوا العديد من الأدوات والجنازير المصنوعة من الذهب الخالص والمنحوتة بمنتهى الدقة والإتقان والتقدم، ووجدوا مجموعة كتابات غريبة وغير مفهومة محفورة على لوحات ذهبية، ومنطقة مذابح رخامية عميقة، مطعمة بالأزرق الداكن وعليها آثار دماء قديمة، ربما يكون مجرد صدأ وربما هذا المكان كان تقام فيه أضحيات شعائرية فظيعة من أصحاب هذه الحضارة. من هؤلاء؟ ولأي فترة ينتمون من فترات ما قبل التاريخ؟ ولماذا تقهقر شعب هذه الحضارة ليصبح أحفادهم أقزاما متوحشين، ويعيشون على أطراف المدينة فقط أو في الأنفاق، أو في فجوات صخرية، أو بيوت حجرية صغيرة؟ الغريب حقا أن هذه القبائل تمتلك كمية كبيرة من الذهب، فكل شخص منهم يملك سكينا معكوفا من الذهب، وكأن الذهب ليس له قدر عندهم!

عندما انتهت الرحلة عاد المستكشفون بصعوبة بالغة، ومات معظمهم بسبب كثرة الأحمال من الذهب والكنوز في هذا المكان القاتم، وبسبب اصطياد الهنود لهم فردا فردا، لم ينج من الجميع سوى رُبعهم فقط.

لم يكن هذا المكان الوحيد الذي ابتلع كنوزا وحضارات بائدة لم يصورها القمر الاصطناعي في الغابات الضبابية التي من أشهرها الأمازون، بل يُعتقد أن هناك الكثير، وكانت هذه

المدن قد بنيت عندما كانت المنطقة معتدلة وخصبة بسبب الأنهار، ولكن أصبحت هذه المنطقة فيما بعد مهجورة بعد ما غمرتها مياه المحيط الأطلسي بشكل كثيف فيما قال عنه العلماء أنه بفعل الكارثة الكونية وتوابعها، فغرقت المواقع الأثرية فيها على ضفاف الأنهار، ومن المرجح أن هناك مدن كثيرة في أعماق الأحراش الكثيفة.

وبعد كل هذا أصبح واضحا مما لا يدع مجالا للشك أن أمريكا الجنوبية كانت تعج بالمدن العظيمة وإمبراطوريات جبارة قبل الطوفان، والتواصل بينها كان بنفس مستوى التواصل الحديث ولكن ربما بشكل آخر، اختفت هذه الحضارات بعد ما جعلت الزلازل هذه الأرض غير قابلة للعيش فيها، ثم هجمت مياه الأطلسي عليهم فغرقوا، ثم بعد وقت قريب غمرت الأحراش المنطقة بالكامل، ولم يتبق منها غير بعض آثارها المختفية وحكاياتها الشفهية التي تناقلتها القبائل البدائية هناك عن أسلافهم الأوائل، فلا يزالون حتى الآن يسردون هناك قصصا عن مجد جدودهم وحضارتهم المتطورة، التي ازدهرت قبل آلاف السنين في شمال غرب المرتفعات البرازيلية. وهناك شاهد آخر على ذلك، وهم هنود «التابويا» القاطنون في شرق البرازيل، فهم لا يزالون يتفننون في حرفة التعامل مع الأحجار الكريمة، ويرتدون الألماس الذي ورثوه عن جدودهم، أما هنود «الأماريا» بالقرب من بحيرة «تيتيكاكا» مازالوا يستطيعون كتابة نصوص مشابهة تماما لما اكتشف في المدينة المهجورة في منطقة «باهيا» بالبرازيل. وفي القرن التاسع عشر، وجدت كتب راقية الصنع تحتوي على صور ورسومات وكتابات في حوزة قبيلة «البانو» القاطنة بالغابات قرب أعالي الأمازون، وقال هؤلاء الهنود إن هذه الكتب تشرح تاريخ جدودهم.

صورة العالم المستكشف الكولونيل ب

فاوسيت الذي اختفى هو وطاقمه للابد

إنها منطقة غريبة بحق، تدل على أنها لم تكن منطقة عادية في الماضي البعيد، ولعلك سمعت عن القصة التاريخية الشهيرة واللغز حول اختفاء العالِم المشهور والمستكشف العظيم الكولونيل «بيرسي فاوسيت» والذي فاجأ المجتمع العلمي بلندن بقوله إنه شاهد مدينة عملاقة وآثارا في أعالي الأمازون، بالقرب من الحدود البرازيلية البوليفية، قالوا إنها تنتمي للمدينة العملاقة والمختفية، التي أطلقوا عليها مدينة «Z» وعندما قرروا أن يساعدوه، عاد إليها عن طريق حملة استكشافية أخرى، فاختفى هو وطاقمه هناك ولم يسمع عنهم أحد حتى الآن، رغم انطلاق أكثر من ١٣ حملة استكشافية للبحث عنهم وكذلك البحث عن مدينة «Z».

مازالت هناك أهرامات غريبة المظهر قمتها مدورة تُشاهد بالطائرات حتى اليوم، كما أن الموروثات الشعبية هناك تقول إن أجدادهم عرفوا الكهرباء والأضواء الخاصة، ومازال هناك اختراع هائل باق حتى الآن ويغفله الجميع، ربما يعود لما قبل الطوفان، أو حتى بعده، فلماذا هو متجاهل؟ وهو شبكة طرق سريعة قديمة الأزل، وهذه الشبكة الغريبة كانت تصل بين كولومبيا، والإكوادور، والبيرو، وتشيلي، وبوليفيا، والأرجنتين، وكانت تحتوي على الأنفاق والطرق الفرعية والتي تصل إلى حوض الأمازون، وكانت قد بُنيت قبل آلاف السنين بواسطة بلاطات «جرانيتية» محصورة بين حجرين يشكلان جدارا للنفق أو حافة الطريق بمنتهى البراعة، أما باقي اتجاه الطرق في مناطق المستنقعات فقد تم رفعها على شكل كباري! ومازالت هذه الشبكة قائمة حتى اليوم. وفي البيرو ستجد نفس الشبه في الطرق القديمة هناك والتي ارتفعت ١٢٠٠٠ قدم! أما في المكسيك فستجد طريقا سريعا يمتد من «كوبا» إلى «ياكسونا»، وطوله ٦٠ ميلا ومكونا من الأسمنت وعليه متاريس حراسة! كذلك في جرينلاند وإنجلترا واليونان وغيرها، إضافة إلى شبكات الري الهائلة الموجودة في أماكن عديدة، وشبكات الأنفاق التي تغطي غالبية العالم والتي مازلنا نجهلها حتى الآن، كالتي وجدوها في جزيرة الفصح، والتي تعتبر واحدة من أكبر ألغاز العالم القديم، وآثار أخرى كبيرة وضخمة لم نستوعب مفهومها ودلالتها حتى يومنا هذا.

أما في أمريكا الشمالية، فقد لاحظ عالم الآثار الشهير الكونت «بايرون كون» بأن بقايا المدينة البائدة والمدفونة تحت ٤ أميال من بلدة «روكويل» تكساس، جدرانها الحجرية الضخمة التي ترتفع إلى نحو ٤٩ قدما، مرتبة ومبنية بشكل احترافي، فلمن تكون؟ أما الباحث الشهير «تايلور هانسون» فقد أمضى وقتا طويلا مع قبائل الهنود الحمر، وبعد أن تحدث مع زعيم قبائل «أوشيباوا» والقاطنين في «ميشيغان»، والذي يلقب بالرعد المظلم، واسمه «دارك ثوندر» والذي سمعه يقول: في إحدى الفترات كان لدينا كتب، لكن هذا كان في الماضي البعيد، فالكتب هي أشياء يمكن أن تتلاشى عبر الزمان، منذ ذلك الوقت وضَعنا تاريخنا وحكاياتنا في أناشيد شعبنا فقط.

وحكاياتهم هذه عبارة عن سرد لأحداث كانت قد وقعت في زمن بعيد جدا جدا قبل آلاف السنين، حيث عاش أسلافهم في مدن جبارة، كانت بالقرب من الأنهار، وعندما حان وقت الحرب هجر الناس مدنهم والتجأوا إلى الغابة، وقد تكون الحرب المذكورة هنا حربا شاملة مثلا، لكن في جميع الأحوال السبب الرئيسي جيولوجيا لهذا الدمار هو التغيرات العالمية التي وقعت على الكرة الأرضية كنتيجة مباشرة للطوفان، وبداية جفاف المناخ تدريجيا. وما سأستشهد به في كلامي هي مقولة الباحث المختفي الكولونيل «فاوست» التي قالها قبل اختفائه مباشرة: «لدي سبب جيد لأصدق بأن هذه الشعوب هي منحدرة من أسلاف متطورين.. لقد عرفوا الكتابة».

فيا تُرى من بنى هذه الإنجازات المذهلة القديمة، والمتطورة جدا، والتي من المستحيل إنجازها الآن! كل المخطوطات والكتابات لجميع الحضارات القديمة كالفرعونية والرومانية واليونانية والصينية وغيرها، تعطي إشارات تفيد بأنهم قد حصلوا على تقنياتهم وعلومهم من أسلافهم السابقين ونحن نجهل ذلك.

ملخصا، العالم القديم كان أكثر تطورا، فكلما عدنا للخلف سنجد الحضارات أعظم، والهندسة والرياضيات أكثر تعقيدا، حتى المعمار أكثر فخامة، وكلما عدت للوراء كبر حجم

الأثر، وإذا عدت أكثر وأكثر ستجده أكبر فأكبر، وينطبق هذا على الأنفاق والسراديب وغيرها، ولو كنا نحن الأكثر علما ما كانت علومهم استعصت علينا.

هل قامت الحضارات بعد الطوفان

دون فترة تمهيد؟

بعد كلامنا هذا، لا مجال للشك أن في خلفية هذا الوجود البشري على كوكب الأرض ماضيا متقدما وموازيا لما وصلنا إليه الآن، بل يُقدر أحيانا بأنه الأعظم، ولكن ربما لا تلقى هذه الفكرة استحسان الكثير في هذا العالم العصري المنفتح، رافضين الاقتناع بوجود تقدم من سبقونا منطقيا، ويبرز غالبيتهم علامة استفهام واضحة متعجبا، كيف نشأت في هذا الماضي المظلم السحيق حضارات أعظم وأذكى مما توصلنا إليه الآن! والرد على هذا السؤال بسيط جدا: إن كنا نحن الأقوى فلماذا لم نستطع فك شفراتهم وأدواتهم؟ لماذا تصبح حضاراتهم وتكنولوجياتهم بالنسبة لنا مستحيلة التطبيق؛ كأهرامات الجيزة والأهرامات الكريستالية في أعماق المحيط وغيرها الكثير جدا؟ فإن دلت تلك الحضارات على شيء فستدل على أن سكان هذه الحضارات القديمة كان لهم فهم عميق ومباشر للعلم والعقل والوجود الكوني وكيفية استخدام آلياته، فعليك أن تتخيل أن في الماضي البعيد البائد كانوا قد ابتكروا تقنيات وأنظمة مذهلة، فقبل آلاف السنين عرفوا: أنظمة مضادة للجاذبية - وأنظمة دفع خارقة كانت أسرع من الضوء نفسه - وآلات مولدة للطاقة الحرة غير المحدودة - وأجهزة وآلات أخرى تتفاعل مع الوعي البشري - والأهم والأعظم من كل ذلك، أن هؤلاء البشر كانوا قد عرفوا الهيكلة الزمنية والمكانية للكون، والتي استثمروها في توقعاتهم وتنبؤاتهم، والتي وجدها خلفاؤهم على آثارهم المنقوشة، وساعدهم ذلك على المعرفة والتنبؤ ببعض الكوارث المناخية والطبيعية التي كانوا يتقون شرورها. لم يقتصر الأمر على ذلك، بل تعمق هؤلاء في دراسة التعريف الدقيق للطبيعة الروحية، والتي لم نصل إليها حتى الآن، ما يجعلنا لا نملك شيئا سوى الخضوع أمام علومهم برهبة وخشوع.

وللعلم، لم أعني أن الإنسان البشري عرف كل هذا في عام ١٠٠٠ أو ٢٠٠٠ قبل الميلاد، ولا أعني الحضارة المصرية الرائعة، ولا حتى حضارات ما بين النهريين التي تعتبر هي الأقدم كما هو شائع، بل أقصد ما هو أقدم بآلاف السنين، فكيف لنا أن نقتنع بأن تلك الحضارات المشهودة لم يسبقها حضارات قديمة غامضة؟ كيف نقتنع بأن الإنسان لم يعرف الحضارة والعلم والتقدم قبل السومريين والمصريين الذين عمروا الأرض في الألفية السادسة قبل الميلاد على أقصى تقدير، كيف نصدق أن الإنسان كان يغدوا في عصر حجري لا يملك سترة عورته، وفي عشية وضحاها استيقظ على حضارات مذهلة وعظيمة مثل هذه الحضارات القديمة، دون أي مقدمات أو تأسيسات أو حتى دراسات أو تجارب أو مناقشة أفكار أو حتى خبرات سابقة؟! حقا من المستحيل أن يكون هذا الأمر مقنعا، ولكن ما يستوعبه العقل هو أن هؤلاء ورثوا أفكارا أو علوما مهدت لهم الصعود إلى النهضة، فهناك فجوة تاريخية كبيرة منذ إعمار أبينا «ادم» الأرض حتى بلوغ الحضارة السومرية منتهاها أو الوصول إلى بداية عصر الطوفان على الأقل.

اختلفت الأرقام بين العلماء والمفكرين والباحثين على الفترة التي عاشها البشر على الأرض حتى الآن، فأقصرها يقول بأن عمر البشرية سبعة آلاف سنة، وآراء أخرى تقول عشرة آلاف، ووصل بعضهم إلى أربعين ألف سنة، بينما تجاوز أحدهم المائة ألف سنة، وآخرون توصلوا إلى مائتي ألف سنة مما نعد، وهذا الأمر الشائك ليس قضيتنا الآن، بل ما يهمنا هو أن الأرض كان قد عَمرَها بنو آدم لفترة قبل الطوفان، وهي بالفعل فترة غامضة ومغمورة منذ البداية وحتى الوصول إلى العالم الجديد في ما بعد الطوفان. ولكن مالا يدع مجالا للشك أن ما بين أبينا آدم إلى سيدنا نوح مدة لا تقل عن ألف عام بل أكثر، أضف على ذلك العمر الذي عاشه نوح قبل الفيضان وهو ستمائة سنة، ثم أخبرني، هل من المعقول أن يعيش العقل البشري في فترة من ألف إلى ألفي عام على أقل تقدير دون التطور أو الالتفات لتكوين حضارة؟ بينما عقولنا البشرية الحالية صنعت المستحيل بل المعجزات في عشرات السنوات الأخيرة فقط!

من المؤسف أن فترة ما قبل الطوفان تكاد تكون مصادرها منعدمة، وكل ما نستطيع معرفته هو ما تم اكتشافه بشكل مادي، فالعلم لا يعرف التوقعات، ولكن لماذا لا يوضح لنا العلم حقيقة الاختراعات الرائعة التي ذكرتها فيما سبق، أو مثلا آثار حضارة أطلانطس الغارقة في المحيط كما ذكرنا، والتي قدرها المكتشفون والباحثون بعمر تقريبي يصل لـ ١٢ ألف سنة قبل الميلاد! إذًا، عمرها ضعفي الحضارة السومرية أقدم حضارة كما يظن الجميع، فحضارة أطلانطس عرفت هذه العلوم التي ذكرناها كافة، وكانت قبل الطوفان العظيم، ووصلت لما نحلم أن نصل إليه اليوم، ولكن لا أعلم ما هو السر الخفي الكائن في عدم توضيح حقائق الحضارات الغابرة!، فهناك حقائق وأسرار كثيرة وهبها لنا الماضي فُقدت أو طُمست أو أُخفيت، الله أعلم.

إن استطعنا فك طلاسم هذا العالم الغامض القديم، فمن المؤكد أنه سيمدنا بروح وعقلية جديدة تجعلنا نرى العالم من حولنا بشكل أذكى، وسوف نتعرف على مقومات الأرض ونعمرها بشكل أرقى، وإذا خرجت هذه الحقائق المحجوبة للعلن، فسوف يجد العالم أجوبة لتساؤلات معقدة عجز المفكرون الكبار عن الوقوف على حقيقتها، وسوف نجد الحلول الفعلية لفك ألغاز عالمنا القديم ومعرفة ماضينا الحقيقي، فمن المؤسف حقا أن غالبية المؤسسات الأكاديمية في العالم كله، اجتمعت على فكرة أن التجمعات البدائية للإنسان لا يتعدى عمرها عمر الحضارات القديمة المعروفة كالسومرية والمصرية القديمة وغيرها، وأن الإنسان كان قبلهم مباشرة مشردا وتائها، ينشر وحشيته بين بني جلدته، ثم يسترخي ليلا في كهفه المهين.

إنسان الكهف

لقد أخبرونا بشكل علمي أن العصر الحجري الأول أو القديم قد بدأ قبل الميلاد بنحو عشرة آلاف عام، ويرسخون فكرة أن الإنسان في هذا التوقيت كان مجرد كائن بدائي، فوضوي، غبي، أبله، يتجول بشكل دائم ويتغذى على الفاكهة وعلى ما يصطاده من الأسماك، ثم بعد ذلك استقر وعاش بالمناطق التي تحتوي على الأنهار والبحيرات، إلى أن وصل إلى العصر

الحجري الحديث في الألفية الرابعة قبل الميلاد، ثم لاحقا عصر المعادن. معنى ذلك أن أسلافنا استمروا بدائيين لمدة ستة آلاف عام منذ الماضي البعيد ومرورا بالطوفان ولم يعرفوا الحضارة إلا متأخرا! هل تصدق ذلك؟! هل يُعقل أن هذا الإنسان القديم الذي كافح من أجل البقاء على الأرض، وذات القوة والبنيان، استمر آلاف السنين بدائيا ولم يستخدم عقله، ونحن في آخر مائة عام صعدنا للفضاء وتسكعنا على سطح القمر؟!

على كل حال هذا ما أخبرونا به، وقالوا إن أقصى تطور قد وصل إليه الإنسان القديم في هذه الأوقات هو اكتشاف الزراعة، نسبة لاستقراره بجوار مناطق المياه، ثم بدأ في إقامة المستوطنات، ثم كبرت المستوطنات وأصبحت مدنا، وفجأة وفي يوم من الأيام وبدون أي مقدمات، قدمت لنا الكرة الأرضية كائنا بشريا جديدا متطورا ذكيا ومعه تكنولوجيا عظيمة وعلوما في غاية التطور والتعقيد، وكأنها هبطت عليه من السماء، كيف هذا!، كيف استطاع إنسان بدائي جاهل أن يقفز بين عشية وضحاها من سنوات الجهل والتوحش والبدائية الطويلة - على حد رأيهم - والتي استمرت ستة آلاف عام، إلى مرحلة المعجزات العلمية واللاأفق! والغريب هو تجاهلهم وإنكارهم لمؤشرات عديدة تبرز أن في هذه العصور الغابرة حضارات ضخمة، متغافلين عن أن الكرة الأرضية كان لا يسكنها البشر بشكل فوضوي طول هذه السنوات على الإطلاق، بل بشكل حضاري متقدم، ففي الماضي البعيد كان يسود الأرض نموذج موحد من التكنولوجيا المتطورة ولكن مختلفة السمات على حسب كل منطقة، فجميع أساطير ونقوش العالم البعيد وأقوامه البائدة تحكي عن قصة عالم ذهبي متقدم انحدر فجأة بسبب كارثة كونية من المؤكد أنها الطوفان، والذي مسح العالم القديم من الوجود. الغريب أن بعض المنصات العلمية مؤخرا انتصرت لأقوال هذه الأساطير، وكذبت ادعاء الأكاديميين الذين ساروا على خطى « داروين» والذين أفحمونا بادعاءات نظرية التطور، وأن أسلافنا كانوا جنسا غير راقٍ أو أنهم قردة.

للأسف الشديد هناك أشخاص يعتبرون أنفسهم دون غيرهم المؤتمنين الرسمين الوحيدين على المعرفة الأصلية، وقد حددوا للجميع قواعد لا يمكن أن يتخطوها أو حتى يفكروا أو يبحثوا في حل لغز جديد، فظهرت أحكامهم النهائية متمثلة في:

أنه لا توجد أي حضارات قديمة ضائعة أو غامضة، وأنه لا توجد أي معطيات قديمة عصية عن التفسير، وأنه لا توجد أي غرائب أثرية تم توثيقها، وأن كل ما تقدم من رأي مجرد وهم، وأن الحضارة الأولى للإنسان لا يتجاوز تاريخها خمسة أو ستة ألاف سنة قبل الميلاد!

بالطبع هناك سؤال عميق جدا يسأله رافضو نظرية تقدم الأولين، فربما يقول أحدهم: كيف تقدم الإنسان الأول وتطور وهم لم يلبسوا لباسنا ولم يصِلوا لأشياء كثيرة جدا مما توصلنا إليه الآن؟ في الحقيقة، هو سؤال مهم جدا، ولا يستطيع أحد إنكار هذا الكلام، ولكن ردا على هذا الكلام فإن القدماء ربما وصلوا لأكثر مما وصلنا إليه الآن، ولكن من طريق ومنظور آخر، وبعمليات ووسائل أخرى، أضف إلى ذلك عشرات الرسومات المكتشفة في الكهوف القديمة لبشر يرتدون زيا متحضرا.

جميع الآثار القديمة المفهومة أو الغامضة تتفق على شيء واحد مخالف لما تعلمناه، جميها تدل على أن فترة ما قبل التاريخ كان أسلافنا لا يقطنون الكهوف والمستوطنات البدائية فقط كما يظن الكثير، بل كانت لهم ثقافات متقدمة ذات مستوى عال في كل أرجاء العالم، من سيبيريا حتى القطب الجنوبي، ومن جرينلاند إلى إفريقيا، والدليل على عظمة هذه الحضارات أنها رغم السطو عليها والتعديات القاسية، آلاف القطع والأجزاء منها قد نجت من الزوال، صامدة في وجه الشمس، ومازالت موجودة في السجلات والموروثات الشعبية والأساطير والملاحم الأدبية، لكن الغريب فعلا أن ثمة مجموعات وحضارات اختفت كلها في وقت واحد وكأنها تعرضت لسبب زوال شامل.

والآن، استطاعت بعض الأبحاث العلمية الحديثة تفسير أن الإنسان القديم عاش الحياة البدائية مرتين، وأنه قد عرف البناء والحضارة مرتين، حقا في المرة الثانية قد نهض بسرعة لم ينكروا ذلك، ولكن بمعلومات ووصايا سابقة، وبعقل وذكاء، على عكس ما يصوره الجميع. وتعتبر الظروف والكوارث كالدمار الشامل أو الطوفان العظيم، هي من أجبرته على أن يعيش الحياة البدائية مجددا، ولم يكن هذا غباء منه على الإطلاق، فرجل الكهف القديم بدا مؤخرا أنه لم يكن بالوحشية التي وصفوها لنا، ففي القرب من «نيس» الفرنسية وجدوا

في إحدى الكهوف القديمة مقبضا مصنوعا بمهارة كبيرة لشفرة حلاقة يعود إلى ما قبل التاريخ، وهذا تصرف أشخاص متحضرين لديهم فكر، ولكن طبيعتهم قد دُمرت، ما اضطرهم لاستخدام معداتهم الأولية من أجل البقاء. أما في بقعة أخرى بعيدة في جبال «سوبيس» في غرب بورنيو شمال غرب إسبانيا اكتشفوا كهوفا ضخمة، مبنية بشكل رائع ولها صالات واسعة ومزينة بمنتهى الدقة والرقي، ووجدوا الكثير من التحف والمصنوعات الموجودة هناك، والتي توحي بأن إنسان الكهف اهتم بالرسم والفن والزخرفة، ما ينم عن خلفية هذا الكائن البشري حضاريا، ورسومات الكهوف الأولى هي أروع وأرق من رسومات الحيوانات في مصر واليونان وبابل، والدليل على ذلك ما هو ظاهر في رسومات الحيوانات على الصخور في كهوف «ألتاميرا» و«لاسكوس» و«ريباداسيلا» وغيرها من الروائع الفنية، وبالنسبة لرسومات كهف «ألتاميرا» والموجودة بالقرب من «سان تاندر» بإسبانيا فهي تُعادل في جمالها وجودتها رسوماتنا الحديثة، أما رسومات كهوف كل من الجزائر وليبيا و«لاسكوس»، فهي دليل على أن إنسان الكهف استخدم الرسم المنظوري والشكل الحر، وهذا الفن المتطور لم نعهده نحن إلا في القرن الخامس عشر، كما أن رسومات الكهوف اتبعت طريقة منظمة في الترتيب الرمزي، ومنتشرة في كافة أرجاء أوروبا الغربية، وكانت

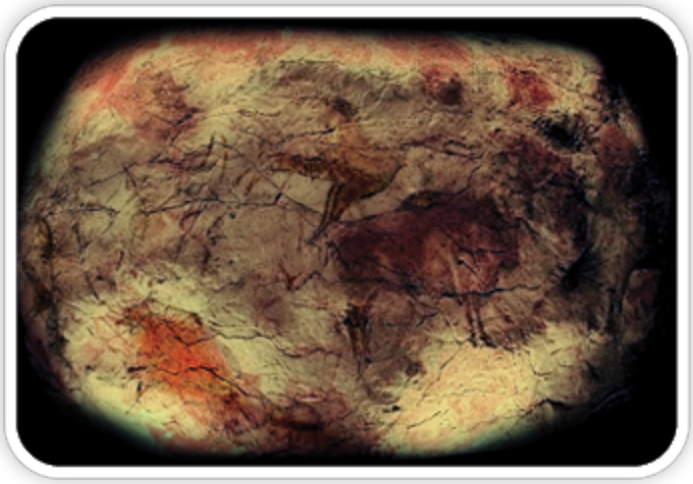

صورة لإحدى رسومات سقف كهف ألتاميرا

هذه الكهوف المزخرفة ربما تُقسّم

لبعض الأنظمة الميتافيزيقية التي مازلنا نجهلها، والغريب في الأمر أن كل رسومات الكهوف على الإطلاق مواضيعها لها نمط واحد شائع في كل أرجاء العالم القديم، وكأنها

جميعا كانت متصلة ببعضها أو من مدرسة واحدة.

ورجل الكهف القديم لم يعرف الرسم فحسب، بل عرف التأثير ثلاثي الأبعاد باستخدام الصخور، فصنع من الثغور الضيقة عيون ثور «البيسون» الغاضبة، وصور شقوق الصخر في رسمته على أنها جروح غزال مصاب، وقد استخدم تناقضات الضوء والظلال ووزعها على أشكال الصخور الطبيعية، ما يُوحي لنا الآن أن الحيوانات التي رسمها حية وتتنفس، ويقولون عنه بعد كل ذلك «إنسان الغاب طويل الناب!»، لا تصدق هذا، فثقافتهم الفنية هذه أكثر تطورا بالمقارنة مع مستواهم الفكري الذي أوهمنا به المجتمع العلمي، فلقد استخدموا الحبر في رسوماتهم، وهناك رأي مهم للعالم «روبير تشارو» بأن تصنيع أقلام من أكسيد الحديد أو المنجنيز المستخدم في الرسم يتطلب تقنية معقدة ومتطورة، فهل تعتقد أن إنسانا بهذه العقلية كان عاجز عن بناء حائط أو منزل؟ الإجابة لا، ولكنها كانت سمات متفرقة من شخص لشخص، ورغبات متنوعة، والدليل أن فنانو «لاسكوس» حولوا رسوماتهم هذه إلى معارض على ارتفاع ١٢ قدما فكيف صعدوا؟ من المؤكد أنهم صنعوا منصة، والمنصة شيء متطور في علم البناء وليست فكرة بدائية بالطبع، ومعرفة البناء هو سمة تسبق صناعة المنصات. ولتأكيد كلامي هناك فرن من العصر الحجري تم العثور عليه بفرنسا، والمفاجأة أنه كان مبنيا من حجارة على شكل طوب ومثبت بمادة الأسمنت! أي أنهم استخدموا الأسمنت، بل ووجدوا في «تشارو» معدات تعود لما قبل التاريخ منها فؤوس حجرية، أما في تشيكوسلوفاكيا ويوغوسلافيا تم اكتشاف منازل تعود إلى العصر الحجري، نعم منازل! وكشفت عن تقنيات بناء معقدة وتطبيقات من مجال الرياضيات والهندسة. أما رسومات كهوف الصين القديمة في جبال «هونان» تحتوي على صور لصيادين بملابس حديثة ومعاطف وسراويل أنيقة، أما بالنسبة لشعوب العصر الحجري والحضارات القديمة التي تَلَتْهم فمن المؤكد أنها قد ورثت التقويم القمري من حضارة أقدم منها كما قلت، وكما هو متوقع من الباحثين الأحرار، فتقويمهم كان يحتوي على آلاف الملاحظات المدونة مثل العلامات العمودية، والخطوط والنقاط، والرسم والنقش، والتي تم

اكتشافها بين إسبانيا وأوكرانيا، وتُعرف هذه الرموز الآن بأنها عملية ممنهجة لتسجيل مراقبة القمر لغرض التقويم، وهي عبارة عن دراسة معقدة جدا.

وقد يظن الكثير أن الإنسان في العصر الحجري لم يعرف غير الحجر والصخر، كيف نؤمن بأنه جاء من جذور متحضرة وأن أسلافه كانوا متقدمين وصنعوا حضارة بالصخر فقط! وفي الحقيقة هذا خطأ شائع، فإنسان العصر الحجري استخرج المعادن، فقد وجدوا الكثير من المعادن والتي تعود للعصر الحجري في غالبية أماكن العالم، ووجدوا خامات حديد في «سوازيلاندا» في جنوب أفريقيا، ووجدوه أيضا بين الآثار بفرنسا وفي غالبية المناطق الساحلية، بل واكتشفوا منجما أهم، يعود لفترة ما قبل التاريخ على عمق ١٨ قدما بالقرب من نهر «أوتنوناجون» بميتشيجن، والذي احتوى على كتلة من النحاس تزن ٦ أطنان، وفي مدخل المنجم وجدوا مطرقة حجرية تزن ٣٦ رطلا، ومنجم آخر في قرب بحيرة «سوبيريور»، وغيرها العديد.

برهن الكثيرون تخلف الإنسان الحجري لآلاف السنوات بسبب أنه استخدم السكين المصنوع من الحجر الصوان أو الفأس أو غيره من الأدوات الحجرية فقط دون المعدنية، فلو كان هذا صحيحا وقاعدة عامة لوجدنا من تلك الأدوات الحجرية الملايين، فليس من المنصف أن نضع صورة شاملة عن تلك الفترة بسبب استخدام بعضهم تلك الأدوات، ففي القرن التاسع عشر استخدم الناس في أماكن متفرقة الأدوات نفسها، هل هم حجريون؟! بل إلى الآن هناك أشخاص في أماكن متفرقة مازالوا يستخدمون أدوات صوّانية، والآن من الممكن أن يلتقي إنسان حديث مع إنسان حجري في هذه الأيام، فقط سافر أنت إلى أدغال أفريقيا المنغلقة وقف أمام أحد سكان قبائلها.

إذًا هناك سؤال مهم جدا، إذا كان إنسان الكهف قد عرف المعادن وأن هذه الاكتشافات المعدنية تعود له، لماذا لا يتم اكتشاف آثار معدنية لتلك الفترة، لماذا لم نجد سوى أدوات حجرية فقط، الرد ببساطة – أنه نادرا ما يبقى المعدن لفترة طويلة بسبب تعرضه للتعرية الجوية، فغالبية أجسامه تتلف مع الوقت وتصدأ وتتبعثر ولا تعيش طويلا، ما يصعب تمييز

بقاياها، فتبقى الصخور فقط، أما المعادن فلم يجدها علماء التنقيب ولكنهم بالفعل وجدوا آثارها، ففي كهوف بالقرب من مدينة «أوديسا» في روسيا تم العثور على عظام حيوان يعود لما قبل التاريخ، وجسده كان مقطعا على شكل ثقوب دائرية، وصرح الخبراء أنه قد تم ذبحه وتقطيعه بأداة حديدية مسنونة.

لماذا لم يصل إلينا

تاريخ أمم ما قبل الطوفان؟

يبقى هذا هو السؤال الأهم: إذا كانت هذه العصور المتقدمة عرفت الازدهار، لماذا لم نسمع إلا عن عصر ساحق متخلف؟

السبب في ذلك ظاهرة قمع الأفكار المعارضة، والتي تعود إلى آلاف السنين، فأي محتل أو غازٍ كان أول إجراء يقوم بفعله عند احتلال بلدة جديدة، هو استبدال الثقافة القائمة ووضع ثقافة جديدة متوافقة مع سلطته، وكان هذا يتطلب منه أن يدمر الموروث الثقافي والتاريخي كله، فلو فتحت سجلات التاريخ ستجد أن بعد دخول المحتل أي دولة على وجه الأرض، أول ما يتم استهدافه هي أماكن الكتب والمنصات العلمية، واضطهاد أو اغتيال علمائها ومثقفيها، لكي ينجب المجني عليه فيما بعد أجيالا خاضعة لفكرهم، ما يقيهم شرور المقاومة والمعارضة.

وعلى سبيل المثال، كان خلفاء الإسكندر الأكبر قد بنوا مكتبة «الإسكندرية» كمنارة للعلوم وهذا أمرٌ جليّ، لكن الإسكندر وقومه أيضا هم من هدموا مكتبة «بيريسبوليس» في بلاد فارس، وهدموا الكثير من المؤسسات الثقافية خلال غزوهم للهند وأفغانستان وسوريا، فهم عندما بنوا مكتبة الإسكندرية لم يكن هدفهم نصرة العلم والثقافة، بل نصرة علومهم وثقافتهم اليونانية فقط. بناء المكتبة هو عمل جليل ورائع لكن بسببه ربما انطمست المصادر القديمة التي سُجّل فيها الوقائع السابقة للأرض، وبأسلوب ممنهج بدأت الثقافات اليونانية تطفو على السطح صانعة لنا حلقة كبيرة مفقودة من السجلات التي انتهت للأبد،

أو ربما تتوارثها أجيال حالية في السر ولا نعرف مَن هم. وللعلم، ليس من مصلحة أي غازٍ أو محتل نشر ثقافة تنويرية في البلاد التي يحتلها، وهذا بالضبط ما فعله أيضا الإسبان خلال غزوهم لأمريكا الجنوبية.

ورجوعا لمكتبة الإسكندرية، فقد شهدت على أوقات مختلفة تدميرا قاسيا لكمية هائلة من المخطوطات والسجلات المطبوعة التي وصلت في عصرها القديم إلى مليون مخطوط، كانت تحتوي على مواضيع متعددة عن العلوم والفلسفة، وليس هذا فحسب بل كانت تحتوي على مخطوطات أسرار العالم القديم، فـ «يوليوس قيصر» وحده كان قد دمر سبعمائة ألف مخطوط نادر، عندما دخل الإسكندرية ليقتل «بطليموس الثالث عشر» بتوسل من أخته «كليوباترا»، فاستمر حرق الكتب فيها ستة أشهر، حتى أن هذا الدمار الكارثي قد طال أوراق البردي في مكتبة «ممفيس» النادرة أيضا.

ومكتبة الإسكندرية مثلها مثل مكتبات عديدة تم تدميرها، فعلى مر التاريخ وقعت جرائم هائلة في حق الكتب وهي:

- في عام ٣٣٥ ق.م، تم حرق مكتبة «برسيبوليس» على يد الاسكندر الأكبر، ويقال إنها كانت تحتوي على عشرة آلاف مخطوط.

- ثم في عام ٢٧٠ ق.م، قام الإمبراطور الصيني «تسي شن هونغ» بحرق جميع الكتب الصينية القديمة، ويقال إنها كانت مئة ألف مخطوط.

- ثم مرة أخرى في الصين أيضا، أصدر الإمبراطور «شي هونج تي» عام ٢١٣ ق.م، قرارا بتدمير عدد ضخم من الكتب.

- ثم في عام ١٤٦ ق.م، تم تدمير مكتبة «قرطاج» وكانت تضم خمسمائة ألف مخطوط، والتي اشتعلت لمدة سبعة عشر يوما على يد الرومان.

- كذلك وبنفس الطريقة دُمرت مكتبة «بيرغاموس» في آسيا الصغرى، والتي تحتوي على مائتي ألف كتاب.

- وفي عام ٨٤ ق.م، تم حرق جميع الكتب الملحقة بمعبد «أبولو» باليونان.

- ثم تم حرق مكتبة الإسكندرية على يد يوليوس قيصر، عام ٤٨ ق.م.

- كذلك فعل يوليوس قيصر في بلدة «أوتن» الفرنسية، والتي كانت تحتوي على مخطوطات مذهلة.

- ثم قام الإمبراطور الروماني «أغسطس» عام ١ ميلادية، بحرق كل الكتب الغريبة على الحضارة الرومانية، مثل الكتب الفرعونية والتبتية والهندية، وكانت كتبا مهمة تتعدى ألفي كتاب.

- وفي عام ٥٤ ميلادية، أمر القديس «بولس» بإحراق جميع الكتب الموجودة في مدينة «أفسوس».

- أما في عام ٢٩٦ ميلادية، أمر الإمبراطور «دقليانوس» بحرق جميع الكتب والمخطوطات الإغريقية والفرعونية الموجودة في البلاد.

- وبعدها بأعوام قليلة، قام الحكام المسيحيون بإحراق جميع مكتبات أفسوس مرة أخرى، والتي كانت تحتوي على الآلاف من الكتب والمراجع النادرة.

- وفي عام ٣٨٩ ميلادية، قام الإمبراطور «تيودوسيوس» بحرق جميع المكتبات المعروفة في عصره.

- وفي عام ٤٩٠ ميلادية، نشب حريق في مكتبة الإسكندرية مرة أخرى.

- وفي عام ٥٤٠ ميلادية، هاجم الشعب الروماني مكتبة «روما» وأتلفوا ما بها من كتب ومخطوطات، والتي كانت تتعدى عشرات الآلاف.

- ثم نشب حريق في مكتبة الإسكندرية للمرة الثالثة عام ٦٤١ ميلادية.

- وفي عام ٧٢٨ ميلادية، تم حرق مكتبة بيزنطة على يد «ليون أيزوري» والتي كانت تحتوي على أكثر من نصف مليون كتاب.

- وفي عام ٧٨٩ ميلادية، أحرق الملك «شارلمان» جميع المخطوطات والمراجع الوثنية المضادة لفكر واعتقاد الكنيسة.

- وفي القرن السادس، تم تدمير قسم كبير جدا من الأدب الأوروبي الكلاسيكي بشكل من منظم من قِبل الكنيسة «البابوية» في سبيل القضاء على الوثنية والتي طالت أوروبا كلها.

- وفي القرن الثامن، أحرق «ليو إزاروس» ثلاثمائة ألف كتاب في القسطنطينية.

- وفي عام ١٢٢١ ميلادية، أحرق «هولاكو» مكتبة بغداد ومكتبات العراق.

- وفي نهاية القرن الثالث عشر، كان الكهنة المسيحيون قد انتهوا من إحراق كل مكتبات أوروبا.

- ثم قامت محاكم التفتيش بحرق جميع الكتب المضادة للمسيحية في القرن الرابع عشر الميلادي.

- وفي القرن السادس عشر قام الأرشيدوق «دييغو دي لاندا» بإحراق كل مكتبات المكسيك القديمة.

- ثم قام الغزاة الإسبان بحرق كل الآداب المتعلقة بحضارة المايا: وسط صرخات وبكاء علماء المايا الذين شاهدوها وقت الحرق، والتي فنيت تماما ما عدا أربع وثائق فقط

موجودة الآن في متاحف أوروبية.

- ثم في سنة ١٥٦٦ ميلادية، أمر الملك «ألبيرو» بحرق كل الرسوم والنقوش الموجودة على اللوحات وجدران المعابد القديمة، ولو كانت قد نجت تلك الاثار إلى الآن، لكنا عرفنا كل شيء عن حضارات أمريكا الجنوبية الغامضة.

- وفي عام ١٥٨٦ ميلادية، أقر مجلس «ليما» بحرق السلسلة الشهيرة والمعروفة بـ«الحبال المعقودة» والتي كتب شعب «الإنكا» تاريخهم وتاريخ أجدادهم عليها، ليفقد العالم واحدة من أعظم مخازن المعرفة في العالم القديم.

- وفي القرن الثامن عشر، هبط الكاهن «سيكار» إلى مصر، ليجوب البلاد ويشتري المخطوطات النادرة من الأهالي ثم يحرقها بقصد التخلص من العلوم الوثنية.

- وفي عام ١٧٩٠ ميلادية، أحرقت جميع أعمال العبقري البرتغالي «جيسماو» والذي توصل إلى صنع أول طائرة في التاريخ الإنساني المكتوب، والذي أضاف العلوم الكيميائية غير العادية، وكان هذا على يد محاكم التفتيش.

- وعندما قامت الحروب النابليونية دُمرت ونُهبت الكثير من المكتبات في أوروبا.

- وفي الحرب العالمية الأولى دُمرت مكتبات عديدة وضخمة.

- أما في الحرب العالمية الثانية، ففقدت مخطوطات ضخمة ومراجع نادرة، وفقد الإنسان علوما كثيرة تم التوصل إليها حديثا، والتي اختفت للأبد.

بهذا الشكل ظلم الإنسان نفسه، ومحى تاريخ أسلافه بيده، ليعطي لكل من هب دب فرصة التحكم في ماضيه، بل في طبيعته وجيناته، فلا تتعجب إن تطاول أحدهم على الجنس البشري ليقول إن أجدادنا كانوا قردة.

هذا التدمير الممنهج للوثائق في أماكن متفرقة من العالم هو السبب وراء جهلنا عن ما كان يجري بالضبط في العالم القديم، وليس بأيدينا أي شيء سوى حلٌ واحد، ربما قد ذكره الباحث «أندرو توماس» عندما قال ليس للباحثين حيلة غير الاعتماد على الأجزاء غير المترابطة والعبارات والمقاطع الهزيلة في سبيل بناء صورة عن الماضي، فماضينا البعيد للأسف يعتبر فراغا عشوائيا مملوءا ببعض اللوحات التذكارية والتماثيل والرسومات وعدة أدوات ومصنوعات أثرية، وإذا رميت الأمر على عاتق الباحثين والمكتشفين في تفسير هذا الماضي السحيق فيجب عليك أن تعلم جيدا أن الاكتشافات ستستمر للأبد مادام يُعمر الإنسان الأرض، وحتى يوم الدين، فهناك عالم آخر قد مضى لا نملك تحديده بالضبط، لكن ما هو واضحٌ أنه كان عالما عظيما، فتلك المدن التي تقبع اليوم تحت مستوى الأرض أو الماء، أو رمال الصحارى أو التي ابتلعتها الأحراش، أو التي ماتزال سالمة على عمق ميل تحت جليد القطب الجنوبي، تقفُ صامدة في تحد تام لعوامل الطبيعة وتأخر السنين وكأنها تقول نحن موجودون، وهي ليست دليلا على قوة الأقوام البائدة قبل الطوفان وحسب، بل تدل على أن الإنسان القديم كان قد عمر معظم يابسة الكرة الأرضية في جغرافيتها القديمة، أما الآثار المختفية والتي لا نملك عنها أي معلومات سوى في الأساطير كانت موجودة وصامدة، أما اختفاؤها فكان قد تم في العصور السابقة القريبة، فعلى سبيل المثال آثار «تياهواناكو» المختفية في بوليفيا التي صمدت لآلاف السنين، والتي جاءتنا أخبارها وقصصها منذ القرن السادس عشر حتى القرن التاسع عشر، كان قد ذكرها المسافرون الذين سافروا إليها في ذلك الوقت، ووصفوا أعمدتها الجليلة بل ورسموها وصنعوا مخططا كاملا لها، أي أنها كانت موجودة وصامدة حتى القرن التاسع عشر، وكانت تحتوي على جدران ضخمة ذات مسامير هائلة من الفضة في المبنى الحجري، وتماثيل ضخمة لرجال ونساء، أين ذهبت الآن! لماذا اختفت من الوجود؟ لأنه ببساطة سلبها الإسبان، وحتى الحكومة البوليفية نفسها ساهمت في تدميرها، فقلد استخدموها كمواد للبناء! أما الإسبان فلهم النصيب الأكبر من دمار آثار وسط وجنوب أمريكا على مر عصور غزوهم الإسباني الكبير، فكانت من عاداتهم صهر كل القطع والمصنوعات الذهبية هناك بشكل فوري.

لقد دمر الإنسان تاريخ أجداده الأولين سواء كان أثرا أو مخطوطا أو حتى حجرا، ولم يرتضِ بأن يكون تاريخهم غامضا فحسب، بل زاد هو في غموضه أكثر، فبسبب قسوة السنين لا تزال آثار جزيرة «الفصح» واللوائح في «موهنجو – دارو» في باكستان، ومخطوطات حضارة «المايا» غامضة وشكلها مخيف، أما مخطوطات ونقوش «تيهوانكو» و«ماشوبيشو» فجميعها دمرها الإنسان للأبد، وآثار كثيرة أخرى لا يمكننا فهمها ولا استيعاب دلالتها.

لا أنكر أن الأمر معقد، ولكن إعادة النظر والمراجعة للقطع الأثرية التي صنفوها فنية فقط، وأدوات العبادة وغيرها، من الممكن أن تنتج عنها معلومات جديدة عن هذا الماضي الغابر، وللأسف أعتقد أن هذا مستحيل أن يتحقق، في ظل عدم اعتراف الغالبية بوجود الحضارات القديمة من الأساس.

يجب إعادة صياغة فترة ما قبل التاريخ، لا بد ألا نتجاهل الطبيعة الحقيقية للعلم، كفانا صياغة الحقائق المبنية على فرضيات، فحلقة الدائرة المفقودة والتي فصلتنا عن أجدادنا، وأفقدتنا إرثنا، تتسع، تتسع يوما بعد يوم، يجب أن نكتشف أصولنا، يجب إعادة صياغة فترة ما قبل التاريخ حقا.

ما بعد الكارثة

كيف عادت الحياة للأرض

أصبح كلُ شيء خرابا، لا حياة ولا استقرار، انتهت حضارات الإنسان الأول، ودُفنت معالمه وآثاره تحت الماء، وليس هذا كل شيء، بل المصيبة أن هذه الكارثة قد تلاها زلازل وهزات أرضية لقرون، ثم ترتب على ذلك نشوب مالا يقل عن ثلاث آلاف ثورة بركانية ضخمة، ثم ظهرت غمامة سوداء وغبار داكن قد غطى سماء الأرض كلها لفترات طويلة. حُجبت الشمس، وأصاب المناخ الضرر الشامل لسنوات طويلة، واستمرت درجة الحرارة في الانخفاض.

إنه شعورٌ قاس للكرة الأرضية، فالمحيط دافئ بل ملتهب، أما الهواء فبارد، وهذا كفيل في تسبب هطول سريع للثلج، فنزل الجليد وبدأ في تغطية ظهر كوكبنا، ثم تمكن أخيرا من تبريد محيطها الملتهب، وبعدها تحولت الأرض إلى جليد، كان الناجون من تلك الفاجعة يكافحون من أجل البقاء وملتزمون بالعيش في أعالي التلال، بعد ما أفلتوا من الموت بأعجوبة، فالكثير من المناطق المنخفضة ما زالت مغمورة بالمياه لفترات طويلة. وبعد مضي الوقت، تراجعت المياه بشكل تلقائي وتدريجي فتوسعت الأرض الخصبة رويدا رويدا، ثم بدأ الجليد في الذوبان (وللعلم الجليد مستمر في الذوبان حتى هذه اللحظة، ما لا يمنع توقع كارثة مستقبلية، فمنذ ألف سنة مثلا كانت هناك أماكن مغطاة بالجليد، وإلى الآن مستمرة في الظهور كما كانت توضح بعض الخرائط النادرة كخريطة حجي أحمد).

استمر الناجون يكافحون ويتغلبون على هذه الكارثة بشكل عجيب، وقد أنقذوا القليل من علومهم وتقنياتهم المتطورة، وبعضا من الحيوانات، ليبدأ الإنسان إعمار الأرض من جديد، ووجد الناجون أنفسهم أمام عالم جديد ومختلف تماما عما عهدوه، أرض قاحلة، وتلال محطمة وبائسة، حرارة غير مستقرة تماما، من أقصى الحر إلى أقصى البرودة، والعكس، جدران صخرية في كل مكان تعيق السير، مناطق قد انعزلت تماما بسبب الجدران الصخرية التي تراكمت على شكل جيوب مخيفة.

تقول الأساطير القديمة، إنه بعد الطوفان، قام رجل اسمه «يو» بتقسيم بلاد الصين إلى مناطق واتجاهات ونواح، وأنشأ القنوات من أجل بدء الحياة هناك، والاتجاه إلى الزراعة.

أما في الهند، فصحراء «ثار» كانت بعد الطوفان بها أنهار، ما جعل الإنسان يعمرها فظهرت الزراعة والمدن هناك.

أما أفريقيا، فكانت صحراؤها الشمالية جزءا من المحيط، وبعد فترة ظهرت المناطق الخصبة التي تحيط ببحر داخلي كبير، ثم بعد ذلك بدأ يتقلص تدريجيا، وعمت المناطق الخضراء فيها، فعجت إفريقيا كلها بالسكان نظرا لخصوبتها، وخصوصا الشمال، لا تتعجب، فالصحراء الكبرى كانت قديما جنة من جنان الأرض، ولعل رسومات كهوف جبال «تاسيلي»

بالجزائر تدل على ذلك، حيث صورت البشر والحيوانات في بلاد تملؤها البحيرات والخيرات والأشجار، لكن مع جفاف المناخ اختفت الحياة من عليها وأصبحت صحراء قاحلة.

أما بلاد الشرق الأوسط، فظهر فيها الخير، فعمرت بلاد كنعان، وازدهرت حضارات سومر وآشور وبابل.

أما في مصر، فكان أول ملوكها وهو «مينوس»، أو كما سمي في الإنجيل «ميصرايم»، وهو حفيد سيدنا «نوح» عليه السلام، قد أنشأ مستوطنة في مصر قابلة للعيش، فوجد من الضروري القيام بتشييد الحواجز لحجز مياه النيل، وبدأ بتأسيس الحياة فيها.

أما روسيا فقد تقلص بحر «القوقاز» ما بين روسيا وإيران، والذي كان مدموجا بين بحر «آرال» والبحر «الأسود» وظهرت الحياة هناك.

أما أمريكا الجنوبية فستجد فيها رسومات صخرية ورموزا محفورة على مرتفعات عالية موجودة إلى الآن، ويقول سكان القبائل هناك بأن أجدادهم الناجون من الطوفان كانوا قدر ساروا بجوارها وهم راكبين زوارقهم، فحفروا عليها بأصابعهم وقت ما كانت طرية بسبب الفيضان، حيث يستطيع الإنسان النقش عليها.

أما أمريكا الوسطى فازدهرت فيها جزيرة «يوكوتان»، التي للأسف غير مأهولة بالسكان الآن، أما وادي «شيهواهوا» فكان جنة من جنان الأرض. وأماكن كثيرة غير ذلك على وجه الأرض الجديدة عمرها الإنسان بعدما استقرت الحياة، ولكن أثبتت الأبحاث أن أولهم وأسبقهم في تشييد التجمعات الإنسانية هتي تلك الحضارات التي شهدتها بلاد ما بين النهرين أو وادي الرافدين.

* * *

الفصل الثاني

أعظم حضارات الأرض

مما لا شك فيه أن حضارات العالم بعد الطوفان كثيرة، وقد يصل عددها للمئات، حضارات قامت وانتهت، منها ما عاش لآلاف السنين، ومنها ما لم يتجاوز عمره عشرات السنين، فليس هناك أمة على وجه الأرض بلا تاريخ، إذ كيف يُعقل أن يوجد حاضر لا ماضي له، فلكل أمة تاريخ، ولكن هناك طمس وتزوير للحقائق، إما لتضليل الحق وإما لأن تاريخهم لا يُشرف بأحداثه الملوثة والبشعة، وحضارات العالم لا تعد ولا تحصى، فالتاريخ ممتد وطويل، ومن يزعم أنه على دراية بكل ما حدث فيه فهو مخطأ، فالعالم قد شهد حضارات عديدة، قامت واختفت ولم تصل إلينا أخبارها.

سنحكي في هذا الفصل أعظم وأبرز تلك الحضارات بالترتيب منذ القدم، وسنلقي الضوء على نهايتهم المأساوية التي تكتظ بالحكم والعبر.

الباب الأول

حضارة ما بين النهرين

مصطلح حضارة ما بين النهريين، أو حضارة بلاد الرافدين، يُشير إلى مجموعة حضارات متسلسلة، وقعت في بلاد العراق - سوريا – تركيا، وكانت نبتتها الأولى من بين أحضان نهري دجلة والفرات، ولعل أشهر هذه الحضارات، حضارة «سومر» و«أكد» و«بابل» و«أشور» و«كلدان»، وتعتبر بلاد الرافدين من أولى المراكز الحضارية في العالم بعد الطوفان على الإطلاق.

المكان: مدينة «أوبيس» المطلة على نهر دجلة، والتي تبعد نحو ٨٠ كلم شمال شرق مدينة بابل عاصمة الإمبراطورية البابلية، آخر إمبراطوريات حضارة بلاد الرافدين.

الزمان: ٢٧ سبتمبر من عام ٥٣٩ ق م، وهو بداية شهر تشريتو البابلي (٢٧ سبتمبر-٢٧ أكتوبر).

الحدث: حرب طاحنة، ودماء تغطى الأرض، ورائحة الخيانة تطغى على الأجواء، فالشرفاء والنبلاء يُطعنون من الخلف، وقوات الفرس (الأخمينين) تُقاتل بشراسة بفضل ترتيب قائدهم وملكهم الأعظم «كورش الأكبر»، والذي استخدم أقذر الأسلحة العسكرية وهي تجنيد الخونة، فلقد استطاع تجنيد قائد الجيش البابلي بنفسه القائد «جوبارو» أحد قادة الجيوش البابلية الكلدانية في زمن آخر ملك بابلي «نبونيد» أو «نبونائيد» والذي كان قد استأمنه على جيشه في بابل، بينما كان «نبونيد» في شبه الجزيرة العربية في مدينة «تيماء» تاركا ولده «بلشاصر» الساذج وعديم الخبرة على كرسي الحكم بدلا منه هناك.

لم يكن يعلم «نبونيد» بأن «جوبارو» صاحب الأصل الميدي الفارسي سيتسبب في إسقاط آخر حكم وطني في بلاد الرافدين، وسيسلم مدينة بابل للفرس. لم يكن يعلم أن هذا القائد له مبرراته التي أقنعته بأن هذا الموقف لا يعتبر خيانة، حيث كان مقتنعا تماما بأنه واجبٌ

ديني، وذلك بعدما ما استطاعت كهنة الإله «مردوخ» إقناعه بذلك، فما لبث أن رأى «نبونيد» عدوا له، لأنه فضل عبادة الإله «سين» عن عبادة إلههم السائد «مردوخ»، فسمح لـ«كورش» الأخميني بالدخول لبابل وقتل ابنه «بلشاصر» بمنتهى البساطة.

وقف «جوبارو» داخل المعركة بكل فخر، مباركا لتوسعات الإمبراطورية الفارسية التي بسطت سيطرتها على الغرب الأسيوي كله، وتمكنت خلال سنوات قليلة من إسقاط إمبراطوريتي «ميديا» و«ليديا» وتمكنت من السيطرة على أراضي إيران وتركيا وأذربيجان وأفغانستان وتركمانستان. وقف «جوبارو» يشاهد سفك دماء القوة الوحيدة الموجودة في غرب فارس، إنها بابل العظيمة، التي كانت تحكم بلاد النهرين والهلال الخصيب، وشمال شبه الجزيرة العربية، والسواحل الغربية المطلة على الخليج العربي، الذي كان يسمى آنذاك ببحر الكلدان نسبا للكلدانيين الذين كانوا يحكمون بابل آنذاك. كان «جوبارو» يعلم أن الفرس به أو بغيره قادمون، فمع زيادة النفوذ الفارسي في المنطقة، كان ضعف السلطة في بابل يزيد، فملك بابل فضل زيادة التوسع الروحاني باحتلال أراضي شمال شبه الجزيرة العربية، فكان يكره البقاء في بابل، لأنه فضل عبادة الإله «سين» والذي كانت والدته «أداغوبي» الحارانية كاهنة عنده. ترك كلَّ شيء ببابل وفضل الاستقرار في مدينة تيماء التي تقع حاليا في السعودية، تاركا ابنه الضعيف عديم الخبرة «بلشاصر» على عرش بابل. ولقد ذُكر في سفر دانيال في الكتاب المقدس أن ابنه «بلشاصر» كان لا يطمع في الحكم، بل كان يكره الكرسي، فكان دائما يفضل إقامة الحفلات الماجنة، والاستمتاع بالخمر والنساء.

الفرس يتقدمون في المعركة وجيش بابل بدأ في الانهيار، بفضل ترتيبات «كورش الكبير»، الذي حصد هذا النجاح المبين، والذي شعر بنجاحه الأكبر بعدما استعاد في ذاكرته تاريخ هذه البلاد العتيقة، وها هو الآن قد دخلها، محاولا إسقاطهم بعد علوِّ أمجادهم المحفورة لآلاف السنين، فكان يعلم جيدا أن هؤلاء يتباهون بتاريخهم منذ الهجرات الأولى لهذه الأرض، كان يعرف جيدا أن بلاد الرافدين هي أول من عرف الزراعة، حيث كانت البداية

هناك في قرية «جرمو» في شمال العراق، وكانت الزراعة وقتها محدودة وعلى نطاق ضيق جدا، لتبدأ أولى حضارات العالم في الظهور.

وقف كورش الكبير يشاهد تقدم فرسانه، ليشرد بذهنه قليلا متأملا تاريخ تلك الحضارة العريقة، ويسترجع تاريخها العريق.

كيف ظهرت الحضارة في وادي الرافدين؟

كان يعلم كورش بأنه يحتل بلادا عريقة، عرفت الحضارة منذ فترة مبكرة جدا، فمن الأمور المتفق عليها بين غالبية العلماء المختصين في العصر الحاضر، أن السومريين هم سكان العراق الأصليون، الذين بنوا «حضارة العبيد» في وسط وجنوب العراق، وكانت أراضيهم تمتد جنوبا إلى جزيرة دلمون (البحرين حاليا)، ثم ظهر عصر «فجر السلالات» والذي يُعرف بعصر دويلات المدن، حيث لم تتوحد البلاد حتى هذا الوقت تحت مملكة كبيرة واحدة، كانت حضارتهم متقدمة منذ قديم الأزل، فهناك ابتدع الإنسان الكتابة لأول مرة في تاريخ الإنسانية في الألفية الخامسة قبل الميلاد، ثم ظهرت الكتابة علي الألواح الطينية باللغة المسمارية عام ٣٦٠٠ قبل الميلاد، وكان يُنقش بقلم ذو سن رفيع على الطين وهو طري، ثم يجفف الطين في النار أو الشمس، ثم ابتكر المصريون القدماء الكتابة الهيروغليفية عام ٣٤٠٠ قبل الميلاد، واخترعوا الورق فانتشرت الكتابة وعرفها الإنسان. ولقد نضجت الكتابة وانتشر استعمالها في العصر السومري، ودونت بها السجلات الرسمية، وأعمال الملوك والأمراء، وعلاقاتهم بغيرهم من الحكام، والمعاملات التجارية والأحوال الشخصية والمراسلات والآداب والأساطير، والشؤون الدينية والعبادات. ولغة السومريين تعتبر من اللغات التي تعرف بـ«المُلتصقة»، فكثيرا ما تُدمج مفردتان لتصبحا كلمة واحدة يستند معناها إلى معاني الكلمات الداخلة في تركيبها.

وحضارة بلاد الرافدين كانت ناضجة جدا، فشهدت هذه المنطقة خلال هذه الأطوار اتساع النشاط الزراعي وبداية الحياة الحضرية وقيام أولى المدن. فلقد عرفوا فن التعدين وفن النحت، وعرفوا السفن الشراعية وابتدعوا دولاب الخزاف، وصنعوا الآجر المفخور،

والعربات ذات العجلات، وصنعوا المحراث، كما بدأوا في إقامة المباني العامة كالمعابد منذ بداية طور «العبيد»، وعُرف طور «الوركاء» عام ٣٥٠٠ ق.م بعهد محاولة الكتابة، أو العهد الشبيه بالكتابي، وخلال الطور الذي تلاه وهو طور «جمدة نصر» وُضعت قواعد الكتابة تماما في حدود سنة ٣٠٠٠ ق.م، ثم جاء:

الحكم الأكدي

شهد هذا العصر بدايته عندما انتهى عهد فجر السلالات على يد الملك «سرجون الأكدي» عام٢٣٧١ ق.م.، وبدأ هذا العصر بحدث يُعتبر هو الأهم، وهو توحيد حضارة ما بين النهريين في مملكة واحدة. وسرجون كان اسم هذا الملك، أما الأكدي فكان لقبه، لأنه كان من الأكديين، والأكديين من الأقوام النازحين من شبه جزيرة العرب إلى العراق، ويُعتقد أن هجرتهم كانت في أوائل الألف الثالث قبل الميلاد أو قبل ذلك بقليل، ويقال أن الأكديين كانوا قد عاشوا جنبا إلى جنب مع السومريين منذ أقدم العصور، وعرفت مناطق وسط وجنوب العراق منذ وقتها باسم بلاد «سومر» و«أكد».

وحكم مؤسس الحضارة الأكدية «سرجون» البلاد لمدة خمسة وخمسين عاما، تطورت فيهم الحضارة، وظهرت العمارة والبنيان في أبهى صورها وتميزت بالقوة والحيوية والحركة، وأدخلت الإصلاحات على نظام الحكم والجيش، وطورت أساليب الحرب والسلاح، ومن أشهر حكام تلك الحضارة وأقواهم «نرام – سين» وقد شهدت البلاد في عصره أربعين عاما من الحضارة الذهبية، وبعد أن انتهى حكم «نرام – سين»، حكم الأكديين ملوك ضِعاف، مما شجع «الكوتيين» أو كما أطلقوا عليهم «الأقوام الجبلية»، أو كما وصفتهم النصوص المسمارية القديمة بـ«أعداء الآلهة»، على غزو بلاد «سومر» و«أكد».

الغزو الكوتي (الفترة المظلمة الأولى)

كان ينتظر هؤلاء الكوتيون البربريون الفرصة للانقضاض على المراكز الحضارية جنوب البلاد، ثم بالفعل انهارت الدولة الأكدية إثر هجوم الأقوام الكوتية واكتساحها السهل الرسوبي، وتُبين لنا جداول الملوك الاضطراب والانحطاط الذي حل بالبلاد في عهدهم، وانتشار الفوضى السياسية التي ضربت كل أقاليم البلاد، حتى لم يكن يُعرف من فيهم الملك ومن فيهم المأمور، وقد وصفتهم النصوص المسمارية السومرية والأكدية بأنهم أقوام بربرية لا تعرف الحضارة، فكانوا لا يحترمون الآلهة، وانتُهكت على أيديهم المعابد، وتأذى منهم الكبير والصغير، وكانت مدة حكمهم، والتي تمركزت في منطقة «كركوك»، مظلمة جدا، فعم الاضطراب الشامل كل مكان، وكانت ستموت الحضارة في تلك البلاد

تمثال الأمير «كوديا» أو «جودية»

صاحب الاعمال الرفيعة

العتيقة

للأبد، ولكن من هبات الله أنه عوض عن ذلك بازدهار الحضارة في جنوبي العراق، وبخاصة حضارة السلالات السومرية الحاكمة في المناطق الأخرى من البلاد مثل سلالة «الوركاء»

وسلالة «لكش» الثانية، التي من أهم أمرائها الأمير «كوديا»، والمشهور الآن بالتماثيل الحجرية الخاصة به، والمخاريط الطينية والأسطوانات التي حوت كتابات مطولة، تم تدوينها بأسلوب أدبي رفيع، والتي تنتصر لمروءة وبطولة «كوديا» أو «جودية»، وتصف أعماله العمرانية وجهوده في صيانة ما لا يقل عن خمسين معبدا، واستمرت البلاد تحت سيطرة البربريين حتى جاء عام ٢١٢٠ ق.م.

الحكم السومري للبلاد

في عام ٢١٢٠ ق.م، ظهر حاكم سومري شديد وقوي في مدينة «الوركاء» اسمه «أوتو حيكاسل»، استطاع أن يجمع مدينته على قلب رجل واحد، وقادهم في حرب تحرير شاملة ضد الأقوام الكوتية الغازية، وبالفعل تمكن «أوتو حيكال» من طردهم ودحرهم، وحاول ملك الكوتيين أن يلوذ بالفرار، ولكنه فشل في ذلك، وانقض عليه أهالي مدينة «دبروم» وجاءوا به للقائد السومري «أوتوحيكال»، الذي استطاع بعد ذلك توحيد البلاد تحت زعامته، ولكن للأسف لوقت بسيط، حيث استطاع حاكم مدينة «أور» وقتها الذي يُدعى «أور- نمو» أن يستقل بمدينته ويؤسس سلالة جديدة تمكنت خلال فترة قصيرة من الطفو والازدهار، وقضت على «أوتو حيكال» وعلى بقية الحكام المستقلين، وسيطرت على مدينة الوركاء وجميع المدن السومرية والأكدية الأخرى خلال فترة قصيرة، وامتد نفوذها إلى بعض البلدان والأقاليم المجاورة، وبعدها وحد أور الحكم ثانية، وأنشأ أول إمبراطورية سومرية واسعة الأرجاء تُضاهي الإمبراطورية الأكدية من حيث اتساع الرقعة ونظام حكمها المركزي، عرفت باسم امبراطورية «أور الثالثة» ، والتي لم يحكمها غير السومريين.

استمر عهد سلالة أور الثالثة أكثر من مائة سنة، منذ عام ٢١١٣ حتى ٢٠٠٤ ق.م، وملوك هذه السلالة الذين لم يتعد عددهم خمسة، تميزوا بأعمالهم العمرانية الفذة والهائلة، وامتازت دولتهم بالتنظيم وحسن الإدارة في الداخل والخارج، وأصبحت العاصمة «أور» في زمنهم قبلة الشرق القديم من حيث تقدمهم العمراني والفني والاقتصادي، وقد قاموا بسن الشرائع والأعراف الاجتماعية، وقاموا بتوحيد الشؤون القضائية في البلاد.

كانت نهاية تلك الحقبة المتميزة نهاية لكيان السومريين السياسي، فلم تقم لهم أي سلالة حاكمة بعد ذلك، ولكن برغم ذلك ظل تأثيرهم الحضاري سائدا في البلاد لقرون طويلة، والجدير بالذكر أنهم قدموا الآلهة السومرية القديمة على غيرها من الآلهة، وأعادوا التداول باللغة السومرية، وبعد ذلك تمكن الدخلاء «العيلاميين» من النيل من السومريين والانقضاض على الحكم لسنوات بسيطة كان عنوانها انتشار الفوضى في البلاد.

عمود شريعة حمورابي للاستشارات القانونية

العصر البابلي القديم

شاء القدر للبلاد أن تتوحد من جديد في أوائل الألف الثاني قبل الميلاد، عندما ظهر «حمورابي» الفارس المغوار في عام ١٦٨٦ق.م.، الذي اجتمعت فيه صفات نادرة، شكلت منه قائدا وسياسيا ومصلحا ومشرعا، فاستطاع بهذه الخصال أن يوحد البلاد، وأن ينشئ أسرة

حاكمة جديدة عرفت بسلالة بابل الأولى (١٨٩٤ – ١٥٩٥ق.م.)، وهزم العيلاميين في معركة «ضروس»، بعدما أظهر خلالها براعته في حسن التدبير والحزم، ما جعله قادرا على تمزيق جموعهم، وتقدم بعدها وامتدت فتوحاته إلى شمالي بلاد الرافدين وإلى جهات الهلال الخصيب الأخرى، و«حمورابي» له شهرة كبيرة في التاريخ، فكان صاحب فكرة سن شريعة واحدة تسري أحكامها في جميع أنحاء المملكة، أُطلق عليها «قانون حمورابي» أو «شريعة حمورابي» أو «دستور حمورابي» والذي يعد من أولى الشرائع العبقرية والمتكاملة في العالم، فمن المدهش جمعها للقانون المدني وقانون العقوبات، وقانون الأحوال الشخصية. واتسمت الحياة في العهد البابلي الأول أو القديم بكثرة بناء المدن واتساعها الملحوظ، فضلا عن التطور العلمي. وانتقلت المعارف البشرية من أطوارها العملية إلى طور التدوين والبحث، واستمرت الحياة في التحضر والتقدم، حتى انتهت تلك السلالة على يد دخلاء آخرين وهم «الكاشيون».

العصر البابلي الوسيط (الفترة المظلمة الثانية)

شهدت البلاد تدهورا كبيرا بعدما غزتها تلك الأقوام التي جاءت من الشرق أو الشمال الشرقي، والذين عُرفوا بالكاشيين، ثم أسسوا سلالة حاكمة جديدة دام حكمها لمدة خمس قرون، لتبدأ بلاد الرافدين في تسطير حقبة تاريخية سوداء. أما الكاشيون فكانوا عند حكمهم قد تخلوا عن لغتهم الأصلية وديانتهم الخاصة، فلا توجد وثائق أو سجلات تاريخية بلغتهم الأصلية وإنما استعملوا اللغة البابلية، وكانوا قد اعتنقوا الديانة البابلية، ومن أشهر عواصمهم، هي العاصمة التي أسسوها في منتصف عهدهم عرفت باسم «دور - كوريكالزو» نسبة لاسم ملك الكايشين «كوريكالزو الأول» في القرن الرابع عشر قبل الميلاد قرب بغداد حاليا، والتي أُطلق عليها أيضا اسم «زقورة عقرقوفو». استمر الحكم هكذا حتى ظهرت انطلاقة «الآشوريين»، الذين شرعوا في تأسيس مملكة خاصة بهم في شمال العراق، وبدأوا في محاربة «الكاشيين»، ومنازعتهم على زعامة البلاد السياسية.

العهد الآشوري

«الآشوريون» هم الأقوام التي سميت كذلك نسبة لمعبودهم الإله «آشور»، وهناك نظريتان لتحديد أصول «الآشوريون»، الأولى - تقول إنهم فرع من الأقوام الجزرية التي هاجرت قديما من شبه جزيرة العرب – والثانية - أنهم جاءوا من جنوب العراق من أرض بابل واستقروا في شمالي بلاد الرافدين في العهد الأكدي، وما يدعم ذلك أنهم يتكلمون بلهجة من اللهجات البابلية. وفي الحقيقة لم تكن هذه البداية لتكوين سلالة «الآشوريين» على الإطلاق، بل فقط بداية نفوذهم على البلاد كلها، فللآشوريين قوة واتحاد منذ فترة ما قبل التاريخ، فلقد بدأ «الآشوريون» في هذا العهد ببناء مملكة قوية موحدة مستقلة ذات ملوك أقوياء أمثال الملك «إيلو – شوما»، الذي عاصر مؤسس سلالة بابل الأولى وكذلك «شمشي أدد الأول» في عام ١٨١٤ ق.م، والذي بلغ نفوذا وقوة جعلاه فرض سلطانه على القسم الشمالي من بلاد بابل، وكان هذا بعد عناء وكفاح شديد طوال فترة نشاط «الآشوريون» وتنمية كيانهم السياسي، فكانوا قد تعرضوا للكثير من المصاعب بسبب ضغط الدول والممالك التي كانت حولهم، وبعد فترة كفاح خرجوا أشداء أقوياء، وظهرت أنيابهم ذات القوة العسكرية الرهيبة، ثم ساد حكمهم وتمكنوا من فرض نفوذهم، وفرضوا سلطانهم على شعوب العالم لقرون، وكان من أعظم ملوكهم من حيث القوة والتوسع والفتوحات الخارجية «شلمنصر الأول» ١٢٦٦ – ١٢٤٣ق.م .

ثم بعد ذلك بسنوات تدهورت الأوضاع الآشورية في منتصف القرن الثامن قبل الميلاد، مما أثر على الشعب الذي انتابه شعور بالفقر واليأس، ثم قامت مدينة «كالح» الآشورية بثورة عارمة على الملك «أشور – نراري الخامس»، انتهت باغتياله، وتولى الحكم من بعده «تيجلاتبليزر الثالث» ٧٤٥-٧٢٧ق.م، لتبدأ حقبة تاريخية جديدة تشهد بناء تاريخ «الآشوريين» الذهبي، وتكونت آخر وأعظم إمبراطورية آشورية، وكان من أعظم إنجازاتها توحيد بلاد «آشور» «وبابل» في مملكة واحدة، وشهدت هذه الحقبة ملوكا عظاما، ولعل أهمهم وأشهرهم: الملك سرجون الثاني ٧٢٧ – ٧٠٥ ق.م، الذي قام بإنجازات فنية ومعمارية عظيمة، وشيد عاصمة جديدة باسم «دور شروكين» قرب نينوى، ومعنى هذا الاسم «مدينة سرجون».

اشتهر «سرجون» بالقوة العسكرية، وله نصيب كبير من الفتوحات الخارجية العظيمة، فكان له النفوذ الأكبر في العداء القائم بين ملوك مصر و«الآشوريين»، فهو الذي قضى على التحالف بين المصريين والدويلات الصغيرة في فلسطين وسوريا، وأيضا استطاع هذا الملك في عام ٧٢١ ق.م من القضاء على مملكة «السامرة» أو المملكة اليهودية الشمالية، وقام بترحيل الكثير من سكانها إلى أماكن أخرى داخل حدود الإمبراطورية الآشورية.

وتولى بعده «آشوربانيبال» ٦٦٨-٦٢٦ق.م، هذا الملك المثقف المغرم بالثقافة والأدب والمعرفة، وثقافته هذه كانت قد قادته لأن ينشئ دار كتب وطنية خاصة، والتي قام بتشييدها في العاصمة نينوى، ثم قام بجمع كتب من كل أنحاء البلاد، والتي تحتوي على مختلف أصناف العلوم والمعارف التي بلغتها حضارة الرافدين، وجمع الكثير من ألواح عديدة من الطين والقوانين، وكل أنواع المواد المكتوبة، وأسس المدارس، وشق الطرقات، وشيد المباني العامة، وبعد وفاته أصبحت إمبراطوريته تحت رحمة هجمات الكلدانيين «البابليين»، فالإمبراطورية التي شيدها ما لبثت أن انهارت بعد وفاته بسنوات قليلة، وذلك بعد أن نشب الخلاف بين أبنائه على تولي كرسي الخلافة لسنوات، وما لبثت بابل أن ثارت وأصبحت مرة أخرى مملكة مستقرة في عام ٦٢٥ ق.م، وفي نهاية المطاف استولى البابليون وحلفاؤهم «الميديون» على مدينة نينوى وكان ذلك في سنة ٦١٢ ق.م.

العهد البابلي الحديث

انتقل الحكم مرة أخرى لبابل بعد سنوات من الفوضى، ومن أهم ملوك العهد الجديد على الإطلاق «نبوخذ نصر الثاني» ٦٠٤-٥٦٢ق.م، والتي وُصفت الفترة التي قادها بالمجيدة، وأنها الفترة المنتعشة التي عاشتها الحضارة البابلية، فلقد بنى وطور وعمر جميع المدن المهمة، وقام بحركة أعمال عمرانية شاملة، ثم بنى «الزقورة»، وشيد حزمة معابد فخمة في بابل، وأنشأ شارعا جميلا «شارع الموكب»، له مدخلٌ ضخم، وأطلق عليه اسم «باب عشتار» ثم في نهاية الشارع بنى قصره الفخم والمشهور بجنائنه المعلقة، وهو الذي أشارت إليه المصادر اليونانية بأنه من إحدى عجائب الدنيا السبع.

(نبوخذنصر الثاني)

استمر الملك في حكم البلاد، وفي ذاتِ يوم من الأيام، أصاب الملك ازعاج شديد، فقد جاءته أنباء ملخصها أن دولة «يهودا» الصغيرة قامت بالإضراب والعصيان مع عدد من الدويلات الشامية الصغيرة الأخرى، فقام «نبوخذ نصر» بشن حملة تأديبية على «يهودا»، فسقطت عاصمتها «أورشليم» في عام ٥٩٦ ق.م، وطرد الكثير من سكانها وشردهم بما فيهم ملكهم، وولى «نبوخذ نصر» عمه «صدقيا» حاكما لها، وبعد فترة؛ وعند بلوغ عام ٥٩٤ ق.م، لم تصبر «يهودا» على الغزو، فقامت بعصيان جديد بالاتفاق مجددا مع بعض الدويلات الشامية، (يقال إن للمصريين يدا في هذا التحريض لرغبتهم في استرداد نفوذهم على الشرق الأوسط كما كان)، فغضب «نبوخذ نصر» في هذه المرة غضبا عظيما واهتز كرسيه، وأمر بتدمير المدينة بالكامل، وأحرق المدينة، ونصبت المذابح في البلاد، فرحل من سكانها عدد كبير جدا حتى تفككت دويلة «يهودا».

بعد وفاة «نبوخذ نصر»، خلفه عدد من الملوك الضعاف فتدهورت الأوضاع في البلاد خلال مدة حكمهم، وبخاصة آخرهم هذا الحاكم «نبو نيد» ٥٥٥-٥٣٩ ق.م. «نبو نيد» الذي لم تصله أخبار تلك الكارثة التي حلت في غيابه، فلم يصله خبر الغزو إلى الآن.

ابتسم «كورش»، ثم علت ضحكته بشكل هيستري، عندما تذكر «نبو نيد» الغائب، وأنه سينهي كل هذا المجد، وستسفر المعركة عن سقوط تلك الإمبراطورية العظيمة بسقوط

بابل، فكان «كورش» الكبير على ثقة بالنصر، فالمعركة مشتعلة والملك «نبو نيد» غائب، أين هو؟!، لقد اختار العبادة أكثر من الحكم، لقد اختار عبادة «سين» بدلا من إله بابل الرئيسي «مردوخ». وما الفائدة من فروسيته وحمأته عندما سيسمع بخيانة قائد جيشه وترك موقعه على الفور والعودة إلى بابل، ستكون عودته متأخرة، فالفرس في هذه اللحظة قد تمكنوا من اجتياز مدينة «أوبيس» المستعصية، والآن قد عبروا نهر دجلة ليتمكنوا من السيطرة على مدينة بابل، وبدأوا الآن في نصبِ مجزرة ضد بقية جيش بابل، والتي سمتها المخطوطات البابلية بـ«مجزرة شعب أكد»، ولكن من الواضح أنها كانت مجزرة ضد الجيش فحسب، فقوات «كورش الأخميني» دخلت بسلام إلى بابل دون مقاومة من الشعب، وهذا ما ذُكر في «أسطوانة كورش».

وقف «كورش» يشاهد ذلك النصر العظيم بعد فرحته العارمة بالقضاء على أقدم وأعرق إمبراطورية في الوجود، ضاحكا متفائلا بالنصر المبين. وبعد هذه المعركة تمكن الفرس من السيطرة على بقية المناطق التي كان يحتلها البابليون في بلاد النهرين والهلال الخصيب، ليصل تهديدهم هذه المرة إلى شمال إفريقيا، وإلى مصر بالذات.

أما مصير «نبو نيد» فقد ظل مجهولا، فبعدما عاد إلى بابل لينقذ النذر اليسير احتار المؤرخون في مصيره، فبعض المصادر قالت إنه قُتل في نهاية المعركة، ومصادر أخرى قالت إنه هرب من بابل وعاد إلى «تيماء» مثلما كان يعيش هناك قبل المعركة، أما المؤرخ الكلداني البابلي «بيروسوس» فذكر أن «نبو نيد» تم اعتقاله، ومن ثم تم نفيه إلى «كرمان» ليموت هناك في وقت لاحق.

* * *

الباب الثاني

حضارة وادي النيل المصرية

حضارة وادي النيل، هي حضارة مصر القديمة، في الشمال الشرقي لأفريقيا، والتي اتخذت من ضفاف نهر النيل مركزا لها، والتي تعتبر ثاني أقدم الحضارات بعد فترة الطوفان.

المكان: ساحة العرش الملكي – الإسكندرية: عاصمة الحضارة البطلمية ومركز الثقافة الهيلينستية في البحر المتوسط.

الزمان: فجر يوم ١٢ أغسطس من عام ٣٠ ق.م.

الحدث: قلق وتوتر عام ينتاب الملكة «كليو باترا» السابعة، ولكن برغم قلقها تقف هادئة، فالملكة جميلة الجميلات تأبى أن تظهر في مظهر لا يليق بمقامها الرفيع، تنظر من شرفة قصرها إلى ولوج النهار من الليل، تُمني نفسها بأن تأتيها أخبار تُخرجها من الظلام إلى النور، الأجواء من حولها هادئة تماما رغم قلق الجميع، فالشوارع تحشد المظاهرات هنا في الإسكندرية وهناك في بابليون وهيليوبليس وأون، وباقي ربوع المملكة، الملكة شاردة تتمنى مجيء أخبار عن حبيبها المختبئ في مشهد يتكرر كل ليلة، وتتمنى ألا تأتيها القوات الرومانية وتوقعها في الأسر أو تنتقم منها.

بدأت الملكة الجميلة تسترجع الأهوال التي عاشتها خلال الشهور الماضية، ولا سيما تلك المعركة الخاسرة التي خاضتها هي وحبيبها «أنطونيوس» ضد عدوهما «أوكتافيوس» والتي لم تذق عيناها النوم من يومها.

وقفت الملكة تفكر في حبيبها بهدوء وتسترجع كل الأجواء التي قابلته فيها لأول مرة، بداية من تلك الفوضى التي عمت في الماضي القريب إثر اغتيال «يوليوس قيصر»، والتي ترتب عليها انقسام المملكة الرومانية بين أعظم قواده وهما بلا منازع «كايوس

أوكتافيوس» وكان نصيبه المملكة الغربية، وحبيبها «ماركوس أنطونيوس» وكان من نصيبه القسم الشرقي، تذكرت كيف طمع «أوكتافيوس» الماكر في ضم مصر إلى إمبراطوريته الغربية وقسمه الخاص، وشعوره بالحقد والندية عندما علم أن الأمر ليس سهلا، فقد وصلته تقارير مفادها أن «ماركوس أنطونيوس» أراد أيضا أن ينفرد بحكم مصر، بل وبقسمي الإمبراطورية الرومانية كلها وحده.

استرجعت «كليو باترا» ذاكرتها عندما اختارت «أنطونيوس» دون «أوكتافيوس»، وكيف كان قلبها تملأه أمنيات وتمنيات بمستقبل أفضل لها، فلقد اختارت «أنطونيوس» الذي سمعت عن فروسيته، وأنه الأقرب لحكم الإمبراطورية الرومانية بشقيها، ولأن كل التوقعات في هذا الوقت كانت تؤكد فوز أنطونيوس، تذكرت حين جاء «ماركوس أنطونيوس» إلى مصر وجاءت له متخفية، ثم خرجت عليه فسُحر بجمالها عندما رآها في أبهى صورها ووقع في حبها، كانت تعلم «كليو باترا» في بداية علاقتهما أن هناك عائقان كبيران بينهما، الأول أن «أنطونيوس» كان متزوجا من «أوكتافيا» أخت «أوكتافيوس»، والثاني أنه ممنوع على الرومان التزوج بغير رومانية، فلذا قررا الارتباط دون زواج، وأصبح حليفا لها بدلا من أن يضم مصر للإمبراطورية الرومانية، وكان ذلك سببا كفيلا للعداوة بين «أوكتافيوس» و«أنطونيوس»، لأن «أوكتافيا» زوجة «أنطونيوس» كانت أخت «أوكتافيوس» كما ذكرت.

أما في روما فكان الصراع في كفةِ «أوكتافيوس»، وبينما كان «أنطونيوس» يفكر في حبه الجديد، مشغوفا بجمال عيون «كليو باترا» السابعة، كان عدوهما «أوكتافيوس» يعمل على قدم وساق، وبدأ يشوه سيرة أنطونيوس، مستخدما من تحالفه مع مصر ومع ملكتها الحجة الكبرى كذريعة لإعلان الحرب، واستمات في السعي لإزالة الدعم الحكومي عن «أنطونيوس»، من خلال حملة إعلامية موسعة مشوهة لصورة مصر، وادعى بأن مصر كانت بلادا للشعوذة والسحر الأسود، ووصل الأمر فيها لأن يُقدموا البشر قربانا، وبعد أسابيع قليلة، استجاب المجتمع الإعلامي كله، ومن ثم استجاب الشارع الروماني، فظهرت أصوات كبيرة تطالب «أوكتافيوس» بشن حرب قاسية على مصر، وبرغم أن مؤيدي

«أنطونيوس» في مجلس الشيوخ كانوا يشكلون ما يزيد عن نصف المقاعد، لكنهم أُجبروا على الرحيل من المجلس.

وأصبحت الحرب وشيكة، أما «أوكتافيوس» فكان من تدابيره أن تكون الحرب خارج نطاق إيطاليا، فأراد أن يقاتل «أنطونيوس» في منطقة يختارها بنفسه، فاتفقا على البحر الأيوني قرب حدود المقاطعة اليونانية، فدُقت طبول الحرب، لتعلن عن حرب الانقسام، وسميت بمعركة «أكتيوم»، بين جيوش «أوكتافيوس» والجيوش المتحدة الخاصة بـ«ماركوس أنطونيوس» و«كليوباترا السابعة» ملكة مصر، وبدأت هذه المعركة البحرية في ٢ سبتمبر من عام ٣٠ ق.م، قرب المستعمرة الرومانية «أكتيوم» في اليونان، وكان «ماركوس فيبسانيوس أكريبا» وزير «أوكتافيوس» هو الذي يقود القوات، ومن الناحية الأخرى كان «ماركوس أنطونيوس» يقود قواته وقوات «كليوباترا السابعة» بنفسه.

بدأت سمة سوء الحظ تصيب «ماركوس أنطونيوس»، فكان قد دخل هذه الحرب بـ ٢٣٠ سفينة حربية، ولكن بعجز شديد في الرجال، فلقد لقي الكثير من المجدفين حتفهم بسبب تفشى الملاريا بين قواته، ولهذا السبب عانى أسطول «أنطونيوس» من قطع خطوط الإمداد، ما أضطره لإحراق سفنه التي لم يعد يستطيع توفير الرجال لها بيده، فأصاب أُسطوله بعض الخلل، وحال عليه أن يجمع الشتات، فأمر بتجميع باقي السفن السليمة بالقرب من بعضها البعض. أما في الناحية الأخرى فكان أسطول «أوكتافيوس» على أتم استعداد، والقوات والعتاد في اكتمال، وكان أسطوله يحتوي على سفن أصغر وأخف وأقوى، وكانت جنوده مدربة ومستعدة بشكل كبير.

بدأت الحرب واحتدت، وظهر الفارق الكبير لصالح قوات «أوكتافيوس»، والتي تقدمت وشتت قوات أنطونيوس، وأحاطوا بهم ولم يكن لديهم مفر، فأشار «أنطونيوس» لقواته بأن تقوم بتجميع السفن حوله في تشكيل يشبه حدوة الحصان، وزحف للخلف بشكل متأخر ناحية الساحل حفاظا على الأمان، فلو حاولت سفن أوكتافيوس الاقتراب من سفنه فالبحر سوف يجرفهم إلى الشاطئ، وقررا هو و«كليوباترا» التحصن في مؤخرة

التشكيلات، وبالفعل نجحت خطته التي أعدها خصيصا للفرار وليس النصر، واستمرت قواته على هذا التشكيل، وبعد قليل لاحظ أنطونيوس ثغرة واضحة في قلب تشكيل «أوكتافيوس» فاغتنم أنطونيوس الفرصة وهرب هو و«كليوباترا» على سفينتين مختلفتين حتى لا ينتبه أحد، تاركين رجالهما وأسطوليهما ليقابلا مصيرهما، ثم اختفى وانقطعت أخباره، واستمرت «كليوباترا» في الهروب حتى لاذت بالفرار، واستطاعت العودة.

من يومها، وكليوباترا تقف هكذا، منتظرة أن يأتيها أي أخبار عن حبيبها المفقود، تتذكر كل شيء، ثم تشعر بغصة في صدرها عندما تتذكر أن قوات «أوكتافيوس» من المحتمل أن تأتي لتحتل البلاد، وتسوقها إلى الأسر، كل ما يهم الملكة الحسناء الآن: العرش أولا - ثم الحب ثانيا، متجاهلة تماما صراخ أبناء الشعب المصري الجائع والمضطرب وقتها. لو علم مؤسسو هذه الحضارة التي بدأت قبل آلاف السنين، أنها ستنتهي بهذا الشكل من الرعونة، حقا كانوا سيبكون، فهذا الشعب الثائر في الشوارع الآن، والذي فاض به الكيل، ينتمي لسلالة عريقة، انظر في وجه المتظاهرين هناك، الذين احتشدوا على ضفاف النيل، هؤلاء أحفاد الحضارة المصرية أو حضارة وادي النيل، تلك الحضارة التي أُديرت بمنتهى الدقة والتقدم منذ أواخر العصر الحجري القديم، أي عندما تحول مناخ شمال أفريقيا تدريجيا إلى الحرارة والجفاف، منذ أن بدأ الإنسان البدائي العيش في المنطقة لأول مرة، عندما ظهر نهر النيل بصورته الطيبة التي أعطت للحياة شريانا. وهذا النيل الذي هم مجتمعون حوله الآن هو أكبر شاهد على العراقة والتاريخ، ففيضان النيل منذ قديم الأزل هو من ساهم في ظهور الحياة على هذه الضفاف، حيث وهب السكان خصوبة الأراضي، ما جعلهم يملكون الفرصة للتقدم الزراعي الملحوظ، ودعمهم من أجل بناء مجتمع مركزي، ليكوّنوا عهودا مجتمعية سبقت شتى بقاع الأرض.

حضارة ما قبل الأُسرات

قبل أن يبدأ عصر ما قبل الأسرات، كانت الحياة في مصر مختلفة كثيرا عن الحياة الحالية، ولم يكن مناخها المصري قاحلا كما هو قاحل اليوم، وساهم نهر النيل والمناطق القاطنة على شطوطه في ازدهار الخير، فظهرت وتكاثرت مجموعات جميلة من الطيور المائية، أما اليابسة فقد غطتها حشائش السافانا في مناطق واسعة، واجتازتها قطعان الرعي من ذوات الحوافر، وكانت الثروة الحيوانية والنباتية أكثر غزارة من الآن في جميع المناطق، ثم استأنس الإنسان العديد من الحيوانات، وأكل ما يتاح له، وكان الصيد من المهن الشائعة بين المصريين في تلك الفترة.

بدأت معالم الحضارة والتجمعات البشرية في النهوض قبل نحو ٥٠٠٠ ق.م، ونمت وتطورت تلك القبائل الصغيرة في جنة من جنان الأرض وقتها، وطورت من أساليب الزراعة وتربية الحيوانات، ثم عرفوا الصناعة كما أشارت المقتنيات من الفخار والممتلكات الخاصة التي عُثر عليها، ونمت وازدهرت في تلك الوقت ثلاث حضارات هي الأقدم:

في مصر العليا: حضارة «البداري»، وكانت أكبرهم وأولهم.

في الشمال: حضارتا «غيرزيان» و«أمراتيان».

في الجنوب: حضارة «نقادة»، وكانت موازية لتقدم حضارة «البداري».

وجاءت على النحو التالي:

كانت أكبر تلك الحضارات هي حضارة «البداري» في مصر العليا، وتتميز «البداري» بأنها من أقدم الحضارات في التاريخ المصري، نسبة لما وجده العلماء من آثار قرية الهمامية (محافظة أسيوط)، وهذه الحضارة تعتبر أول دليل على نمو الزراعة في مصر وشمال أفريقيا في العام ٥٠٠٠ قبل الميلاد دون أدنى شك، وقد تم اكتشاف أكثر من ٤٠ موقعا و٦٠٠ مدفنا تدل على تقدم التقسيم الاجتماعي بين طبقات مجتمعهم، واشتهرت تلك الحضارة بصناعة السيراميك عالي الجودة، والأدوات الحجرية، واستخدامها للنحاس، وعرفوا

التصدير والاستيراد، واعتمد اقتصادها على الصيد والزراعة وتربية الحيوان، فتم العثور على أدوات مختلفة في المقابر، مثل الأسهم والأدوات الزراعية، والمحاصيل مثل القمح والعدس.

ثم بعد ذلك تبعت حضارة «البداري» في الشمال حضارتان، هما «أمراتيان» و«غيرزيان»، واللتان شهدتا تطورا تكنولوجيا سابقا لعصره أثناء فترة حضارة «غيرزيان» بالذات، وكان لهما علاقات تاريخية بارزة مع «ساحل جبيل» و«كنعان».

أما في الجنوب فبدأت حضارة «النقادة» في التوسع على طول النيل في غضون ٤٠٠٠ ق.م، وكان عرف الإنسان وقتها الاستيراد والتصدير بشكل موسع، فاستورد المصريون القدماء حجر السج من إثيوبيا، وتوسعت تجارتهم مع سكان النوبة في الجنوب، ومع واحات الصحراء الغربية في الغرب، وأيضا مع سكان شرق البحر المتوسط في الشرق، وتطورت حضارة «النقادة» من مجتمعات زراعية صغيرة إلى حضارة قوية، كان لقادتها السيطرة الكاملة على الناس والموارد في وادي النيل لمدة لا تقل عن ١٠٠٠ سنة، وكان لهم مراكز قوة مهمة كالتي كانت في «أبيدوس» (غرب البلينا بسوهاج) و«هيراكونپوليس» (بين مدينتي إسنا وإدفو بأسوان)، وازدهرت صناعاتهم بإنتاج السلع الثمينة، وتميزوا في طلاء الفخار والمزهريات الحجرية المزخرفة بشكل راق، والمجوهرات المصنوعة من الذهب والألبيد والعاج، واللوحات الفنية ذات الذوق البديع، وأدخلوا تطويرا ملحوظا على صناعة السيراميك التي عرفتها حضارة «البداري» من قبلهم، فصنعوا السيراميك الصقيل أو ما يسمى «القيشاني»، فعرفه العالم كله من خلالهم، وأشهرهم العصر الروماني، الذي أنتجه لتزيين الكؤوس والتمائم والتماثيل، وفي أواخر تلك العهد بدأت شعوبهم في استخدام رموز كتابية كان لها الدور الأكبر في التفكير في نظام لإنشاء لغة موحدة، حتى انتهى الأمر مستقبلا في إنشاء نظام كامل للغة الهيروغليفية لكتابة اللغة المصرية القديمة.

بداية عصر الأسر

إن التصنيف الذي ما يزال يستعمل اليوم، والذي صنف تاريخ أسر الفراعنة بداية من «مينا» إلى ٣٠ أسرة حاكمة، لم يكن تصنيفا حديثا، فكان قد قام به كاهن مصري في القرن الثالث قبل الميلاد، واختار أن يبدأ تصنيفه الرسمي بالملك «مينا»، الذي ورد لنا عنه أنه استطاع توحيد مملكتي مصر العليا والسفلى معا في عام ٣٢٠٠ ق.م، وتبقى حياة مينا لغزا للكثير من الباحثين، فلم توجد سجلات معاصرة تذكره على الإطلاق، فتوقع بعض الباحثين أن «مينا» الأسطوري هو نفسه الفرعون «نارمر»، واستشهدوا بتلك الصورة التي ظهر فيها مرتديا الزي الملكي على لوحة «نارمر» الاحتفالية في خطوة رمزية للتوحيد.

بسط أول حاكم لمصر الموحدة قوته وسيطرته على كل ربوع مصر في عصر الأسر المبكرة نحو ٣١٥٠ ق.م، وقام بإنشاء عاصمة في «ممفيس»، التي كان الغرض منها السيطرة على القوة العاملة والزراعة في منطقة الدلتا الخصبة، وعرفت مصر نظام الدولة بإضفاء عامل الشرعية في سيطرة الحكم على الأرض والعمل والموارد التي لا غنى عنها، لبقاء ونمو الحضارة المصرية القديمة، وسيطر الملك على حركة التجارة المتجهة إلى الشام، وبدأت تظهر حضارة وادي النيل بشكل أكثر حداثة، وظهرت معالم القوة والنفوذ والنقش على مقابرهم وهياكلها، وبدأت تُستخدم تلك الطقوس كمراسم للاحتفال بالملك بعد وفاته، ثم بعد ذلك اتسعت البلاد وزادت رقعتها بعد ما زاد الخير، ومع مرور الوقت انهارت الحكومة المركزية في مصر في نهاية هذا العصر الملكي القديم، ليشهد فترة انتقالية حساسة.

الفترة الانتقالية الأولى (عصر الاضمحلال الأول)

بعد انهيار المملكة القديمة، عجزت الإدارة عن السيطرة على الأوضاع، واهتز الاستقرار في البلاد، وتأثر الاقتصاد، ومن كثرة الأزمات عجز حكام الأقاليم عن إخبار الملك بشكل سريع، وفقدوا مساعدته وقت الأزمات، فتدهور الاقتصاد أكثر، ونقص الغذاء، وانتشرت في البلاد النزاعات والخلافات السياسية، فتسبب ذلك في ظهور المجاعات والحروب الأهلية صغيرة الحجم، وعلى الرغم من تلك المشاكل الصعبة، أقدم حكام الأقاليم على خطوة خطيرة، وهي الاستقلال عن المملكة، وقاموا بتأسيس حضارات مستقلة خاصة بهم، وسيطر كل

واحد منهم على موارد المقاطعة الخاصة به، لدرجة أن الأقاليم والمقاطعات أصبحت أكثر ثراء من الناحية الاقتصادية عن المملكة الحاكمة. بدأ ظهور التمرد الثقافي، واستخدم الحرفيون المحليون زخارفا كانت ممنوعة ومحظورة سابقا في عصر الدولة القديمة.

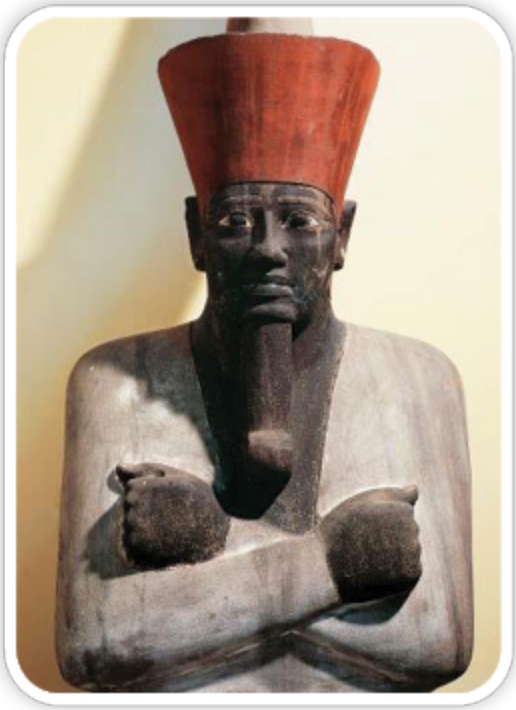

تمثال الملك منتوحوتب الثاني

اندثر مبدأ الولاء للملك، وتنافس حكام الأقاليم على السلطة وحدود الأقاليم السياسية، وزاد الأمر سوءا، واشتد الصراع في ما بينهم حتى سيطر الحكام في «هيراكليوبولس» على مصر السفلى، وسيطرت أسرة «إنتيف» إحدى العشائر المنافسة في طيبة على مصر العليا، وتقدمت «إنتيف» إلى الشمال لتفرض نفوذها وسيطرتها على القطر كله، وأصبح الصدام بين العشيرتين أمرا حتميا، ولكن تدخلت قوات «طيبة» في الوقت المناسب بقيادة «منتوحوتپ الثاني» وهزمت حاكم «هيراكليوبولس» الذي لم يخضع للصلح، وأعلنوا توحيد البلاد من جديد، ليبدأ تاريخيا عصر نهضة ثقافية واقتصادية جديدة عرفت باسم الدولة المصرية الوسطى عام ٢١٦٠ ق.م.

ميلاد الدولة الوسطى

اتسمت هذه الفترة بالرخاء والاستقرار، وظهرت المشروعات الضخمة، وعرفوا الفن والأدب، كان ذلك على يد حاكم الدولة الجديد ومؤسس الأسرة الحادية عشرة «منتوحوتب الثاني» وخلفائه، والذين جعلوا من طيبة عاصمة للبلاد. ثم جاءت الأسرة الثانية عشرة في عام ١٩٨٥ ق.م، فتغيرت العاصمة وأصبحت «لتجتاوي» (تقع في الفيوم الآن)، وكان لملوك الأسرة الثانية عشرة فكرا حديثا، فطوروا من نظام الري، ثم عرفوا استصلاح الأراضي فزاد على يديهم المدخول الزراعي للبلاد، كما انقضوا على الجنوب واستعادوا الحكم في منطقة النوبة الغنية بالمحاجر والألماس والذهب، وصنعوا «جدران الحاكم» لصد الهجمات الخارجية، وهو عبارة عن بناء هيكل دفاعي في شرق الدلتا. ثم تميز هذا العصر بالأمن السياسي والعسكري والزراعي، فارتقت الفنون، وتميز الأدب بالمؤلفات المتطورة، وظهرت موضوعات شخصية مكتوبة في أسلوب بليغ وجريء، مطعمة بالنحت النافر والذي ظهر بشكل تصويري لفترة الاعتقالات الخفية. أما الدين فكان قد علا شأنه، وظهر ما أسماه الباحثون في ما بعد باسم «ديموقراطية الحياة الآخرة»، والتي تعطي لكل فرد روحا من الممكن أن تحيا بجوار الآلهة بعد الموت. وفي نهاية تلك الحقبة أو هذه الدولة الوسطى تولى «أمنمحات الثالث»، والذي بادر بفعل خطوة كانت هي الأخطر، حيث كان قد سمح للمستوطنين الآسيويين بالعيش في منطقة الدلتا، وكان هدفه نبيلا، فكان الغرض هو توفير قوة عاملة كافية، خصوصا بعد ازدهار التعدين النشط وبناء المدن. وبعد فترة لم تستقر مياه النيل ولم تكن فيضاناته كافية، ما أثر في الاقتصاد، وبدأت بوادر الاضمحلال إلى الفترة الانتقالية الثانية خلال عصر الأسرتين الثالثة عشر والرابعة عشر، ثم استغلت الطائفة الأجنبية الآسيوية التي استقدمها «أمنمحات» الموقف، وبدأوا في توحيد أنفسهم وسيطروا على منطقة الدلتا، ومنها إلى كل مصر لاحقا، في بداية عصر مظلم سُمي بعهد «الهكسوس»، في حوالي عام ١٦٥٠ ق.م.

الهكسوس - الفترة الانتقالية الثانية (عصر الاضمحلال الثاني)

انهارت الدولة الوسطى، وبالفعل سيطر المستوطنون الآسيويون الذين يعيشون في منطقة شرق الدلتا، وخصوصا بلدة «زوان»، على المنطقة، واستطاعوا إجبار الحكومة المركزية على التراجع إلى «طيبة»، وقام الهكسوس أو «الملوك الرعاة» الذين انقضوا على الحكومة المصرية، ونصبوا أنفسهم ملوكا بنفس طقوس المصريين. أما الحكومة المركزية المصرية المهزومة والمتراجعة ناحية «طيبة»، وجدت نفسها في مأزق كبير، فالآن أصبحوا محاصرين بين الهكسوس من الشمال، ومملكة كوش النوبية من الجنوب وهم كانوا حلفاء للهكسوس.

استمر الوضع كما هو عليه لمدة ١٠٠ عام، وكان حكم الهكسوس يتصف بالجهل والخمول الثقافي، ولم تشهد البلاد على أيديهم سوى الاضطرابات والصراعات، ثم ظهرت شوكة قوات «طيبة» من جديد، وشدوا من أزر بعضهم البعض، وجمعوا ما يكفي من القوة لتحدي الهكسوس، ونشب الصراع بينهم الذي استمر ٣٠ عاما، وكان هذا قبل حلول عام ١٥٥٥ ق.م، ولم تشهد البلاد في تلك السنوات غير الفوضى والفتن والشرور، ثم بدأت بشائر النصر عندما تمكن «سقنن رع الثاني» وابنه الأكبر «كامس» من هزيمة النوبيين في الكوش، وعلم المصريون منذ ذلك الوقت، أنه لا يوجد شيء أكثر أهمية من الهيمنة العسكرية، وتطوير القتال بين الجيش المصري، ما استدعاهم بعد ذلك إلى توسيع حدود مصر، وتأمين هيمنتها بشكل كامل على الشرق الأدنى، لكن سرعان ما فقد «سقنن رع الثاني» حياته في إحدى المعارك معهم، ثم بعد ذلك ظهر الفارس الجديد «أحمس الأول» مؤسس الأسرة الثامنة عشرة، ابن الملك «سقنن رع» وشقيق «كامس» الأصغر من الأسرة السابعة عشر، وتعتبر الأسرات الخامسة عشر والسادسة عشر فترات انتقالية عاصرت وجود الهكسوس، واقترح العديد من المؤرخين أن للأسرة السادسة عشر فضلا خفيا في تطوير الفكر الحربي وإعادة تكوين الجيش حتى استثمر ذلك الفكر والتطوير حكام الأسرة السابعة عشر، الذين هزموا الكوشيين ثم الهكسوس، حتى جاء أحمس الأول وقضى عليهم نهائيا في بداية الأسرة الثامنة عشر.

ميلاد الدولة الحديثة

يعود الفضل في الحرب على «الهكسوس» والقضاء عليهم نهائيا في مصر لخليفة «كامس» الملك «أحمس الأول»، مؤسس عصر الدولة الحديثة التي تلت ذلك. وشهدت المملكة الجديدة فترة ازدهار غير مسبوقة بتأمين حدودها وتعزيز العلاقات الدبلوماسية مع جيرانها، كما زادت قوتهم واتسموا بشن الحملات العسكرية تحت قيادة «تحتمس الأول» وحفيده «تحتمس الثالث»، والتي بالفعل مدت نفوذ المصريين في سوريا وبلاد النوبة وكوش، وكان غرضها تقديم الولاء للملك، ومن ثم الهيمنة على الواردات الحساسة مثل البرونز والخشب وغيره.

كما أسس ملوك الدولة الحديثة فكرا دينيا عميق، كان هدفه تعزيز عبادة الإله «أمون»، وجعلوا من معبد الكرنك مقرا للعبادة، وبدأوا في تمجيد الإنجازات الخاصة بهم على الجدران والصروح، وعندما نُصبت الملكة «حتشبسوت» على العرش بعدهم، استخدمت تلك الدعاية الدينية والخلفية العسكرية الناجحة، ليُثقل من كرسيها على العرش، والتي كانت قد حكمت بعد وفاة زوجها الملك «تحتمس الثاني» بكونها واصية على الملك الصغير «تحتمس الثالث» في البداية، ثم بكونها ملكة وابنة الإله «آمون» بعد أن نشرت قصة نقشتها في معبدها بالدير البحري، والتي تقول فيها إنها كانت نتيجة لقاء حميم بين آمون وأمها الملكة «أحمس» (إياح مس)، وشهد عصرها الإنجازات التجارية والدينية والمعمارية، ولكن بالرغم من إنجازاتها، سعى «تحتمس الثالث» لمحو إرثها قبل نهاية حكمه بشكل انتقامي بسبب اغتصابها عرشه. وعندما جاء عام ١٣٥٠ ق.م، وصل «أمنحوتب الرابع» للحكم، وقام بتغيير اسمه إلى «إخناتون» ومعناه (عبد أتون)، وهاجم سلطة وقوة المؤسسة الكهنوتية وحارب الكهنة، وقام بالترويج لصالح إله الشمس «أتون» على أنه الإله الأعلى، وعلى أنه واحدٌ لا شريك له، ثم وحد عبادة جميع الآلهة في عبادة «أتون»، ونهى عن عبادة آلهة أخرى غير «أتون»، ونقل العاصمة إلى مدينة «أخيتاتون» الجديدة (تل العمارنة بمحافظة المنيا حاليا)، ولم ينتبه للشؤون الخارجية وانشغل في نشر الدين. وبعد وفاته اختفت عبادة أتون، ثم قام من خلفوه وأشهرهم «توت عنخ أمون» و«خبر خبرو رع آي» و«حورمحب» بمسح جميع التفاصيل العائدة لما أسموه «بدعة إخناتون» في تلك

الفترة التي عرفت باسم «حقبة العمارنة»، وعادت البلاد لدياناتها الأولى. ثم جاء عام ١٢٧٩ ق.م، حيث شهد تولي «رمسيس العظيم» كما أسموه، وهو «رمسيس الثاني»، وهو أكثر ملكا أنجب أطفالا في التاريخ المصري. كان فارسا شجاعا وقاد بجراءة القوات في معركة «قادش» ضد «الحيثيين» في عام ١٢٥٨ ق.م، والتي انتصر فيها بعد صراعات دامت ١٥ عاما، والتي شهدت أقدم معاهدة سلام عرفها التاريخ، وعرف عصر «رمسيس الثاني» التطور والنهضة، وفيه تم بناء المزيد من المعابد، وإقامة العديد من النقوشات والتماثيل والمسلات.

شهدت مصر نهضة جبارة، وثروة عملاقة، وخيرات شتى، وشهدت تقدما اقتصاديا واجتماعيا غير مسبوق، وكانت كل هذه الأسباب كفيلة بأن تكون مغرية للغزو من كافة القوات الأجنبية، لا سيما على رأسهم الليبيين وشعوب البحر، الذين ترصدوا للانقضاض على البلاد، وبالفعل هاجموا البلاد على مرات متتابعة، ولكن استطاع الجيش صد هذه الهجمات وردعها. ثم بعد ذلك زادت مصر في انطلاق حملاتها الخارجية بغير ترتيب، ففقدت مصر السيطرة على أراضي سوريا وفلسطين، ثم تأثرت بفعل المترصدين، وزاد تأثير التهديدات الخارجية مع تفاقم المشاكل الداخلية مثل الفساد وسرقة المقابر والاضطرابات التي عمت البلاد، وعلى رأس الفاسدين كان كبار الكهنة في معبد أمون في طيبة، حيث كانوا يقومون بسرقة مساحات شاسعة من الأرض والثروة، ما أدى كل هذا إلى انشقاق البلاد وضعفها خلال الفترة الوسطى الثالثة.

الفترة الانتقالية الثالثة (عصر الاضمحلال الثالث)

تولى الملك «سمندس» مؤسس الأسرة الحادية والعشرين الحكم بعد وفاة «رمسيس الحادي عشر» في ١٠٧٨ ق.م، وفرض سلطته بالقوة على الجزء الشمالي من مصر، ثم جعل مدينة «تانيس» هي المقر السياسي للحكم، ولكن لم يكن الجنوب مخلصا لولائه، فما زال كهنة آمون في طيبة هم المسيطرون، ولضمان مصالحهم قاموا بالاعتراف بحكم «سمندس» ولكن اسميًّا فقط.

كانت هناك قوة كامنة تنتظر أي إخفاق لتنقض وكأنها ضباع متوحشة، إنها القبائل الليبية التي اندمجت واختفت ضمن قبائل منطقة غرب الدلتا، وبدأ شيوخ تلك القبائل في زيادة سلطتهم تدريجيا في السر، وما لبثوا حتى ظهر نفوذهم الأول، وأعلنوا سيطرتهم على الدلتا تحت إمارة «شيشنق الأول» عام في ٩٤٥ ق.م، ومنها إلى الجنوب، وقام «شيشنق» بوضع أفراد من أسرته في مراكز كهنوتية مهمة، وأسس ما يسمى أسرة «بوباستيس» وحكموا البلاد لمدة ٢٠٠ عام، بعدهم بدأت سيطرة الليبيين في الانحدار والاندثار، فظهرت قوات متعددة منافسة لهم في منطقة الدلتا، أما في الجنوب فبدأت أسرة مملكة «الكوش» النوبية تهاجمهم، ثم غزا «الكوشيون» مصر في عام ٧٢٧ ق.م، على يد الملك الكوشي «بعنخي»، فاستبدل الغزو بغزو، وانهارت هيبة مصر، وقل حلفاؤها الأجانب، ثم طغى على الشرق نفوذ الإمبراطورية الآشورية، والتي استهدفت غزو مصر هي الأخرى، وبدء «الآشوريون» هجومهم وغزوهم على مصر في محاولات استمرت لمدة ٤ سنوات ما بين ٦٧١ و٦٦٧ ق.م، وحاربهم «الكوشيون» على يد «طهارقة» والذي

ملوك الاسرة الكوشية النوبية التي حكمت مصر

فيما بعد بعنخي

حرر أورشليم لسنوات، ثم حاربهم خليفته «تنتاماني» فانهزم النوبيون الذين تمتعوا بالعديد من الانتصارات، ودفع «الآشوريون» «الكوشيين» للخلف وأجبروهم على العودة

إلى النوبة وبلادهم الأصلية، واحتلوا «ممفيس»، لتبدأ حقبة مظلمة جديدة للبلاد.

العصر المظلم

شهدت مصر الغزو الآشوري لمدة ١٤ عاما، لم تعرف فيهم البلاد سوى الظلم والذل والانحدار، وبحلول ٦٥٣ ق.م تمكن «إبسماتيك الأول» من طرد «الآشوريين» بفضل المرتزقة اليونانيين الذين تم تجنيدهم لتشكيل أول بحرية مصرية، وهو كان أول فراعنة «سايس الست»، من الأسرة السادسة والعشرين، وكان من أحفاد «با كن رع نف». وبعد الغزوات الآشورية في عهد «طهارقة» و«تنتاماني» اعتُرف به كملك أوحد على كل مصر.

وطغى على البلاد التأثير اليوناني بشكل كبير، وأصبحت مدينة «نيكراتيس» (كانت توجد بدلتا النيل) وطن اليونانيين في منطقة الدلتا، وكانت مقرا جديدا وعاصمة لـ «سايس»، وكان أبسامتيك قد عقد تحالفات مع «غيغس» ملك ليديا (كانت في آسيا الصغرى)، وجنود مرتزقة من اليونان وكاريا (كانت دولة بآسيا الصغرى) ضد الآشوريين، وبعد تدمير عاصمتهم نينوى في ٦١٢ ق.م وسقوط الدولة الآشورية، حاول «إبسماتيك» وخلفاؤه إعادة بسط نفود مصر في الشرق الأدنى مجددا، ولكن ردعتهم أيادي الإمبراطورية البابلية الجديدة بقيادة «نبوخذ نصر الثاني»، وبمساعدة المرتزقة اليونانيين استطاع «أبسماتيك» صد محاولات البابليين لغزو مصر، ولكن لم يستطع صد محاولات الفرس، ففي عام ٥٢٥ ق.م، بدأ الفرس بقيادة «قمبيز الثاني» غزوهم لمصر، ثم انهزمت الجيوش المصرية وتم أسر الملك «أبسماتيك الثالث» في معركة «الفرما»، ثم تولى «قمبيز الثاني» حكم مصر رسميا برغم أنه لم يعش فيها، فلقد حكمها من مسقط رأسه «شوشان»، وترك مصر تحت حكم أحد «الساتراب» (هو اللقب الرسمي لحاكم المقاطعة في الدولة الميدية ثم الفارسية القديمة)، وعندما جاء القرن الخامس قبل الميلاد انتشرت الثورات المصرية ضدهم، وبالفعل نجح بعضها، إلا أنها لم تكن بالقوة القادرة على الإطاحة بالفرس، وكانت مصر مع قبرص والفينيقيون تابعة لـ«الساتراب السادس» من الإمبراطورية الفارسية، وفي عام ٤٠٢ ق.م انتهت الفترة الأولى من الحكم الفارسي على مصر، والمعروفة أيضا بالأسرة السابعة

والعشرين، ثم في الفترة ما بين ٣٨٠-٣٤٣ ق.م، حكمت الأسرة الثلاثون كآخر الأسر الملكية في مصر، ثم حدثت بعد ذلك محاولة ضعيفة لاستعادة الحكم الفارسي، تعرف أحيانا باسم الأسرة الحادية والثلاثين، والتي بدأت في ٣٤٣ ق.م، وانتهت بعدها في ٣٣٢ ق.م بتسليم الحاكم الفارسي «مازاسيس» مصر إلى الإسكندر الأكبر من دون قتال.

حكم أسرة البطالمة

بدأت هذه الأسرة بغزو الإسكندر الأكبر مصر في ٣٣٢ ق.م، والتي احتلها دون مقاومة تذكر من الفرس، وكان قد اندمج بين المصريين ورحبوا به باعتباره «المنجّي» من الحكم الفارسي البشع، وأعلن الإسكندر أنه جاء مصر حليفا وصديقا ولم يكن غازيا، واستند هو وخلفاؤه على النموذج المصري في الحكم. وبنى عاصمتها الجديدة «الإسكندرية»، وأصبحت مقرا للتعليم والثقافة، وتركزت المعرفة في مكتبة الإسكندرية الشهيرة، وكان الغرض الأساسي لها هو عرض قوة وسيادة وثقافة الحكم اليوناني، وازدهرت التجارة في عصر البطالمة، وأضاءت منارة الإسكندرية الطريق لكثير من السفن التجارية البعيدة، واعتبر المصريون البطالمة جزءا منهم وأيدوهم، لأنهم اندمجوا وتزاوجوا في مصر، وعاشوا بالطريقة المصرية، وعبدوا آلهتها، وعلى رأسهم «آمون»، حتى الإسكندر نفسه كان قد نصبه المصريون ابنا للإله آمون. ولم تحل الثقافة اليونانية محل الثقافة الوطنية المصرية، حيث أيد البطالمة التقاليد الاجتماعية المصرية أيضا، وقاموا ببناء معابد جديدة بنفس الطراز المصري لدعم المعتقدات الدينية التقليدية، وصوروا أنفسهم فراعنة، واندمجت بعض التقاليد المصرية واليونانية معا، حتى الآلهة المصرية اندمجت مع اليونانية في إطار ديني واحد، وتأثرت الزخرفة اليونانية بالزخارف المصرية التقليدية.

في عهدهم استقرت الحياة في مصر بنسبة كبيرة، وكانت مصر وقتها تُصدر الحبوب إلى روما، تلك القوة الصاعدة الجديدة، وأولى الرومان اهتماما كبيرا للحالة السياسية بمصر الخيرة، وعندما بدأت الفترة البطلمية بالهبوط (يعتبر العصر الذهبي للبطالمة منتهيا في وجهة نظري بعد انتهاء عهد بطليموس الرابع، ثم ما بعد ذلك انحدار) اشتدت الثورات

المصرية بسبب سوء الأحوال، ثم ظهر الطموح السياسي لدى البعض، وخرجت أنياب المعارضين السوريين الأقوياء، ما أدى كل ذلك إلى عدم استقرار الأوضاع الداخلية، وأجبر روما على إرسال قوات لتأمين البلاد باعتبارها حليفا للإمبراطورية الرومانية، وتبعت مصر الإمبراطورية الرومانية ولكن اسميا فقط، حتى مات «يوليوس قيصر»، وانقسمت الإمبراطورية بين «أوكتافيوس» و«أنطونيوس».

هذه قصة تلك الحضارة الطويلة، والتي انتهت بقصة وقوف «كليوباترا» هذه التي تنم عن القلق والتوتر، ولا تعلم «كليوباترا» أنها تنظر من شرفة قصرها على المستحيل الذي لن يأتي. استفاقت تلك الملكة من شرودها وتفكيرها في الماضي على صوت الحارس بأن رسولها على الباب، فدخل الرسول حضرتها على استحياء، فهو مستاء جدا لأن بحوزته خبرٌ مؤسف، خبر انتحار «أنطونيوس»، نعم لقد انتحر، فلقد دس له أعداؤه رسالة كاذبة مفادها إلقاء القبض على «كليوباترا»، فأقدم على الانتحار.

انهارت «كليوباترا» انهيارا شديدا عندما سمعت هذا الخبر، ثم وقفت بهدوء تام لتقرر الانتحار هي الأخرى، وطلبت من حارسها إحضار السم، فانتحرت بعد هذا الانتظار الممل، ليكون هذا اليوم ١٢ أغسطس عام ٣٠ قبل الميلاد هو نهاية آخر حاكم بطلمي، عن عمر ناهز ٣٩ عاما، لينتهي على يدها حكم البطالمة للأبد وحكم الأسر القديمة بصفة عامة.

وقصة موتها بلدغة الحية قد شكك فيها الكثير من المؤرخين، ورجح الكثيرون في أنها ماتت لشربها توليفة أو «كوكتيل» من العقاقير، واستند بأن لدغة الأفعى كانت ستعرض «كيلوباترا» لألم شديد ومبرح وطويل قبل الوفاة، بجانب التشويه الجسدي الذي كان سيلحق بها، على عكس مبدأ «كليوباترا» تلك المرأة الجميلة والمعتزة بمفاتنها. على كل حال انتحرت «كليوباترا»، واحتل الرومان مصر، وقتلوا ابنها من يوليوس قيصر «قيصرون» خوفا من أن يكبر ويطالب بالإمبراطورية الرومانية كوريث لأباه وولي عهده.

- ملحوظة مهمة: يعتقد الكثير من الباحثين أن الحضارة المصرية القديمة قد انتهت بالفعل عند غزو مصر من قِبل الإسكندر الأكبر، والغالبية أجمعت أن أسرة البطالمة من وُلد منهم

وعاش في مصر عبر السنوات يُعتبر مصريا، لكنه فقط مختلف في الأصول، حيث إنهم حكموا كمصريين وعبدوا الآلهة المصرية، وترابطوا واندمجوا داخل السمات والعادات المصرية، حتى إنهم تكلموا بالمصرية تماما كما ذكرنا.

الباب الثالث

الحضارة الهندية

هي تلك الحضارة التي وقعت في بلاد شبه القارة الهندية، والتي بدأت منذ انتهاء حضارة وادي السند وصولا إلى اندماج الثقافة الهندوآرية التي شكلت الحضارة الفيدية، وانتشار الهندوسية والجاينية والبوذية، وتعاقب الدول والإمبراطوريات القوية على مدى أكثر من ثلاثة ألفيات في تلك الأراضي، والتي تعتبر أقدم ثالث حضارة تاريخية في فترة ما بعد الطوفان.

المكان: مدينة سومنات – على الساحل الغربي لـ «كوجارات» بالهند.

الزمان: ٨ يناير ١٠٢٦م.

الحدث: طقوس دينية معتادة ومكررة أمام الصنم الوثني الشهير «شيفا» بمعبد «سومنات»، والقائم على ست وخمسين سارية من الصاج المصفح بالرصاص، أما معبد «سومنات» نفسه فهو يقف شامخا مبنيا من حجر طوله خمسة أذرع، وليس له هيئة أو شكل بل هو ثلاث دوائر وذراعان، وصلت الطقوس حدتها مع مطلع الشمس، بسبب الشعور بالخطر، والاحتياج التام لمناجاة الإله، فلهذا الصنم وصلت عشرة آلاف قرية لتتبارك، تحت إمرة ألف كاهن، واقفين يؤدون طقوس العبادة، وثلاثمائة حلاق يحلقون رءوس ولحى الزائرين، وما يقارب من ثلاثمائة رجل وخمسمائة امرأة يغنون ويرقصون على باب الصنم لكي يشفع لهم، يتقربون للإله «شيفا» أحد أهم الآلهة في الهندوسية، فغالبا ما يُسمى «المسيطر»، وهو أحد الآلهة في «التريمورتي» إلى جانب «براهما» الخالق و«فيشنو» الحافظ، وفي الطائفة «الشيفية» هذه هو الإله الأعلى.

كان كل الموجودين يعلمون أن هناك حملات عسكرية جبارة يشنها المسلمون بقيادة السلطان المسلم «محمود بن سبكتكين الغزنوي»، لكنهم لا يهابون، فهم في حضرة الإله

الأعظم الذي سيحميهم. كان قد هزمهم في خمس عشرة حملة ناجحة واجتاح غالبية ربوع الهند لمدة ٢٥ عاما، وأيضا هم ينتظرون مدد الإله «شيفا» لكي يحميهم إلى الآن. كان المسلمون مستمرين في فتوحاتهم وانتصارتهم واحدة تلو الأخرى وهؤلاء مستمرون في العبادة، منتظرين المدد، فطيلة هذه السنين هم يتوسلون لـ«شيفا» كي ينصرهم. كان السلطان «محمود» قد فتح إقليم «كشمير»، وحوله لبلد مسلم، وبسبب ذلك دخل العديد من أمراء الهند في الإسلام.. و«شيفا» لم يتحرك، لم يتحرك إلى الآن. عبر السلطان «محمود» بجيوشه نهر «الجانج» وهدم نحو عشرة آلاف معبد هندوسى، ثم هاجم أكبر مراكز «البراهمة» في «موجهاوان» وواصل تقدمه وهو يحطم أي قوة هندية تبرز له، ويحول المعابد الهندوسية إلى مساجد، ومستمرا في تحطيم أصنام الآلهة الوثنية، و«شيفا» الإله الأعظم لم يحمهم.

كان يعلم أتباع «شيفا» أنه قد تأخر في إرسال النصر، كانوا يعلمون أنه طيلة ٢٥ سنة لم يقدم لهم شيئا لكي ينصر دينه، ولكن كان لهم مبرراتهم المقنعة، فلقد قالوا إن تلك البلاد والمعابد والأصنام التي اجتاحها المسلمون قد سخط عليها الإله، ولو أنه راض عنها لأهلك من قصدها بسوء. واستمروا في عبادة «شيفا سومانت» أعظم أصنام وآلهة الهنود، فهم يعتقدون فيه أن الأرواح إذا فارقت الأجساد اجتمعت إليه على عقيدة التناسخ، فيعيدها فيمن شاء، وأن المد والجزر الذي عندهم إنما هو عبادة البحر له.

مرت ساعات على هؤلاء الواقفين في المعبد، رغم وصولهم أنباء بأن السلطان «محمود» قد بلغ بجيوشه مدينة «دبولواره» على بعد مرحلتين من «سومنات»، وقد ثبت أهلها لقتال المسلمين ظنا منهم أن إلههم «سومنات» يمنعهم ويدفع عنهم، فاستولى عليها المسلمون، وحطموها تماما، وقتلوا جيشها بأكمله، بعدما اخترقوا الصحارى، واصطدموا بالعديد من الجيوش الهندية وهم في طريقهم إلى «سومنات». وللعلم، السلطان محمود كان قد أعلم الجميع بوجهته وهدفه، ليرى الهنود إن كان «سومنات» سيدافع عن نفسه أم لا يستطيع.

وقفوا خاشعين في عبادة «شيفا» أكثر وزادت الطبول في قرعها، وزاد الراقصون في رقصهم بشكل هيستري، فلقد وصلتهم أنباء جديدة بأن جيوش المسلمين قد وصلت مدينة «سومنات» بالفعل في الليلة الماضية، فرأوا حصنا حصينا على ساحل النهر، وأهله على الأسوار يشاهدون المسلمين واثقين أن معبودهم سيقطع دابرهم ويهلكهم ولن يستطيعوا التغلب على الحصن، ولكن اجتاح المسلمون الأسوار و«شيفا» لم يتدخل أبدا.

وقف المسلمون على أعتاب «سومنات» في هذه اللحظة، وكان هذا اليوم يوافق هجريا يوم الجمعة ١٦ ذي القعدة، منتظرين وقت الزوال كما هي عادة فتوحاتهم، ينظرون إلى هذه الرقعة الشاسعة الذي يمتد تاريخها لفترة ظهور المستوطنات والتجمعات البشرية على أراضي شبه القارة الهندية في عصور ما قبل التاريخ، فهي نتاج للزحف الحضاري من حضارة وادي السند. فكانت حضارة وادي السند أول حضارة إنسانية قامت في جنوب آسيا، حيث ازدهرت وتوسعت في الشمال الغربي من شبه القارة الهندية، خلال الفترة المتراوحة من نحو عام ٣٣٠٠ حتى ١٣٠٠ ق.م، وبعد ذلك ظهرت سلالة جديدة.

سلالة الحضارة الفيدية

هي تلك الفترة التي احتضنت نشأة الهندوسية والعديد من الجوانب الثقافية الأخرى، التي عملت على تشكيل المجتمع الهندي المحتفظ بحالته على مر التاريخ، وكانت قد امتدت تلك الحقبة الفيدية خلال الفترة من ١٥٠٠ إلى ٥٠٠ قبل الميلاد، وقد نشأت تلك الحضارة الفيدية بواسطة «الآريون» في مناطق شمال الهند، وما يسمى بالسهل الشمالي أو سهل شمال نهر الهند، وتميزت هذه الحقبة بامتداد الثقافة «الهندو آرية»، وقد ارتبطت بصفة رئيسية بنصوص «الفيدا المقدسة» لدى الهندوس، والتي تم صياغتها شفهيا باللغة «السنكريتية». و«الفيدا» تعتبر من أقدم النصوص الدينية المعروفة والموجودة في الوقت الحالي،

الراميانا بالفارسية - القرن السادس عشر الميلادي

وتحل المركز الثالث تالية لنصوص الحضارات المصرية وبلاد ما بين النهرين، وممتدة حتى العصر الحالي، ولقد ظهرت في تلك الفترة المعالم الأولى لأهم ملحمتين في تاريخ الهند، وهما «الرامايانا» و«المهابهاراتا»، والمكتوبتان بالسنكريتية.

كانت تلك الشعوب الأولى قد تألفت من تجمعات رعوية، وكانت مقسمة بشكل اجتماعي في أربعة طبقات، فكان فيهم طبقة للمعلمين والتي سميت «البراهمة»، وطبقة الجنود والمقاتلين والمحاربين والتي كانت تسمى «الكشتارية»، وطبقة المزارعين والحرفيين والتجار كان يطلق عليها «الفيشيا» أما «الشودرا» فكانت هي المسمى القائم لطبقة العمال. ونسبة لما ذكره علماء الآثار: قبل ظهور الفيدا مباشرة كانت هناك حقب أقدم، وهي ما أطلق عليه حضارة أو ثقافة «الفخار الملون»، وهى التي امتدت خلال أواخر العصر البرونزي في شمالي الهند نحو عام ٢٠٠٠ قبل الميلاد، ومعنى ذلك أنها كانت همزة الوصل بين نهاية حضارة «وادي السند»، ومن ثَم أعقبها العصر الحديدي الذي احتضن ثقافة «الآنية الحمراء والسوداء» و«الآنية الرمادية» ثم وصولا إلى الحقبة الفيدية، ونسبة لما ذكرته الاكتشافات أنه كانت قد نشات مملكة «كودو» خلال تلك الحقبة التالية لثقافة الفخار الملون، في بداية العصر الحديدي شمال غرب الهند قبل عام ١٠٠٠ قبل الميلاد، حيث كانت قد ازدهرت ثقافة

المشغولات الرمادية في منطقة شمال الهند خلال الفترة من ١١٠٠ إلى ٦٠٠ قبل الميلاد. ثم بعد ذلك تطورت تلك الحقبة الفيدية وعرفت النظام الملكي، مثل «الفيشالي» والتي ظهرت خلال القرن السادس قبل الميلاد واستمرت في بعض المناطق حتى القرن الرابع قبل الميلاد، وتميزت الفترة الأخيرة من هذه الحقبة بتحول حضاري واعٍ من النظام الرعوي إلى تأسيس الممالك المستقرة، وتم تسميتها في ما بعد بالممالك العظمى أو ما يعرف تاريخيا باسم الـ «ماهاجانابادا».

حقبة الممالك العظمى (ماهاجانادابا)

نسبة لما ذكرته نصوص الفيديا أنه مع أواخر العصر الفيدى وبداية عام ٥٠٠ قبل الميلاد، ظهرت بعض الممالك الصغيرة، والتي غطت معظم شبه الجزيرة الهندية. وذكرت النصوص بأن عددها كان ١٦ مملكة أو ولاية وهي: (ماجادا، تشيدى، كاسي، كوسالا، أنجا، فاجي، ماللا، فاتسا، كورو، بانشالا، ماتسيا، سوراسينا، أساكا، أفينتي، كاندهارا، وكامبوجا)، وكانت قد اجتاحت تلك الممالك شمال الهند كله، لتعلن عن التطور الثاني وظهور ملامح الهند الحضارية الجديدة لأول مرة بعد انتهاء حضارة وادي السند، وأُطلق عليها الاسم الجديد «ماهاجانادابا»، وليس هذا كل شيء، بل ظهرت تجمعات حضارية أخرى في الهند باستثناء تلك الممالك الكبرى، مثل العديد من العشائر الأخرى والتي اعتمدت على التوريث مثل بعض الممالك، وأخرى كان الحكم فيها بالانتخاب كبعض الممالك المتبقية، وبحلول زمن «جوتاما بوذا» قبل عام ٥٠٠ قبل الميلاد، توحدت بعض تلك القبائل في أربعة رئيسية وهي فاتسا، أفانتي، كوسالا، وماجادا.

ظهور «جوتاما بوذا» مؤسس البوذية

تُشير المصادر التاريخية أنه بحلول عام ٥٣٧ قبل الميلاد، تحقق لـ«جوتاما بوذا» حالة التنوير الرائدة هناك، وانتشر فكره في كل الربوع، وظهرت الديانة البوذية، وفي نفس الوقت تقريبا كانت الهند على موعد مع لاهوت آخر اسمه «الجنتية»، تم تقديمه على يد كاهن يُدعي «ماهافيرا» والذي تفوق على البوذية في البداية، وكان له الأثر الأكبر على

العقلية الهندية، ثم اندمج اللاهوتيان معا إلى حد ما في الأفكار، وكان هذا واضحا في الالتقاء الكبير بينهم نحو صنوف الزهد المختلفة، ثم قامت دعوتهما باللغة الباكريتية - لغة الحياة اليومية - لكي تصل لغالبية الناس ومن بينهم العامة وغير المثقفين، واستمدت هذه الديانات بعض طقوسها من التقاليد الهندية الرئيسية في الهندوسية، ودعت لتطبيق عدة أوامر منها النباتية وتحريم ذبح الحيوان، و«الأهماس» أي نبذ العنف. وبعد ذلك تقدمت «البوذية» بشكل أسرع دون «الجنتية» التي لم تتخط الحدود الهندية، في الوقت الذي نجح فيه الرهبان البوذيون في نشر مذهبهم على مدى أوسع، ليشمل كل البلاد الواقعة في آسيا الوسطى وجنوب شرق آسيا والتبت وسريلانكا وشرق آسيا، وبعد ١٧ عاما فقط من بداية التنوير البوذي، ظهر الشبح الفارسي مهددا أمن تلك الممالك.

فترة الضعف والاحتلال

في عام ٥٢٠ قبل الميلاد شرعت الإمبراطورية الفارسية في غزو الهند بقيادة «داريوس العظيم»، ومن ثم وقعت معظم الممالك والعشائر الواقعة شمال غرب شبه الجزيرة الهندية في أيديهم لمدة ١٩٤ عاما، حتى جاء عام ٣٢٦ قبل الميلاد والذي شهد قوة جيوش الإسكندر المقدوني، والذي غزا الإمبراطورية الفارسية نفسها وفتح آسيا الصغرى، ثم اتجه ناحية الحدود الشمالية الغربية لشبة الجزيرة الهندية، ووقعت هناك معركة شهيرة وهي معركة «هيداسبس» بينه وبين حاكم «البنجاب» الملك «بوروس»، والتي انتصر فيها الإسكندر وسيطر على إقليم البنجاب، ثم اتجه ناحية الشرق لكي يواجه مملكة «ناندا» الهندية المستقلة والمنغلقة، ثم اصطدم بقوة مملكة «جانجاريدا» التي استفاقت مؤخرا والتي كانت في منطقة «البنغال» خلال تلك الفترة، فشعر الإسكندر أن الحرب واسعة بين تلك الرقعة الكبيرة، فخاف من مخاطر تلك الحرب المجهولة والتي ستستمر لفترة طويلة، ولم يكمل فتوحاته وانسحب.

أثرت تلك الفتوحات الفارسية والإغريقية على الحضارة الهندية، وتعلم الهنود منهم الكثير من نظم الحكم المتبعة في الدولة الفارسية بالذات، واستثمرت هذه الأفكار إمبراطورية

«موريا» الوليدة والصاعدة في الهند آنذاك، أما منطقة «قندهار» التي كانت تقع شرق أفغانستان وشمال غرب باكستان، أصبح بها خليط للعديد من الثقافات الهندية والفارسية وآسيا الصغرى واليونانية، لتعلن عن منظور جديد وهو «البوذية الإغريقية» والتي نشأت بتفاعل البوذية مع الثقافة الهيلينستية.

حكم إمبراطورية موريا

أنشأت أسرة «موريا» إمبراطوريتها عام ٣٢٢ ق.م على يد «تشاندرا جوبتا موريا»، واستمرت حتى عام ١٨٥ ق.م، تحت اسم «إمبراطورية موريا»، ولم تظهر إمبراطورية قبلها بنفس الضخامة والحجم في أرض الهند على الإطلاق، وكانت على كفاءة عالية وذات نظام سياسي وعسكري متقدم، وشهدت تقدما كبيرا وشاملا في عهد «أشوكا»، لتمتد شمالا لحدود جبال «الهيمالايا» وللشرق إلى «أسام» وللغرب لـ «باكستان» وأجزاء كبيرة من «أفغانستان» وبما يشمل مدن «هرات» و«قندهار»، ثم في عهد «تشاندرا جوبتا» و«بندوسارا» امتدت المملكة في وسط وجنوبي الهند، ثم في عهد «أشوكا» توسعت أكثر لتشمل مناطق الغابات بالقرب من «كالينجا» ثم «كالينجا» نفسها، وهذا لأن أشوكا كان من أشد المناصرين للبوذية وعمل على نشرها بشتى الطرق، ويرجع له الفضل الأكبر في انتشار البوذية داخل وخارج الهند، ثم جاءت بعد ذلك أسرة «ساتافاهانا» لتحكم مناطق كبيرة من وسط وجنوب الهند في الفترة ما بعد ٢٣٠ ق.م لتعلن عن بناء عصر حضاري جديد.

الفترة الذهبية (الممالك الوسطى الأولى)

هي أعظم فترات الهند في العصور الوسطى على الإطلاق، والتي بدأت بـ:

مملكة «ساتافاهانا»

حكمت أسرة «ساتافاهانا»، وبلغت قوتها عندما هزموا إمبراطورية «سونج» الشمالية على يد الملك السادس «ساتا مارني»، ثم ازدادت قوة من بعد قوة عندما قادهم المحارب

الكالينجي «كارافالى»، والذي أنشأ أسطولا بحريا كبيرا، وقام بنشر المذهب الجنتي في كل ربوع البلاد، وقد استقر المستعمرون من «كالينجا» في «سريلانكا» و«بورما» و«المالديف» و«أرخبيل الملايو».

مملكة «كونيندا»

استمرت من القرن الثاني قبل الميلاد، إلى تقريبا القرن الثالث بعد الميلاد، وبدأت مملكة «كونيندا» من مدينة صغيرة في الهيمالايا.

إمبراطورية «كوشان»

امتدت هذه الإمبراطورية من «طاجكستان» إلى منتصف «الجانج»، وكانت قد نشأت من هجرات شعب «كوشان» من وسط آسيا إلى شمال غرب الهند في منتصف القرن الأول بعد الميلاد.

مملكة «ساكا»

هي تلك المملكة الغربية التي امتدت منذ عام ٣٥ إلى عام ٤٠٥ ميلادية، في مناطق وسط وغربي الهند، وكانت موجودة في نفس الوقت مع «الساتافاهانا» الذين حكموا وسط وجنوب الهند، والكوشان الذين حكموا الجزء الشمالي.

ليس هؤلاء فحسب، بل كان هناك العديد من الأسر الأخرى التي حكمت أجزاء متفرقة من جنوب الهند على مر أوقات عديدة، ومن أشهرهم (باندیا وتشولا وتشيرا وكادامبا وغرب الجانج وبالافا وتشالوكيا) ووصلوا إلى حد لا يستهان به من القوة والتقدم، وسميت حضاراتهم فيما بعد بإمبراطوريات ما وراء البحار، والتي وصلت إلى جنوب شرق آسيا، ثم بعد ذلك تسارعت تلك الممالك لفرض النفوذ، ونشبت الحروب في ما بينها، حتى ظهرت فترة خطيرة جديدة، انتهت بعد ما سيطر فيها ممالك «الدكن» على جنوب الهند، وعلا شأن

أسرة «كالابدا» البوذية، والتي فرضت سيطرتها على أسر «تشولا» و«تشيرا» و«باندیا» في الجنوب، وبعد فترة اضطرابات آل الحكم إلى أسرة «جوبتا» عام ٣٢٠ ميلادية.

ظهور إمبراطورية جوبتا

حكمت أسرة جوبتا البلاد منذ عام ٣٢٠ إلى ٥٥٠ ميلادية، وكان عصرها العصر الذهبي للهند بلا منازع، لما احتوته من بروز للثقافة الهندية، وتقدم عظيم في مجالات العلوم والتكنولوجيا والمنطق والجدل والأدب والرياضيات والهندسة والفنون والفلك والديانات والفلسفة، وابتداع النظام العشري وفكرة الصفر، واشتهرت تلك الفترة بميلاد قائمة طويلة من العلماء والمعلمين البارزين منهم «فاراهاميهيرا» و«فيشنو شارما» و«كاليداسا» و«أريابهاتا» و«فاتسيايانا»، وازدهر فيها فن النحت والرسم، وانتشرت المباني المعمارية العظيمة، وشهدت البلاد أعظم نظم الإدارة والسياسة، وانتعشت العلاقات الخارجية التجارية مع بورما وسريلانكا وأرخبيل الملايا، وأصبحت الهند ملتقى لمعظم الثقافات. وساهمت أسرة «جوبتا» في دعم البوذية، وتقدموا عسكريا حتى سيطروا على معظم أراضي الهند، حتى اصطدموا بوصول قبائل «الهون»، والتي كانت عاصمتهم «باميان» في أفغانستان في منتصف القرن الخامس بعد الميلاد.

الفترة الكلاسيكية (الممالك الوسطى المتأخرة)

يشمل هذا التصنيف التاريخي المتداول تلك الحقبة التي اندمجت منذ حكم أسرة جوبتا في القرن الرابع، امتدادا إلى حكم الملك «هارشا» ملك إقليم «الكنوج» في القرن السابع في الشمال، ثم تمتد حتى سقوط إمبراطورية «فيجاياناجارا» والتي تقع في الجنوب في يد الغزاة والمستعمرين.

وقد تجلت تلك الفترة الكلاسيكية وتزينت، وأثمرت عن أرقى ما نشأ في الهند من فنون، بل تعتبر تلك الفترة مثالا واضحا لتطور الثقافة الهندية، لما شهدته تلك الحقبة من تطور في القيم الروحية والفلسفية التي شكلت في ما بعد وأثرت في الديانات الهندوسية والجنتية

والبوذية، ضف على ذلك قيام الملك «هارشا» بتوحيد أجزاء شمال الهند بعد انهيار إمبراطورية «جوبتا» في عمل هو الأهم، ولم تستمر حضارته كثيرا حيث انتهت تلك الإمبراطورية العظيمة بموته.

حكام الشمال

ومن الأسر التي حكمت في تلك الحقبة الكلاسيكية وتحديدا في القرن السابع والتي علا صيتها، ثلاث أسر اشتركت في حكم منطقة شمال الهند المزدهر، وهي «جورجارا» و«بلاتيهارا» الذين خرجوا من إقليم «مالوا»، وأسرة «بالا» التي خرجت من إقليم البنغال، والتي سيطرت عليها وسلبت سلطتها فيما بعد أسرة «سينا» و«راشتداكوتا» من إقليم «الدكن» الجنوبي، لتعلن تلك الممالك البداية الأولى لظهور إمارات «الراجبوت».

وإمارات «الراجبوت» هي مجموعة من الممالك التي سيطرت سياسا على الحياة في شمال الهند لمدة ١٠٠٠ عام، وعندما اشتد أزر المسلمين هاجمتهم الفتوحات الإسلامية، ولكن وجدوهم مقاتلين متمكنين وتصدوا لهم بشكل دموي، ولعل من أشهرهم أسرة «شاهي» والتي كان لها السيادة على أجزاء من شرق أفغانستان وشمال باكستان وكشمير، من منتصف القرن السابع حتى أوائل القرن الحادي عشر.

شكل الحكم في الجنوب

أما في الجنوب فكانت السيادة لأسرة «تشالوكيا» والتي حكمت مناطق عديدة من جنوب ووسط الهند، وكانت عاصمتهم «بادامي» خلال الفترة من عام ٥٥٠ ووصولا إلى عام ٧٥٠ ميلادية، ثم جاءت بعدهم أسرة لا تقل عنهم قوة، وهي أسرة «كاليانى» خلال الفترة من عام ٩٧٠ ووصولا إلى عام ١١٩٠ ميلادية، وفي أقصى الجنوب هناك أسرة «البالافا» من «كانشيبورام» المعاصرين لأسرة «تشالوكيا». أما إمبراطورية «تشولا» والتي نشأت في عام ٨٤٨ حتى عام ١٢٧٩ ميلادية، كان لها سنوات ذهبية سيطرت فيها على مساحات شاسعة من شبة الجزيرة الهندية وجنوب شرق آسيا، ولا تنسى الذاكرة التاريخية في الهند اسم

الملك «راجارايا تشولا الأول»، الذي فتح مناطق شبة الجزيرة الهندية وأجزاء من سريلانكا، وشارك أسطوله البحري في حروب عديدة كان أبرزها احتلال سواحل بورما وصولا لفيتنام. ثم بعد ذلك وخلال الفترة الوسطى اتحدت إمبراطورية «باندیان» مع «تاميل نادو» كما اتحدت إمبراطوريات «تشيرا» في «كيرالا». كانت تلك الممالك من أهم المناطق المستعصية على المسلمين، ولكن مع مرور الوقت فتحها المسلمون واحدة تلو الأخرى طوال فترة ٢٥ عاما، وخصوصا بعد تكثيف الضغط في الأعوام الأخيرة بقيادة السلطان «محمود»، الذي لا يزال هو وجنوده يقفون على حدود مدينة «سومنات» متأهبين، وبعد مضي الوقت، أشار لهم ببداية الزحف.

زحف السلطان «محمود» وجنوده، ونصبوا السلالم على أسوار المدينة وصعدوا عليها مكبرين، وانحدروا كالسيل الجارف داخل المدينة، وقاتلوا الهنود الذين أصابتهم صاعقة من هول الصدمة القتالية، فلقد ظن هؤلاء طيلة اليوم أن إلههم سيرسل لهم العون وسيمنع ويهلك عدوهم.. وعندما اشتد القتال تقدم جماعة من الهنود إلى معبودهم «سومنات» وعانقوه وبدأوا يبكون ويتوسلون إليه سائلينه النصر، ثم خرجوا للقتال فقُتلوا جميعا بعدما قاتلوا على باب معبد الصنم «سومنات» أشد ما يكون القتال، ومات منهم الآلاف، وهرب بقيتهم من خلال مراكب في النهر ولاذوا بالفرار، فانتصر المسلمون وأمر القائد «محمود» بهدم تلك الصنم، وأخذ أحجاره ليضعها عتبة لجامع غزنة الكبير، وشرع في تأسيس سلطنة «دلهي» الإسلامية التي حكمت معظم الهند (١٢٠٦-١٥٢٦)، وفي سنة ١٥٢٦ انضمت تلك السلطنة إلى إمبراطورية مغول الهند الفتية.

لم تنتهِ الحضارة الهندية بملامحها الكلية على يد المسلمين، ولكن قضوا على الحضارة الهندوسية بأشكالها الوثنية المتعددة فقط، وحكم المسلمون الهند، ولكن بقي تأثير كل منهما على الآخر، واستمر الحكم الهندي الإسلامي حتى عام ١٨٥٨م، وانتهى عندما احتل الإنجليز البلاد، وبعد القبض على آخر سلاطين دلهي وهو «بهادر شاه»، بعد فشل ثورتهم ضد الإنجليز، وذكرت بعض المصادر أنه بعد القبض عليه هو وأسرته، ساقوهم مكبلين، وفي الطريق أطلق أحد الضباط الرصاص من بندقيته على أبناء الملك وأحفاده، فقتل ثلاثة

منهم، ثم قطعوا رؤوسهم بوحشية ودموية، وعندما حبسوا الملك، أحضروا له الطعام في الموعد المحدد، ولما كشف عن الطعام تفاجأ بوضعهم رؤوس الأبناء الثلاثة في إناء الطعام، وقد غطيت وجوههم بالدم، فقال في ثبات وهو ينظر إلى من حوله: «إن أولاد تيمور البواسل يأتون هكذا إلى آبائهم محمرة وجوهم»، وهو تعبير عن الفوز في اللغة الأوردية.

بهادر شاه الثاني ، الإمبراطور المغولي

الأخير للهند (١٨٣٨-١٨٥٧)

نُصبت محاكمة صورية لمعاقبة السلطان في يوم ٢٦ يناير ١٨٥٨م، ومن ثم تم نفيه إلى مدينة «رانكون» عاصمة بورما، وبنفيه سقطت دولة المغول الإسلامية في الهند، وطويت آخر صفحة من صفحات الحكم الإسلامي في الهند بعد ثمانية قرون.

* * *

الباب الرابع

الحضارة الصينية

هي تلك الحضارة التي ازدهرت في حوض النهر الأصفر الخصب الذي يتدفق عبر سهل شمال الصين، والتي امتدت بالتوارث، وعرفت بحكم السلالات، والتي تعتبر رابع حضارة من حيث القدم في فترة ما بعد الطوفان.

المكان: كل شوارع الإمبراطورية الصينية.

الزمان: صباح ١ يناير من عام ١٩١٢.

الحدث: مظاهرات عارمة تجتاح الشوارع، التجمعات في كل مكان، ولا سيما المقاطعات الريفية التي تمردت على حكام الإقطاع التابعين للإمبراطورية، الشعب كله حاضر ولم يتغيب أحد، معلنين عن استمرار ثورة «شينخاي» أو «شينهاي»، أو ثورة ١٩١١، والتي كانت قد بدأت بما يعرف بعصيان «أوهان» في ١٠ أكتوبر من العام الماضي ١٩١١م، لقد مر من الوقت بضع شهور والفوضى والتسيب في كل مكان، لكنهم صامدون لا يعانون من الضرر، فالفوضى والإهمال هو شيء قد اعتادوه لمدة قرن من الزمان، طيلة حكم سلالة «تشينغ» والذي أسموه بـ«قرن الإهانة». خرج الجميع يبحث عن الحرية وفي الخلفية ماضٍ وضيع ومُخزٍ، فبعد أكثر من ألفي عام من التاريخ والأمجاد، شهدت البلاد قرنا كاملا انحدرت الصين فيه إلى القاع ولم تواكب الدول الحديثة، تعاني من الثورات الداخلية والحروب الأهلية القاتمة، والتحكم الدولي في شؤونها الداخلية من قبل الإمبراطوريات الأخرى وكلِ من هب ودب، أصبحت التعاليم «الكنفوشيوسية» التي وطدت حكم سلالة «تشينغ» للبلاد موضع تساؤل، فأين هذه القيم؟! أين القيم التي أسسها «كونفوشيوس» أول فيلسوف صيني يؤسس مذهبا يتضمن كل التقاليد الصينية عن السلوك الاجتماعي والأخلاقي،

والذي وضع فلسفته لكي تكون قائمة على القيم الأخلاقية الشخصية، لذا أطلقوا عليه لقب نبي الصين.

الكل قد عاش حالة انعدام ثقة بالثقافة القومية منذ سنوات، وكان هذا قد دفع البلاد إلى حالة من اليأس العام وعدم الشعور بمستقبل أفضل، ما أضطر أكثر من ٤٠ مليون فرد من الشعب، أي ما يعادل ١٠٪ من تعداد السكان، إلى إدمان مادة «الهيروين» المخدرة.

إمبراطورية «تشينغ» قد ماتت إكلينيكيا بالفعل منذ فترة، لا سيما منذ قمع «ثورة الملاكمين» عام ١٩٠٠ م، التي أُخمدت من جانب التدخل السافر من تحالف قادته ثمانية من الدول العظمى في ذلك الوقت (روسيا واليابان والمملكة المتحدة والولايات المتحدة وفرنسا وألمانيا وإيطاليا والإمبراطورية النمساوية المجرية). لقد ماتت بالفعل تلك الإمبراطورية منذ ذلك الوقت، لكنهم كانوا ينتظرون بطلا، في ظل عدم وجود نظام حاكم بديل يأخذ بمقاليد الحكم، ما اضطرهم للتأجيل إلى ذلك اليوم المتأخر، فالآن ظهر فيهم بطل، فاستجاب الجميع له ولمجموعة الرفقاء الثائرين الذين أطلقوا على أنفسهم «جمعية التحالف الثوري الصيني»، الذي أسسه البطل الذي تبعه الجميع «سون يات سين» القائد السياسي الحر والفيلسوف والمنظر الثوري، والذي دعا للإطاحة بالنظام الحاكم والبلاط الإمبراطوري. خطة «سين» لم تكن وليدة هذا العام، بل هي أقدم، ففي عام ١٩٠٤م كان «سين» يهدف لتنفيذ قرارات لا غنى عنها: (الإطاحة بأسرة تشينغ - إحياء الصين الميتة - إقامة الجمهورية - توزيع الأراضي الملكية بالتساوي بين الناس)، مهتما بفرض مبادئ القومية والديمقراطية والرفاهية، وفي العشرين من أغسطس ١٩٠٥م، انضم «سين» لهؤلاء الثوريين الصينيين الذين يدرسون في «طوكيو» اليابان، وبعد اتحادهم أسسوا جمعية التحالف الثوري الصيني، الداعية للاحتجاجات في الصين، وبحلول ١٩٠٦م، بلغ أعضاؤها ٩٦٣ شخصا، أما الآن فالشعب كله مستجيب، خرجوا للشوارع في انتظار قائدهم «سين»، الذي أخبرهم أن هناك قرارا مصيريا في مسار ثورتهم سيذاع اليوم، يمنون أنفسهم بسماع أخبار تحصد معاناتهم وتكللها بخطوات تنشلهم من تلك المعاناة، وتجعلهم يعيشون حياة تليق بأحفاد مؤسسي حضارة الصين العريقة والتي بدأت منذ:

العصر الحجري

والذي شهد نشأة أقدم الحضارات الإنسانية في الصين خلال الفترة الممتدة للألفية الرابعة قبل الميلاد، وقد أظهرت الدراسات أن البشر القدماء استقروا وعملوا بزراعة الحبوب مثل الدخّن، ومن هؤلاء المزارعين الأوائل ظهرت أول المجتمعات الصينية، وكان هذا بعدما تحول النهر الأصفر إلى مركز لتجمع أولى الحضارات هناك في أواخر العصر الحجري الحديث، واتضح ذلك بعد اكتشاف تلك الآثار التي احتوت على أنقاض قرى عديدة على ضفافه، منها ما عُثر عليه في موقع «دامايدي» في «نينغشيا»، وموقع «بانبو» في «شيان»، وأيضا تم اكتشاف ما يزيد عن ٣١٧٢ نقش صخري احتوى على رسم لصيد ورعي، ورسومات أخرى تُظهر الشمس والقمر والآلهة، ويُعتقد أن هذه النقوش مشابهة لأقدم الحروف الصينية المكتوبة. ونشأت في هذه الفترة أولى الحضارات الصينية والتي سُميت بحضارة «البايليغانغ»، التي عُثر على حرفيات صنعها أبناؤها في مقاطعة «شينتشنغ» عام ١٩٧٧.

بداية حكم السلالات

بهذا الشكل تطورت تلك التجمعات الحضارية، حتى بلغت أشدها في نهاية الألفية الثانية قبل الميلاد، عندما أصبح للصين نظام حضاري مستقل، ثم زاد تطورها لتمر بثلاثة أطوار متميزة:

- ما يسمى بـ«دور التقدم الحضاري الأول» الممتد من عام ١٠٢٨ ق.م إلى عام ٢٢٠م.

- ما يسمى بـ«دور الركود والاضطراب» الممتد من عام ٢٢٠م حتى عام ٦١٨م.

- ما يسمى بـ«دور الازدهار الحضاري الثاني» الممتد من سنة ٦١٨م حتى سنة ٩٠٦م.

أولا: دور التقدم الحضاري الأول

حكمت الصين خلال هذا الأول ثلاث سلالات فقط هي سلالة «تشو» وسلالة «تشين» وسلالة «هان».

١ - عهد سلالة تشو

هي تلك الأسرة التي حكمت الصين منذ فترة ١٠٢٨، وحتى فترة ٢٥٦ قبل الميلاد، كان الملك في تلك السلالة يلقب بـ«ابن السماء»، ويُعاونه موظف كبير مثل رئيس الوزراء حاليا، وكانت الوزارات المهمة هي: الزراعة، والحرب، والأشغال العامة، والمالية، والشؤون الدينية، والعدلية، وكان على رأس كل إدارة موظف كبير مسؤول أمام الملك ومعاونيه.

مع بداية حكم هذه السلالة كانت الصين تعيش في المنطقة الوسطى والساحلية من حوض النهر الأصفر، ولكن مع تطور الوقت في ظل حكم سلالة تشو، اتسعت تلك الحدود ناحية الغرب والجنوب، لتضم حوض النهر الأزرق أيضا. وكانوا قد عرفوا نظام الري، وعرفوا تأسيس المدن، وظهر من بينهم عمال وحرفيون متميزون، ومن أشهرهم صنّاع التحف والمجوهرات من العاج والمعادن الثمينة، والحجارة الكريمة كالمرجان والزمرد والياقوت، وفي هذه السلالة تطور أسلوب الكتابة من الطريقة التصويرية الذاتية إلى الطريقة التصويرية المقطعية، وهي الطريقة المعتمدة حتى هذه اللحظة في الصين، لأن الصينيين لم ينتقلوا بعد ذلك إلى مرحلة الكتابة الأبجدية كما يعرفها العالم الحديث. وكانوا قد عرفوا العلوم، ومن أشهرها رصد النجوم وعلم الفلك، ففي سنة ٤٤٤ ق.م توصلوا إلى تحديد طول السنة بـ ٣٦٥ يوما وربع، وفي عهدهم ولد الفيلسوف «كونفوشيوس»، والذي تلخصت فلسفته في أن (الإنسان ليس شريرا بطبعه بل هو طيب الجوهر وحسن العنصر، فإذا رُبي تربية صالحة أصبح إنسانا خيرا ومواطنا كريما) وبعد أن مات، تابع تلاميذه نشر تعاليمه، وصار له أتباعٌ كثيرون، فنصبوه إلها وأقاموا له التماثيل والهياكل ونظموا له الطقوس والعبادات. كانت تعاليم تلك الفيلسوف سلاحا في تكوين الأخلاق والقيم الحميدة، إلا أنها كان لها ضرر جبار تسببت في تأخرهم وتمسكهم بالماضي وعدم مواكبة التقدم، ما أظهر سيادة حكم الإقطاع والتفكك.

٢ - عهد سلالة تشين

هي تلك الأسرة التي حكمت منذ عام ٢٥٦ حتى عام ٢٠٦ قبل الميلاد تحت اسم سلالة «تشين»، أو تحت مسمى آخر «عهد الوحدة»، فهذه الأسرة برغم فترة حكمها القصيرة، كان لها الفضل في توحيد البلاد وتأسيس أول إمبراطورية متقدمة بحق، فبعدما قضوا على سلطة الإقطاعيين والزعماء المحليين الذي أنهكوا البلاد بعد نهاية حكم سلالة «تشو»، قاموا بتعزيز آليات الحكومة المركزية، ولم يعينوا موظفا في منصب إلا إذا كان كفؤا، ووحدوا اللغة الكتابية والموازين الكتابية، والموازين والمقاييس والشرائع في جميع أنحاء الإمبراطورية، وحثوا الشعب على أنه شعب صيني واحد، ومن الناحية العسكرية فقد قامت الحكومة ببناء «سور الصين العظيم»، ولم يكن هدفه رد الغزاة فحسب، بل كان هناك غرض أهم، هو تقوية الشعور بوحدة المصير بين الصينيين.

سور الصين العظيم، الذي تم بنائه في عهد سلالة تشين

وكان لهم الفضل في نشأة تلك النظام الإمبراطوري الصيني الذي استمر قائما لمدة ألفي عام وحتى وقوف الناس في الشارع الآن في تلك الثورة. انتهى حكم سلالة «شين» بالحرب الأهلية العارمة التي أطاحت باستقرار البلاد.

٣ - عهد سلالة هان

هي تلك الأسرة التي حكمت منذ عام ٢٠٦ قبل الميلاد حتى عام ٢٢٠ ميلادية، كثاني أسرة إمبراطورية في الصين، بعد إقامة الإمبراطورية بشكل مثالي على يد سلالة تشين، وبدأت هذه السلالة في تأسيس حكمها خلال الحرب الأهلية التي قامت في عام ٢٠٦ ق.م، ثم استطاعت توحيد الصين سنة ٢٠٢ قبل الميلاد، ثم شرعت في تأسيس أول عاصمة لها وهي مدينة «تشانغن»، وأول إمبراطور حكمها كان «ليو بانغ»، ثم نهضت نهضة عسكرية جبارة، حيث قامت بسلسلة من الفتوحات، وضمت إلى الصين (كوريا ومنشوريا في الشمال، وهضبة التبت والهند الصينية في الجنوب، وتوغلت غربا حتى حدود أفغانستان).

عرف هذا العهد التكنولوجيا والهندسة وكافة العلوم، وازدهرت التجارة الخارجية ووصل تجار الصين إلى شواطئ البحر الأسود وحوض البحر المتوسط، وحملوا بضائعهم ومنتجاتهم إلى أوروبا ومصر وبلاد ما بين النهرين، فعاشوا منفتحين ما أثر ذلك على حضارتهم، وأدخل عليها الكثير، ولعل من أهم هذه الإدخالات إدخال البوذية إلى الصين في سنة ٦٧ م، فآمن بها كثيرون وأصبحت إحدى الأديان الرئيسية في الصين. كان هذا العهد متقدما، وفيه عرفت الصين الآداب والفنون، وعرفوا فن الرسم والنحت، وفيه ظهر اختراع الورق، ووُضع أول قاموس، وكُتب أول تاريخ موثوق للصين، ثم شهدت البلاد مرة أخرى فوضى عارمة، بعد زوال حكم سلالة «هان».

ثانيا: دور الركود

وهي الفترة من ٢٢٠ حتى ٦١٨ ميلادية، والتي شهدت فيها الحضارة الصينية الانحطاط والاضمحلال، فبعدما انتهت سلطة سلالة هان عمت الفوضى في البلاد، وهُددت خارجيا، وضعفت الحكومة المركزية وأعلن عدد من حكام الأقاليم استقلالهم. ثم جاء الخطر الأكبر عندما ظهرت قبائل المغول وهاجمت الصين وغزت منطقة الشمال كلها، واستمرت ما يقارب ٤٠٠ عاما، كانت هي الأسوأ في تاريخ الصين كله، حتى ظهرت شمس الحضارة مجددا على استحياء عندما سيطرت سلالة «تونغ».

ثالثا: دور الازدهار الحضاري الثاني

وهي تلك الفترة الممتدة من عام ٦١٨ حتى عام ٩٠٦ ميلادية، وقد بدأت تلك الحقبة المتطورة عندما حكمت سلالة «تونغ» عام ٦١٨ م، وعلو نجم الإمبراطور «لي شي مين» المشهور بلقب الإمبراطور «تاي تسونغ»، الذي استطاع أن يوحد الصين من جديد وينشأ فيها حضارة استمرت على يد سلالته لمدة ٣٠٠ عام، في فترة من أزهى العهود الحضارية في تاريخ الصين، فلقد عرف هذا العهد نظم الإدارة الحديثة للدولة، وسن القوانين ونزاهة القضاء، كما أنشأوا معاهد التعليم على اختلاف درجاتها، وإتاحة الفرص للتلاميذ المؤهلين لاستكمال دراساتهم في المدارس المحلية، والانتقال منها إلى كليات الأقاليم، ثم الالتحاق أخيرا بالجامعة في العاصمة حيث يفوزون بأعلى درجات التحصيل، وكان ذلك سببا كفيلا في ظهور طائفة كبيرة من الشعراء والأدباء العظام في تاريخ الأدب الصيني، واشتهر هذا الدور أيضا، بأن قدّم للعالم في سنة ٨٦٨ م أول كتاب مطبوع، وعندما انتهت سلالة «تونغ»، شهدت البلاد الفوضى كعادتها عند سقوط أي سلالة، حتى ظهرت سلالة «سونغ» الجديدة لتسيطر على الأوضاع، ولكن فاجأهم التتار بالغزو لتبدأ فترات مظلمة على بلاد الصين.

الغزو ثم الاضمحلال ثم الاستعمار ثم نهاية الحضارة

سقطت أعظم السلالات في تاريخ الصين وهي سلالة «تونغ» في سنة ٩٠٦م، وبعد سقوطها سادت الفوضى في كل أرجاء الصين لمدة ٥٤ سنة، حتى قامت سلالة جديدة بالسيطرة على الأوضاع، تُسمى سلالة «سونغ» والتي سيطرت على الحكم سنة ٩٦٠م، ولكن لم تُكلل مجهوداتهم، ولم يجنوا ثمرة تعبهم بسبب سوء حظهم، فما لبثوا أن حكموا حتى هاجمت قبائل التتار الصين واحتلت القسم الشمالي منها، واستمر القسم الجنوبي تحت سيطرة ملوك «سونغ»، واستمر الوضع نحو ٣٠٠ عام بل أكثر حتى أوائل القرن الثالث عشر الميلادي، فهاجمتها قبائل المغول بقيادة جنكيز خان وانتزعت القسم الشمالي من أيدي التتار، وبعد أكثر من ٥٠ عاما، وفي سنة ١٢٦٠م هاجم «قوبلاي خان» حفيد جنكيز جنوبي

الصين وضمه إلى إمبراطوريته، فأصبحت الصين كلها خاضعة للحكم الأجنبي، في واحدة من أسوأ عصورها.

ورغم سوء حظ سلالة «سونغ»، والظروف الصعبة التي حكموا فيها، لكن كانت لهم إيجابيات ملحوظة، فقد اشتهر عهدهم بالفنون وخاصة بالرسم، وقد جمعوا في صناعة البورسلين بين براعة الرسم وجودة الإنتاج، فغزوا جميع شعوب العالم في هذه الصناعة، ما جعل الناس يُطلقون اسم «الصيني» على البورسلين بصورة عامة. أما الخاقان «قوبلاي خان» فكان قد تأثر كثيرا بالحضارة الصينية واندمج معها، وبرغم كونه محتلا فإنه شجع العلماء على البحث والابتكار، ومن أهم اختراعات هذه الحقبة: الرصد الفلكي، وبناء أول مرصد في العالم، وآلة تسجيل الهزات الأرضية. ومع مرور الوقت اندثر هذا التقدم، ومع دخول القرن السادس عشر تفككت الصين وظهر عليها الضعف، وأصبحت منغلقة، ومعزولة عن العالم الخارجي، ثم جاء القرن السابع عشر ليزيدها سوءا من بعد سوء، عندما تسلمت أسرة «تشينغ» - آخر أسرة حاكمة في الصين - للحكم، والتي بدأ حكمها منذ عام ١٦٤٤م، لتُضفي على البلاد ضعفا من بعد ضعف، حتى جاء القرنان التاسع عشر وبداية العشرين ليخطوها الاستعمار بمنتهى الإهانة، ويتدخل في شؤونها ويعبث بها، لتكون منطقة فوضى مشهورة عالميا، تسمح لكل من هب ودب التلاعب بها، ما زاد من غضب الشعب، وخروجه في هذه الثورة، والتي ازدادت وتقدمت يوما من بعد يوم، وفي هذا اليوم بالذات؛ بعدما علم الجميع أن الزعيم «سون يات سين» قد تأهب لإعلان خطابه الرسمي، والذي استهله بكلمات وشعارات مفادها التمجيد في الحرية والاستقلال، ثم هتف في الجميع معلنا قيام الجمهورية الصينية بعد نجاح ثورتهم التي اندلعت شرارتها في العاشر من أكتوبر عام ١٩١١م، ضد حكم أسرة «تشينغ» للبلاد، ثم نصب نفسه رئيسا مؤقتا للبلاد لحين انتخاب رئيس، ليجبر الإمبراطور «بوئي» الضعيف على توقيع اتفاقية تنازل عن عرش البلاد، ليهتف الجميع فرحين، وينتهي بذلك حكم هذه الحضارة القديمة.

تم انتخاب «يوان شيكاي» رسميا كرئيس للبلاد بعد ذلك، والجدير بالذكر أن «شيكاي» كان قد خان الثورة في ما بعد وقام بحل مجلس «الكوميتانج»، وعطل العمل بالدستور بموجب

سلطاته كرئيس للبلاد، وأعلن نفسه إمبراطورا على الصين في الأول من يناير عام ١٩١٦م، فدخلت البلاد في فترة انتقالية عصيبة، تخللها حروب أهلية وصراع شيوعي، وتفتت الصين إلى دويلات صغيرة، لتبدأ سلسلة أحداث

ماو تسي تونغ يعلن إنشاء جمهورية الصين الشعبية عام ١٩٤٩

عصيبة جدا جدا، انتهت بقيام «ماو تسي تونغ» بإعلان قيام جمهورية الصين الشعبية على أراضي بر الصين الرئيسي، وأعلن نفسه رئيسا للبلاد عام ١٩٤٩م، أي بعد ٣٨ عاما من الظلام القاتم في فترة انتقالية تُعد هي الأسوأ.

* * *

الباب الخامس

الحضارة اليونانية الإغريقية

هي حضارةَ اليونان القديمة التي امتدت من عام ١٢٠٠ قبل الميلاد فور انتهاء الحضارة الموكينية (الميسينيّة)، وكانت عبارة عن تجمع لعدد من المدن المستقلة ساحل البحر الأيوني، وتعتبر خامس حضارة من حيث القدم.

المكان: مدينة كورنث – وسط جنوب اليونان، والتي تبعد عن أثينا مسافة ٧٨ كيلومترا من جهة الغرب.

الزمان: صيف عام ١٤٦ ق.م.

الحدث: زحف الأسطول الروماني بقيادة «لوسيوس موميوس» لفرض الحصار على هذه المدينة التاريخية والسيطرة عليها. الرومانيون يتقدمون بمنتهى الثقة، فهم يعلمون الفرق الواضح في العتاد والإمكانيات، ورغم ذلك لم يعرف الشعب اليوناني وقتئذ الاستسلام، فعندما علموا بقرب مجيء الغزو، اكتملت انتفاضتهم التي أطلقها اتحاد «آخاين» اليوناني، وهو تحالف من الآخايين والدول البيلوبونيسية الأخرى في اليونان القديمة، ضد الجمهورية الرومانية الغازية، ولكن للأسف كانت البلاد منهكة بسبب عدم تعافيها من الحرب المقدونية الرابعة، فلقد مرت البلاد بأربعةِ حروب سابقة، شنها عليهم الرومان الذين تعمدوا إسقاط اليونان وضمها كمقاطعة لهم. والحرب الرابعة كانت هي القشة التي قسمت ظهر البعير، والتي استهلكت قوة المقدونيين لمدة عامين سبقا هذا الهجوم، كان سببها عناد «أندريكسوس»، الذي وهب نفسه لعرشِ مقدونيا محاولا إعادة تأسيس المملكة القديمة، ولكن أطاح الرومان به في معركة «بيدنا» الثانية، وردا على ذلك حشدت الرابطة الآخية الآن جيوشها مستعدين للهجمات الرومانية، ولكن كيف يتم الردع والحصون المقدونية أصبحت شبه مدكوكة! ينتظر أعضاء الرابطة وصول الجيوش الرومانية، رغم أنهم على

يقين أن إعلان الحرب ضد روما أمرا ميؤوسا منه، فروما القوة الصاعدة الجديدة قد هزمت أعداء أقوى وأكبر، بل وأثبت الفيلق الروماني تفوقه على الكتيبة المقدونية في أكثر من واقعة.

احتشد سكان «كورنث» ليشاركوا في تلك الحرب العنيفة، ووقفوا في مقدمة الصفوف مدافعين عن مجد جدودهم، أما الرومان الآن ليس برؤوسهم بديلا عن حسم الموقف وغزو اليونان ونهاية حضارة اليونان العريقة، والتي نشأت ما بين عامي ١١٠٠ و٨٠٠ قبل الميلاد، ومنذ بداية:

الحقبة الكلاسيكية القديمة

كان على أرض اليونان القديم حضارة بدائية، هي حضارة «الموكيانية» والتي امتدت إلى أواخر العصر البرونزي لليونان القديم (١٦٠٠-١١٠٠ ق م)، وقد أُخذ اسمها هذا من الموقع الأثري «موكناي أرغوليذا» في «بيلوبونيز» في اليونان، ثم سقطت تلك الحضارة المتواضعة ليشهد اليونان القديم سنوات مظلمة وبدائية، ثم قبل القرن الثامن قبل الميلاد بدأت اليونان في الخروج من تلك العصور المظلمة، وهي في قمة ضعفها وانهيارها، فقد فقدت القراءة والكتابة ونسيت الكتابة الموكيانية، ما اضطرهم لتبني الأبجدية الفينيقية. ثم بعد ذلك طوروها لتولد الأبجدية اليونانية. وبدأت الحياة من جديد، ولكن بشكل غير متحد، فتقسمت تلك الرقعة إلى مجتمعات صغيرة تُحكم ذاتيا، وكان كل مجتمع منهم معزول بشكل طبيعي عن جيرانه بسبب الظروف الجغرافية، عن طريق البحر أو الجبال، ثم بعد ذلك عرفت هذه المجتمعات الصراعات فيما بينها، وبدأت أول حرب في هذه الأرض قبل عام ٧٠٠ قبل الميلاد، والتي تُعرف بحرب «ليلانتين» ما بين مقاطعة «خالكيذا» ومقاطعة «إريتريا» على سهل «ليلانتين» في منطقة «وابية»، والتي شهدت انتصار «خالكيذا».

عرفت تلك البلاد التجارة، وظهرت العملة للتداول، فتقسمت هذه الشعوب إلى طبقتين بينهم فجوة كبيرة، فظهرت طبقة غنية أرستوقراطية وأخرى فقيرة جدا، وبعد أن تزايد

عدد السكان نقصت الأراضي، فظهر صراع داخلي بين الفقراء والأغنياء في العديد من تلك المدن، ففي «إسبرطة» أدت الحروب «الميسينية» إلى غزو «ميسينيا» وإستعباد الميسينيين، فالسكان الذين تم إخضاعهم والمعروفين باسم «هيلوتس»، تم استعبادهم وتشغيلهم في خدمة إسبرطة، أما مواطنو إسبرطة فكلهم أصبحوا جنودا في الجيش الإسبرطي من كبيرهم لصغيرهم. وبحلول القرن السادس قبل الميلاد، هيمنت إسبرطة على الشؤون اليونانية هي ومجموعة مدن أخرى على رأسها مدينة «ثيفاو»، أما «أثينا» و«كورنث» فقد اتحدتا وشكلتا قوة بحرية وتجارية كبرى. كان لتزايد السكان وقلة الأراضي دور كبير في هجرة الإغريق وفتوحاتهم لمستعمرات إغريقية جديدة خارج حدودهم، كالتي قامت في «ماجنا غراسيا» والتي تقع في جنوب إيطاليا وصقلية، وصولا إلى آسيا الصغرى. وكما هو سائد عن الإغريق أنهم لم تكن لهم السيادة الكاملة على المستعمرات التي أنشأوها، بل كانوا يندمجون وسط السكان الأصليين، ولكن للإغريق دائما الغلبة في الفكر والطابع الاجتماعي والديني، فكانوا مؤثرين جدا. توقفت الهجرة في القرن السادس قبل الميلاد عندما أصبح العالم اليوناني له حجم ثقافي متطور جدا.

ازدهرت اليونان القديمة ثقافيا واجتماعيا وصناعيا، وتطورت مستعمراتها في الخارج، وازدهرت التجارة والصناعة فيما بينها، وعرفت البلاد العدل، وتطور دخل الفرد ليصل لأضعاف ما كان، حتى جاء النصف الثاني من القرن السادس قبل الميلاد، والذي شهد تحولا كبيرا في الحياة العامة، حيث سقطت أثينا تحت طغيان الحاكم «بيسيستراتوس» ثم خلفه أبناؤه «هيبياس الأثيني» و«هيبارخوس»، واستمر الوضع لسنوات مريرة، حتى جاء عام ٥١٠ ق.م، وظهر الأرستقراطي الأثيني «كليستنيس»، والذي حرض الملك الإسبرطي «كليومينس الأول» لحل أزمة الجارة أثينا، وبالفعل استجاب الملك وساعد الأثينيون على إسقاط الطغاة، وعين عليهم «إيساغوراس» ثم تحالفت إسبرطة مع أثينا، ولكن بعد وقت قليل انقلبتا على بعضهما البعض، لأن الأرستقراطي «كليستنيس» لم يكن قد طلب من إسبرطة المساعدة لكي يجعلوا أثينا دمية في أيديهم! بل طلب مساعدتهم ودعمهم فقط، فتمرد وأشعل ثورة المواطنين فيها، وتحمس سكان أثينا للثورة، فتوسعت ثورتهم

واستطاعوا أن يطيحوا بحكم «إيساغوراس»، وبعد ذلك قدم «كليستنيس» مجموعة إصلاحات لنهوض أثينا، ما زادهم قوة، استطاعوا بها صد ثلاث محاولات لغزوهم من قبل إسبرطة. وبدأ «العصر الذهبي» لأثينا الصاعدة، وذاع صيتها بعدما وقفت وصمدت ضد الأخطبوط الفارسي، رغم اجتياحه وسيطرته واستعماره لجيرانها، تلك الدول المطلة على البحر الأيوني.

الفترة الكلاسيكية الوسطى

استمرت تلك الدول الجارة تحت الاستعمار الفارسي، ولكن لم تسكت أثينا على ذلك، ففي عام ٤٩٩ ق.م، تمردت دول البحر الأيوني ضد الطغاة المدعومين من الفرس الذين حكموهم، وكانت انتفاضتهم مدعومة بقوات خاصة جاءت من أثينا و«إريتريا»، واستمر التمرد حتى عام ٤٩٤ ق.م، وبعدما علم الملك الفارسي «دارا الأول» (داريوس الأول) أن الأثينين ساعدوا الثورة الأيونية، قام بتجميع أسطول حربي للسيطرة على أثينا في عام ٤٩٠ ق.م، وفي مفاجأة كبرى، هزم الأثينين الجيش الفارسي الجبار، وأرغموا أسطوله على الانسحاب بدعم من حلفائهم من «بلاتايا»، واستمرت العداوة في تزايد حتى مر من الوقت عشر سنوات، وانطلقت حملة ثانية من قبل «خشايارشا بن دارا»، ومرت الحملة بين دول الشمال بتقدم وانتصار ملحوظ، لم تستلم أثينا لتلك الفزاعة، بل تزعمت هي وإسبرطة تحالفا مكونا من ٣١ دويلة عازمة على مقاومة الحملة الفارسية، وفي هذه الأثناء كانت قد انهارت صقلية اليونانية وتسلمت لاستعمار القرطاجيين.

وبعد سنوات من الصراع هزمت قوة بحرية أثينية جيش الفرس في معركة «سلاميس» البحرية، ثم ترتب على ذلك استكمال الانتصار الأثيني ليهزموا الفرس مرة أخرى ولكن على الأرض في معركة «بلاتيا» عام ٤٧٩ ق.م. استمر التحالف ضد بلاد فارس بقيادة الإسبرطي «بوسانياس» في بادئ الأمر، ولكن منذ عام ٤٧٧ ق.م كانت الريادة والقيادة لفرسان أثينا، وبحلول عام ٤٦٠ طُردت بلاد فارس من بحر «إيجة» كله، لتتحول وتطور القوة العسكرية لتلك التحالف، ليصبح تحالفا هجوميا بعدما كان دفاعيا، وأصبحت الولايات اليونانية

الضعيفة متحدة الآن، مكونة الإمبراطورية الآثينية الجديدة، وأرسلوا الحملات على المستعمرات التابعة لفارس والتي انتهت في عام ٤٥٠ ق.م، بعد هزيمة كارثية في مصر في عام ٤٥٤ ق.م، ثم بعد ذلك نشب الخلاف بين أثينا وإسبرطة مجددا.

صراع أثينا مع إسبرطة

زادت التوترات عندما عرضت إسبرطة المساعدة لأعضاء الحلف الراغبين في التمرد على الهيمنة الأثينية، واشتد الخلاف بينهم وانتهى بـ«سلام الثلاثين عاما» في شتاء عام ٤٤٦، ولكن بالرغم من السلام تدهورت الأوضاع مرة أخرى في عام ٤٣١ ق.م، ثم في ٤٣٠ق.م اندلعت الحرب مرة أخرى، ولم تكن الحرب مباشرة بينهما، ولكن شن كل واحد منهم حربا على الولايات الأخرى لخضوعها له دون الآخر، وشهد هذا تقدما ملحوظا لأثينا، فعرضت إسبرطة الصلح لكن الأثينين رفضوا، ثم فيما بعد تم الاتفاق على معاهدة سلام في عام ٤٢١ق.م، ولكن كالمعتاد لم يدم السلام طويلا فيما بينهما، فبعدها بثلاث سنوات تدخلت إسبرطة وهزمت قوات التحالف الأثيني والأرغوسي في «مانتينيا»، ثم في عام ٤١٥ أطلقت أثينا حملة بحرية ضد صقلية والتي انتهت بكارثة مع مقتل الجيش بأكمله تقريبا، ثم بعد الهزيمة الأثينية في «سرقوسة» بدأ حلفاء أثينا الأيونيين يتذمرون من سلبية قيادة الحلف الديلي، ثم تمردوا عليهم وبدأ الانقسام. كان هذا في الوقت الذي بدأت فيه بلاد فارس مرة أخرى التدخل في الشؤون اليونانية على الجانب الإسبرطي، فبدأ الصدام بينهما مجددا. صمدت أثينا ضد الفرس وانتصرت في معارك مهمة مثل «كيزيكوس» في عام ٤١٠، و«أرغينوز» في عام ٤٠٦ ق.م، ثم استغلت إسبرطة انشغال أثينا وانقضت عليها في معركة «أيجوسبتيمي» في ٤٠٥ ق.م، وهزمت إسبرطة أثينا، ثم حاصرت ميناء أثينا ووقفت إمدادات الحبوب إليها، فدخلت المدينة على مشارف مجاعة عارمة، فوافقت أثينا على تسليم أسطولها والانضمام إلى الرابطة «البيلوبونيزية» بقيادة إسبرطة، ومن وقتها أصبحت إسبرطة هي المسيطرة على كل الأجواء اليونانية منذ القرن الرابع قبل الميلاد. لم تستغل إسبرطة هذه الهيمنة بقوة، وزاد العبء عليها بسبب تحملها فوق طاقتها، وبحلول عام ٣٩٥ ق.م شعرت أثينا وآرغوس وثيفا وكورنث بالقدرة على تحدي هيمنة إسبرطة،

فنشبت بينهم «الحرب الكورنثية» والتي استمرت منذ عام ٣٩٥ق.م، وحتى عام ٣٨٧ ق.م، وانتهت باستعادة إسبرطة للهيمنة بعد دعم بلاد فارس لها والتهديد بالدخول، واستمرت هيمنة إسبرطة لمدة ١٦ سنة. ثم بعد ذلك حاولت إسبرطة فرض السيطرة على «ثيفا»، ونشبت بينهما حرب في «ليوكترا» في عام ٣٧١ ق.م، هزمت فيها ثيفا قوة إسبرطة بقيادة الجنرال «إبامينونداس» ثم قاد القوات إلى الحدود البيلوبونيزية، فأخضعهم لحكمه وأسقط الهيمنة الإسبرطية عنهم، ودخل إلى «ميسينيا» وقام بتحريرها، فأصبحت الهيمنة ثيفية.

ظهور القوة المقدونية

بالفعل كانت الهيمنة ثيفية، ولكن لفترة قصيرة جدا، فلقد انتهت بعد خوضهم معركة «مانتينيا» في عام ٣٦٢ ق.م، والتي مات فيها قائدهم «إبامينونداس»، وبرغم أنهم هم من انتصروا، لكن الاستنزاف القوي للعتاد والقوة لم يمكنهم من البقاء على الهيمنة، ما أعطى الفرصة لظهور قوة بديلة في مقدونيا خلال ٢٠ عاما فقط، بقيادة «فيليب الثاني»، والذي استطاع أن يوحد مملكته، ويوسعها شمالا وغربا على حساب القبائل «الإيليرية»، ثم غزا «ثيساليا» و«تراقيا»، ليبدأ مجده العسكري مع الجيش المقدوني، والذي استطاع من خلاله السيطرة على المدن الجنوبية وغزوها، ثم هزيمة جيش ثيفا وجيش أثينا المتحالفين في معركة «خيرونيا» عام ٣٣٨ ق.م. بذلك استطاع فيليب السيطرة على اليونان كله باستثناء إسبرطة، وأنشأ تحالف كورنث للمدن المتحدة، ثم بعد ذلك خاض فيليب الحرب ضد الإمبراطورية الأخمينية الفارسية، والتي تم اغتياله في بدايتها من قبل «بوسانياس الأورستايسي»، فظهر الفارس الذي يُدعى «الإسكندر»، ابن فيليب وخليفته عسكريا، والذي استطاع بالفعل هزيمة «دارا الثالث» قائد الفرس، واستطاع في وقت قياسي تدمير الإمبراطورية الفارسية وضمها إلى مقدونيا، فلقبوه بالأكبر.

اليونان الهيلينستية

هي الفترة الناتجة بعد نهاية الاستقلال السياسي اليوناني، وتوحيده وظهور قوة مقدونيا، خلال هذه الفترة انخفضت أهمية اليونان الداخلي نوعا ما، بسبب فتوحات الإسكندر الأكبر، والتي حفزت الكثير وخصوصا الشباب إلى الهجرة لمستعمرات الشرق.

توفي الإسكندر الأكبر في بابل عام ٣٢٣ ق.م، أثناء استمرار فتوحاته لبلاد الشرق، وكان قد مرض وتوفي في بضعة أيام، فانقسمت إمبراطوريته بين جنرالاته، ما تسبب في ظهور المملكة البطلمية، التي كانت تضم مصر وشمال إفريقيا، والإمبراطورية السلوقية التي ضمت بلاد الشام وبلاد الرافدين وبلاد فارس، والأسرة الأنتيغونية في مقدونيا، لتنخفض قيمة اليونان الداخلية مرة أخرى، بعدما هاجر العديد من اليونانيين إلى الإسكندرية وأنطاكية والعديد من المدن الهيلينستية الجديدة الأخرى التي تأسست في أعقاب حروب الإسكندر، حيث كانت المراكز الكبرى للثقافة الهيلينستية هي الإسكندرية وأنطاكية، عاصمتا المملكة البطلمية والإمبراطورية السلوقية.

بعد فترة قليلة من موت الإسكندر تمردت بعض مدن اليونان عن سلطة مقدونيا، ليشكلوا تحالفين كبيرين، الأول – كان اسمه تحالف اتحاد آخاين والذي ضم ثيفا وكورنث وآرغوس، والثاني – كان اسمه الاتحاد الأيتوليي، والذي ضم بعض الدول على رأسهم إسبرطة وأثينا، ولكن ما أضعف الحلفين أنهما طوال الوقت في حالة حرب مع بعضها البعض، أو متحالفين مع مختلف الجوانب في الصراعات بين ملوك طوائف الإسكندر، أما الجبهة الثالثة أو الحلف الثالث (الأسرة الأنتيغونية) المتحكمة في مقدونيا، دخلت في حرب مع الجمهورية الرومانية في أواخر القرن الثالث قبل الميلاد لإثبات الذات، محاولة ردع تلك القوة الطموحة الجديدة، ولكنهم لم يتمكنوا من صدها، واستمر الرومان على نحو نموذجي في شنِ الحرب على مقدونيا لخضوعها كاملة، واستطاعوا إسقاط المقدونيين واتحاد الأيتوليين بحلول عام ١٤٩ق.م. لم يتبق أمامهم الآن سوى اتحاد آخاين، الذي قام بحشد السلاسل البشرية أمام الرومان في تلك المعركة، الجميع واقف الآن ينظر لقدوم الأسطول الروماني الذي أصبح على مرمى البصر، وبعد قليل، دخلت القوات الرومانية المتفائلة، وهزمت الاتحاد سريعا، وانقضت على أهالي المدينة بشراسة، وقتلت منهم الآلاف دون

مقاومة تُذكر، وذلك بسبب ضعف العتاد وقلة التدريب، وأقام الجيش الروماني مذبحة كبيرة قُتل فيها الكثيرون، ثم سيّر الباقي كعبيد، وبعد ذلك قاموا بإحراق مدينة كورنث القديمة بشكل بشع، ليضعوا حدا لاستقلال اليونان بأسرها، وقررت روما تقسيم مقدونيا إلى مقاطعتين رومانيتين جديدتين، هما «أخايا» و«إبيروس».

يشار إلى هذه الحرب أحيانا باسم «الحرب الآخية»، وعرفت بقصر مدتها ووقوعها مباشرة بعد سقوط مقدونيا، وقد ألقى المؤرخ «بوليبيوس» اللوم على زعماء مدن التحالف لحشدهم السكان في حرب انتحارية، والجدير بالذكر أن تدمير كورنث كان في نفس السنة التي دُمرت فيها قرطاج.

* * *

الباب السادس

الحضارة الرومانية

هي حضارة انبثقت من مجتمع زراعي صغير في شبه الجزيرة الإيطالية في منتصف القرن الثامن قبل الميلاد، وظهرت على طول سواحل البحر الأبيض المتوسط، وأصبحت واحدة من أكبر إمبراطوريات العالم القديم، وسادسهم من حيث القدم.

المكان: القسطنطينية عاصمة الإمبراطورية الرومية والدولة البيزنطية (مضيق البسفور مُلتقى قارتي آسيا وأوروبا - إسطنبول - تركيا حاليا).

الزمان: فجر يوم الثلاثاء ٢٩ مايو ١٤٥٣م - ٢٠ جمادى الأول ٨٥٧هـ.

الحدث: أنهى السلطان «محمد الثاني» الملقب بالفاتح خطابه بين قواته بعد صلاة الفجر، ثم قام بتوزيع قواته، وحشد ١٠٠ ألف مقاتل أمام الباب الذهبي، و٥٠ ألف مقاتل في الميسرة (جناح اليسار للجيش)، و في قلب الجيش ثبت الجنود الإنكشارية، ثم تفقد أخبار أسطوله المكون من ٧٠ سفينة، وأشار ببداية الهجوم على مدينة «القسطنطينية» عاصمة الدولة البيزنطية منذ نحو ألف عام، التي كانت من أهم المراكز الثقافية ورمزا من رموز الحضارة عندهم، والتي أسسها الإمبراطور الروماني «قسطنطين الأكبر»، واختارها لتكون عاصمة للدولة الرومانية.

كان السلطان محمد الفاتح متفائلا جدا، حيث درس كل ما تم في تلك المحاولات السابقة على مر السنين، فمحاولات فتح القسطنطينية عديدة، كانت قد بدأت منذ عصر الأمويين، في عهد «معاوية بن أبي سفيان»، حينما قام بإرسال حملتين – أولهما عام ٤٩هـ - والأخرى - عام ٥٤هـ، ولم يتمكن المسلمون من فتحها آنذاك. ثم جاء عهد «سلمان بن عبد الملك» والذي قام بإرسال حملة ثالثة عام ٩٩هـ، ثم أرسل بعدها الرابعة، ولكن لم يتمكن من فتحها. وبعدها انشغل المسلمون لفترة حيث قامت الدولة العباسية، وتركوا الأمر إلى أن جاء عهد

الأتراك العثمانيين، وكان للعثمانيين محاولتان، الأولى عندما حاصرها «بايزيد الأول»، والأخرى في عهد «مراد الثاني»، ولكنهم لم يتمكنوا من فتحها، والآن محمد الفاتح في صدد محاولة جديدة.

أصبح قرار فتح هذه المدينة قرارا حتميا، فوجود دويلة رومانية داخل الكيان العثماني أمر لا يقبله السلطان محمد الفاتح، بعدما بات الخلل الاستراتيجي واضحا، حيث أصبحت هذه المدينة عائقا يُعرقل المواصلات وعمليات نقل القوات، ثم إن القضاء على الإمبراطورية الرومانية أصبح ممهدا الآن بعدما انتعشت خلافته العثمانية، فهذا هو الحلم الأكبر منذ حكم بايزيد الأول. كان قد بدأ السلطان تكتيكاته الأولى بتحصين مضيق البوسفور تحسبا من أن يأتي المدد من مملكة «طرابزون»، فبجدية تامة كان قد أعد السلطان قواته للحرب، ففي ثلاثة أشهر فقط بنى قلعة على شاطئ المضيق من جهة أوروبا، سميت قلعة «روملي حصار»، وكان بنيانها على هيئة مثلث سميك الجدران، وفي كل زاوية برج ضخم مغطى بالرصاص، لتكون موازية وجها لوجه مع الحصن الذي أنشاه بايزيد الأول على ضفة البوسفور من الناحية الآسيوية، ثم أمر بنصب المنجانيق والمدافع الضخمة الموجهة إلى الشاطئ، في تهديد صريح لأي سفينة رومانية تتجرأ وتمر من هناك. انزعج الرومان، وردوا على هذا التحدي بتحد أقوى، فقد بدأوا في هدم القلعة، فكان تحدي العثمانيين أكبر وأكبر، حيث أعلنوا الحرب رسميا على الدولة البيزنطية الرومية، فجاء الرد من قيصر الروم الإمبراطور «قسطنطين پاليولوك الحادي عشر» الروماني، بأنه سيدافع عن المدينة مهما حدث، ثم قام باعتقال العثمانيين في بلاده.

أصبحت بوادر الحرب واضحة لا محالة، واستعد الفريقان للقاء المرتقب، فقام قيصر الروم بتحصين المدينة وإصلاح أسوارها المتهدمة، وإعداد وسائل الدفاع الممكنة، وتجميع المؤن والغلال، وزاده حماسة وصول بعض النجدات، بعدما تسربت بعض السفن تحمل المؤن والغذاء، فقد نجح القائد الجنوبي «جون جستنياني» في التسلل إلى المدينة المحاصرة مع ٧٠٠ مقاتل محملين بالمؤن والذخائر لدعم صفوف الروم، فاستقبله الإمبراطور قسطنطين وكافأه وعينه قائدا عاما لقواته، فنظم الجيش وأحسن توزيعه وقام بتدريب الرهبان لكي

يشاركوا في الحرب لأول مرة، فبهذا الشكل أصبح الجانب الرومي حلفا مكونا من البيزنطيين والبنادقة والجنوبيين، واستمرارا لحالة الحماس، قرر الإمبراطور وضع سلسلة لإغلاق القرن الذهبي أمام السفن القادمة، تبدأ من طرف المدينة الشمالي وتنتهي عند حي «جلطة»، وبسبب ذلك هم صامدون تحت هذا الحصار القائم منذ يوم الجُمعة ٢٦ ربيع الأول المُوافق ٥ أبريل، أي لمدة ٥٥ يوما، حتى هذه اللحظة التي يقف فيها السلطان الفاتح مع جنوده على أعتاب المدينة، ولكن من الواضح الآن أن السلطان العثماني قرر الهجوم مع بداية نسائم صباح اليوم الجديد، فكان هذا واضحا في خطبته للجنود، ومن المتوقع أن تكون ساعة الصفر قد اقتربت، فالسلطان الآن يتفقد قواته، ووقف قليلا أمام سلاحه التاريخي الجديد، والذي اقترحه وصممه المهندس المجري «أوربان»، وهو عبارة عن مدفع يقذف قذائف هائلة، والذي صُمم في الثلاثة أشهر الماضية، وكان يجر كل مدفع إلى هنا ١٠٠ ثور، حيث كان يزن المدفع نحو ٧٠٠ طن، ووزن قذيفته ١٢ ألف رطل، وكان قد خضع للتجربة، وسُمعت أول قذيفة على بعد ١٣ ميلا.

الآن المشهد مكتمل، الجيوش العثمانية تتطوق القسطنطينية برا وبحرا، وجاءت الخطوة قبل الأخيرة، وهي إرسال الرسل، فأرسل السلطان الفاتح إلى الإمبراطور قسطنطين عارضا عليه تسليم المدنية وأن يُعامل أهلها باحترام، ولكنه رفض بسبب ثقته في حصونه، وتلك السلاسل الغليظة التي طوق بها مدينته.

فأعطى الفاتح إشارة البدء، وكان أولها مهمة المدافع العثمانية التي بدأت بقذف قذائفها الهائلة على السور لساعات بصورة متواصلة، وكانت القوات العثمانية تهاجم من البر والبحر، لكن الأمر بات مستعصيا، فسلاسل المدينة غليظة، وحصونها منيعة، والمدينة لا تتأثر بالحصار فقد تلقت المدد والمؤن من صقلية، والرومانيون رافضون الاستسلام، أما العثمانيون فقد كثفوا قذائفهم أكثر، متمسكين بالنصر هذه المرة أكثر من أي وقت مضى، فهم يعلمون أن تلك الإمبراطورية الآن هي الأشد عداوة، ويعلمون قوتها وشراستها منذ بدايتها عندما نمت مدينة روما من مستوطنات حول المخاضة من نهر «التيبر»، والتي تأسست في وقت ما في القرن الثامن قبل الميلاد، وهناك أبحاث أخرى تفيد أنها ربما تعود

إلى القرن العاشر قبل الميلاد، على أيدي إحدى القبائل اللاتينية التي عمرت إيطاليا، والتي سكنت على قمة تل «البلاطينى».

وبحلول القرن السابع قبل الميلاد سيطر عليها تماما «الأتروريون»، الذين سبق أن استقروا في الشمال في «أتروريا»، ثم بحلول القرن السادس قبل الميلاد فقد الأتروريون السلطة على المنطقة، بعدما اتحدت القبائل اللاتينية الأصلية مع قبائل «سابين» القوية وأطاحوا بها، ثم شرعت القبائل المتحدة في إنشاء حكم ملكي جديد، لكنه يقيد نفوذ الحكام، ثم أنشأوا مدينتهم الجديدة ليكون أول ملك لروما هو «رومولوس»، ثم خلفه «نوما بومبيليس» والذي قام ببدء مشاريع روما الكبيرة ببناء قصره الملكي «الرجيا» ومجمع العذارى الطاهرة.

تأسيس الجمهورية الرومية

شهدت روما تغيرا جذريا لم يعهده ما قبلهم، حيث قاموا بإنشاء الجمهورية الرومانية حوالي ٥٠٩ ق.م، بعدما عزلوا آخر ملوك روما السبعة «تاركوين»، ثم شرعوا في تأسيس دستور جديد، وعرفوا قانون الفصل بين السلطات، وأسسوا الجمعيات وألغوا تعيين القضاة، ووضعوا لهم انتخابات سنوية، وانتخابات أخرى لإدارات تلك الجمعيات. استطاع هذا الدستور أن يُنشأ الضوابط والتوازنات، واختاروا من القضاة ما يُعرف بالقنصلين، وكانت لهما سلطة تنفيذ ما يشرعه مجلس الشيوخ، أما الهيئات القضائية الأخرى في الجمهورية كانت بيد القاضي، وكانوا يطلقون عليه «البريتور»، ويد موظف الإدارة المالية والذي كان يُطلق عليه «القسطور». ثم قاموا بإنشاء جمعيتين لهما أهمية جبارة، تخصصا في رصد أصوات الناخبين، الأولى - كان اسمها جمعية التجمع القبلي، وكانت قد صُممت لمراقبة انتخاب مناصب المحليات أو المناصب المتوسطة، والثانية – هي جمعية المجلس القيادي، الذي يُجري التصويت على قضايا الحرب والسلام، وانتخاب الرجال لأهم المناصب.

نهضت حضارة الرومان، وحصدوا تقدما ملحوظا في وقت قليل، فبعد مُضي سنوات عديدة سيطر الرومان تدريجيا على جيرانهم في باقي أجزاء إيطاليا، ومنهم الأتروريون أنفسهم، ودخل الرومان في غزوات من أجل فرض السيطرة، وكانت لهم طريقة إستراتيجية خاصة، حيث كان من عاداتهم تأسيس المستعمرات الرومانية في المناطق الإستراتيجية الحساسة، وفرض سيطرة مستقرة على المنطقة، مما جعلهم لا يفقدون أراضيهم الجديدة بسهولة، فما كان يدخل في أحضان الرومانيين لا يخرج أبدا.

وعندما جاء منتصف القرن الثالث قبل الميلاد، اشتد الصراع ما بين روما وقرطاج، ودخلوا حروبا عُرفت بالحروب «البونية» والتي نتج عنها انتصار روما، وغزوها الأول عبر البحر، وكان من نصيبها «صقلية» و«إسبانيا»، لُيعلن القدر ميلاد القوة الجديدة الصاعدة، ثم استمدوا نفوذهم وهيمنتهم بعدما تمكنوا من هزيمة الإمبراطورية المقدونية والإمبراطورية السيلكية في القرن الثاني قبل الميلاد، لُيعلن هذا التوقيت عن أن الرومان هم الشعب المهيمن على البحر الأبيض المتوسط في هذا الوقت. ولكن كان لهذا النجاح عواقب مريرة في الداخل الرومي، فبعد هذه الهيمنة أصبح أعضاء مجلس الشيوخ أغنياء على حساب المقاطعات، أما عامة الشعب فكان غالبيتهم فقراء، فمنهم من كان طوال الوقت يُؤدي خدمته العسكرية تاركا أرضه دون عناية، فزاد الطلب على القوة العاملة الأجنبية، أما غنائم الحرب فقد ذهبت لطبقة معينة جعلتهم أثرياء دون عمل، ومنع قانون «كلوديا» أعضاء مجلس الشيوخ من الانخراط في التجارة ولكن دون جدوى، فتمادى مجلس الشيوخ في تعطيل قوانين استصلاح الأراضي وتنمية المجتمع، فقامت العصابات العنيفة من العاطلين عن العمل من الجبهة المعارضة لمجلس الشيوخ في تخويف الناخبين من خلال عنفهم، ولعل أشهر الأحداث في ذلك هي التي وقعت في أواخر القرن الثاني قبل الميلاد على يد الإخوة «جراسي»، الذين تبنوا قضية الدفاع عن الشعب، منادين بإصدار قانون إصلاح الأراضي وإعادة توزيع الأراضي الرئيسية للطبقة الأرستقراطية بين عامة الشعب، ولكن انتشرت الفوضى وقُتل الأخوان، فعم الاضطراب ربوع روما، فحاول مجلس الشيوخ امتصاص الغضب، فطبق القليل من إصلاحات الأخوين، ثم ظهرت بعد ذلك بعض

الفوضى، بعدما أصدر مجلس الشيوخ قرارا بسحب الجنسية الرومانية من أي مدينة إيطالية تحالفت مع المظاهرات، ما أدى إلى نشوب حرب أهلية بينهم، استمرت منذ عام ٩١ حتى عام ٨٨ ق.م، وبعدها ظهر القائد «جايوس ماريوس» بأفكاره العسكرية الجديدة، والتي بثت في الجنود زيادة الولاء لقاداتهم ولكن قل ولاؤهم للمدينة، فأخذ كل قائد مجموعته ونشبت حرب أهلية أخرى هي الأشد منذ عام ٨١ حتى عام ٧٩ ق.م.

تأسيس الإمبراطورية الرومية

استمرت الفوضى لما يقارب ثلاثين عاما، حتى ظهر ثلاثة رجال أرستقراطيين، وهم : «يوليوس قيصر»، و«بومبي»، و«كراساس»، وكانوا متحدين سرا، وقد اجتمعوا على استنكار الوضع الراهن، فأنشأوا اتفاقا سريا للسيطرة على الجمهورية، وبالفعل نجحت خططهم، وكونوا ما يسمى بالحكومة الثلاثية الأولى، ثم علا نجم يوليوس قيصر، وبانت قوته عندما استطاع غزو فرنسا، فحاول رفقاؤه كسر شوكته، فأطلقوا عليه هجوما كبيرا من مجلس الشيوخ، نشأ عن تلك الصراعات انقسام وحرب سياسية بينه وبين مجلس الشيوخ، كان ألد أعداؤه فيها هو صديقه المنشق عنه «بومبي»، ولكن انتصر يوليوس قيصر، وانفرد بالعرش، وخضعت كل البلاد لحكمه الأوحد.

وعندما جاء يوم ١٥ مارس من عام ٤٤ ق.م، كان قد ملأ قلوب نواب مجلس الشيوخ الغل، فكانوا رافضين تولي يوليوس السلطة المطلقة، بل يريدون إحياء الحكم الدستوري من جديد، وأصبح موت يوليوس لا غنى عنه بالنسبةِ لهم. بالفعل نصب أعضاء مجلس الشيوخ الروماني كمينا في مكان بجانب مسرح «بومبي»، بقيادة «غايوس كاسيوس لونغينوس» وابن يوليوس بالتبني وذراعه اليمنى «بروتوس يونيوس»، و«دسيموس جونيوس بروتوس ألبينوس»، فطعن الجميع يوليوس قيصر، ومن مجموع ٢٣ طعنة غدر كانت آخرها هي تلك التي تلقاها يوليوس من ابنه بالتبني وذراعه اليمنى «بروتوس»، والذي قال له «حتى أنت يا بروتوس»، ثم احتضر ومات، فوقف «بروتوس» أمام جثته وقال «فليشهد الجميع أنني لم أقتل يوليوس لأن حبه في قلبي قليل، ولكن لأن حب روما في قلبي أكبر».

مات قيصر، وفي أعقاب موته تولت الحكم حكومة ثلاثية جديدة، والتي تألفت من قيصر الوريث المعين أو ابن قيصر بالتبني وهو «أوكتافيوس»، و«ماركوس أنطونيوس» و«ليبيدس»، وكالعادة اختلفوا طول الوقت، ونشب بينهم صراع على السلطة، وتبدلت أحوالهم جميعا، فـ«ليبيدس» تم نفيه، أما أنطونيو فقد انهزم مؤخرا هو وكليو باترا في معركة أكتيوم عام ٣١ ق.م كما ذكرنا، على يد «أوكتافيوس» والذي انفرد بحكم الإمبراطورية الرومية الموحدة، ثم سُمي بالإمبراطور «أغسطس»، ليصبح أول إمبراطور للإمبراطورية الرومانية الموحدة.

عهد زعامة الإمبراطورية

بالفعل سيطر أوكتافيوس على الحكم الثلاثي الذي خلفه قيصر، وتولى السلطة المطلقة، ولم ينصت للنداءات الجمهورية، حتى خلفاؤه فقد عاشوا على هذا النهج، بداية من «طبريا» والذي استولى على السلطة كُليا دون مستشارين، وحتى بداية أسرة «جوليو – كلوديان»، ووصولا إلى «نيرون» الذي توفي في عام ٦٨ ميلادية... وشهد هذا العهد العديد من الأباطرة الديكتاتوريين والذي خلدهم التاريخ، وذكر غالبيتهم بأن كل شخص فيهم كان فاسدا ولئيما، فقالوا أن «كاليجولا» كان «مجنونا»، أما «نيرون» فحدثنا التاريخ عنه دون حرج، وذكر قسوته واهتمامه بشؤونه الخاصة أكثر من شؤون الدولة، ثم جاء حكم أسرة «فلافيان»، وبالرغم من الدكتاتورية الطاغية على تلك الحقبة، فإنها شهدت توسعا إستراتيجيا وإقليميا، وظلت الدولة آمنة إلى حد ما لفترات. ثم عندما جاء عهد «الأباطرة الخمسة الجيدة»، وصلت الإمبراطورية ذروة نهضتها الإقليمية والاقتصادية والثقافية، وعندما جاء حكم «تراجان» زادت الإمبراطورية قوة، فبعدما غزا «داسيا» قفزت الإمبراطورية لأعلى معدل توسعي إقليمي في تاريخها، وبعد ذلك ظهر الطاعون الأنطوني الذي اجتاح الإمبراطورية منذ عام ١٦٥حتى عام ١٨٠ ميلادية، والذي قضى على مالا يقل عن خمسة ملايين نسمة. ثم بحلول عام ١٩٣ سيطر على الإمبراطورية أسرة «سيفيران» حتى عام ٢٣٥ ميلادية، ليحكم روما مجموعة من الحكام غير الأكفاء، لتظهر الأزمة التي سُميت تاريخيا باسم «أزمة القرن الثالث»، والتي انتهت في عهد «لديوسليتيان»، حينما

قام بتقسيم الإمبراطورية في عام ٢٩٣ ميلادية إلى قسمين، شرقي وغربي، يحكمهما حكومة رباعية من اثنين من الأباطرة المشتركين، مع اثنين من زملائهما المبتدئين، فنتج عن حل الأزمة ظهور أزمة أكبر، حيث شهدت البلاد صراعا جديدا لمدة نصف قرن، قاتلوا بعضهما فيه من أجل السيادة. وفي يوم ١١ مايو عام ٣٣٠ ميلادية، قام الإمبراطور «قسطنطين الأول» بتأسيس مدينة «بيزنطة» باعتبارها عاصمة الإمبراطورية الرومانية الشرقية، وأعاد تسميتها لتصبح «القسطنطينية»، وسميت الإمبراطورية بـ«البيزنطية» نسبة إلى عاصمتها بيزنطة. أما الإمبراطورية الرومانية الغربية التي كانت عاصمتها روما، قد ظهرت في موقف الأضعف، حيث كُتب عليها الموت البطيء منذ الإنشاء، فغزوات البربر عليها من حين إلى حين كانت قد أرهقتهم كثيرا، فاستمر انهيار الإمبراطورية الغربية تدريجيا على مر القرون، وسادها الضعف بشكل أكبر في بداية القرن الرابع الميلادي، عندما هاجر «القوطيون» إلى روما المتسيبة نوعا ما، باحثين عن ملجأ داخل حدود الإمبراطورية الرومانية، ثم في عام ٤١٠ ميلادية، عزل القوطيون الغربيون روما عن الإمبراطورية بقيادة «ألاريك الأول»، ثم جاءت الضربة القاضية عندما غزا «الونداليون» مقاطعات روما الأهم في إسبانيا وفي فرنسا، وأيضا في شمال أفريقيا، ثم دخلوا روما نفسها غازين عام ٤٥٥ ميلادية، ليُطيحوا بالإمبراطور الروماني هناك «رومولوس أغسطس» بقيادة رئيسهم الألماني «أودواسير» في شهر سبتمبر من عام ٤٧٦ ميلادية، وبذلك انتهى حكم الإمبراطورية الرومانية الغريبة بعد مادامت لنحو ١٢٠٠ عام.

أما الوضع في الإمبراطورية الشرقية فكان متعافيا نسبيا، بفضل إمبراطورها «قسطنطين الأول» والذي نجح في استعادة شمال أفريقيا وإيطاليا لفترة قصيرة، لكن الممتلكات البيزنطية في الغرب تحولت إلى جنوب إيطاليا وصقلية في غضون بضع سنوات بعد وفاة «قسطنطين»، وفي الشرق، بدأ ظهور الإسلام وأصبح يهدد أتباعه العالم كله، فبالفعل غزا المسلمون سوريا ومصر بسرعة رهيبة وانتزعوهما من يد البيزنطيين في تحد تام، فحصن البيزنطيون أنفسهم، وبالفعل نجحوا في وقف الزحف الإسلامي على أراضيهم خلال القرن الثامن، ومع بداية القرن التاسع قاموا بالتعافي نوعا ما، فاستطاعوا رد أجزاء من الأراضي

التي غزاها المسلمون، ثم بحلول عام ١٠٠٠ ميلادية، ازدهرت الإمبراطورية الشرقية وبلغت ذروتها وقوتها، فلقد أعاد «باسيلياس الثاني» فتح بلاد مهمة، من أهمها «بلغاريا» و«أرمينيا»، وازدهرت الثقافة والصناعة والتجارة، وانتعش الاقتصاد، وزاد التسلح العسكري، ثم بعد مرور ما يقارب سبعين عاما، توقفت هذه النهضة المؤقتة بعد وقوع معركة «مانزيكرت» في عام ١٠٧١ ميلادية، لتشهد الإمبراطورية التفكك والصراع الداخلي الذي طفا على السطح، إلى جانب الحملات التركية العثمانية، لتبدأ الإمبراطورية في عيش النزع الأخير، لكن في آخر لحظة تُكتب لها النجاة، بعدما شرع الإمبراطور «أليكساس الأول كوميناس» في إرسال استغاثاته للغرب في عام ١٠٩٥م، لتكون الإمبراطورية البيزنطية التي كانت سيدة المنطقة مجرد تابعة للغرب الأوروبي، والتي شاركت معه في الحروب الصليبية، ما أدى في النهاية إلى نهب القسطنطينية على يد المشاركين في الحملة الصليبية الرابعة، ثم جاء حكم «قسطنطين پاليولوك الحادي عشر» والذي شعر بالتهديد العثماني، فحسّن علاقاته بالغرب، وزاد في تحصين المدينة، وطوّر من وسائل الدفاع، وأبرم تحالفا مع البنادقة والجنوبيين، وعين القائد الجنوبي الناجح «جون جستنياني» قائدا للجيش، ووضع سلسلة لإغلاق القرن الذهبي أمام السفن القادمة، ولكن فيما يبدو أن تلك السلاسل بدأت في الانهيار الآن، فلقد اشتد الضرب، وعلا صوت القذائف من قِبل العثمانيين.

توقف الضرب قليلا، ما لفت نظر الرومانيين، يبدو أن هناك خطة ما تدور، نعم، فلقد خطر ببال محمد الفاتح فكرة قد تكون هي الحاسمة، لكن تطبيقها يعتبر معجزة بشكل كبير، ففكرته هو أن ينقل جزءا من أسطوله بطريق البر من منطقة غلطة لداخل الخليج. بعد قليل تحققت المعجزة بالفعل، واشتد لهيب المعركة، واقترب المسلمون من أبواب المدينة، ونجح الأسطول العثماني برفع السلاسل الحديدية التي وضعت في مدخل الخليج، وتدفق العثمانيون إلى المدينة، ليُسقطوا الإمبراطورية الرومانية بحضارتها الكبيرة إلى الأبد.

* * *

الباب السابع

الحضارة الفارسية (الأخمينية)

الأخمينيون هم سلالة ظهرت في بلاد فارس، بدأت في الظهور من وسط إيران في الأحواز، جنوب أصفهان، في عام ٥٥٩ ق.م، وامتدت في أقصى اتساع؛ بداية من وادي السند بالهند إلى ليبيا غربا وشمالا إلى مقدونيا، وتعتبر الحضارة السابعة من حيث القدم.

المكان: تل جومل أو جوجاميلا أو گاوگميلا (بالفارسية)، بالقرب من أربيلا، والتي تبعد عن الموصل بنحو ٨٩ كلم ناحية الشرق (بالعراق حاليا).

الزمان: أول أكتوبر من عام ٣٣١ ق.م.

الحدث: فريقان على أهبة الاستعداد للقتال. وقف الفريق الأول وهو: قوات الفرس بقيادة «دارا» أو «داريوس الثالث» في استعداد تام، بعدما بلغت الأوامر إلى مجموعة المشاة لكي يرابطوا في خط طويل يُعزز القلب والجناحين، أما الخيالة فقد جاءهم الأمر بأن يقفوا في الأمام، ثم خلق لهم ساترا بـ٢٠٠ عربة منجلية على الجناحين والوسط، أما مجموعة الفيلة فوقفت خلفها، ثم جعل مقره لقيادة المعركة في وسط القلب، أي الخط الخلفي.

أما الفريق الآخر وهو: قوات «الإسكندر المقدوني» والذي قام بوضع المشاة في القلب، والفرسان على الأجنحة، ثم اختار أن يكون مقره مع حرسه الخاص في أقصى اليمين، وجعل فرقة الخيالة تحت إمرة القائد «بارمنيون» خلف يساره، وجعل ساتر الخيالة مجموعة مشاة خفيفة، وكلفهم مهمة اقتناص راكبي العربات الفارسية بنبالهم، ثم وضع خلف جناحيه أرتالا من الخيالة والمشاة متجهة نحو نصف اليمين ونصف اليسار لسببين، السبب الأول - مقاومة أية حركة لشق صفوفه، أو أي عملية إحاطة يمكن أن يقوم بها الخصم، السبب الثاني - إذا لم يقم العدو بذلك، تتقدم هذه الأرتال الى الأمام مستديرة الى الداخل لتعزيز القوى التي تقوم بالهجوم، كما جعل مركز التموين في الخلف تحرسه كتيبة

مشاة. كان القائد المقدوني يملك رأسا غنية بالأفكار والمناورات العسكرية العديدة. ثم بعدما جاءته تقارير القوى الاستكشافية وفرقة الاستطلاع، جعل خطته كالآتي: جذب خيالة جيش الفرس من الوسط إلى الجانبيين، حتى يفتح منطقة قلب العدو، وإحداث فجوة بداخله، من خلالها سيجلب النصر السريع، بعدما يوجه ضربة قوية وسريعة للملك «داريوس» المقيم في تلك المنطقة الوسطى، أما خطة «داريوس»: فكانت معتمدة على كثافة الحشد والقوى والفيلة التي بحوزته، حيث كان جيشه ضخما.

دقت ساعة الصفر الآن، والتي بدأها «داريوس» بحماسة شديدة، حيث قام بإطلاق العربات المنجلية لتفصم جهازية الجيش المقدوني وخلفها الفيلة، ثم تأهبت مجموعة الخيالة لتنقض على قوات الإسكندر وخيالته، التي كانت أقل من خيالة الفرس بخمس مرات على الأقل، في بداية لمشهد عنيف جدا، ثم جاءت ردة فعل الإسكندر التي تمثلت في التقدم ببطء بعدما انجرفت أجنحته للخلف بزاوية ٤٥ درجة، في محاولة منه لإغراء خيالة الفرس للمباشرة بالهجوم، ثم زحف للأمام ببطء مع انحراف محدود، فشرب «داريوس» الفخ وتقدمت عرباته المنجلية، ثم تم اعتراضها بشكل محدود من قبل رماة النبال، ولكنها تقدمت سريعا ووصلت إلى الخط الأمامي لجبهة الجيش المقدوني، ففتح الخط الأول لها الطريق وانحرف على الأجناب، وسمح لها بالدخول إلى الخط الثاني، الذي صمد وفاجأ الفرس بالتأهب وشد رماحه الطويلة، ثم قذفها عليهم بشكل مفاجئ جدا، فوجد قائدي العربات نفسهم في مصيدة محكمة، فعندما انجرفوا للداخل، وجدوا الخط الخلفي منتظرهم ليقتلهم بأريحية شديدة، وخسر الفرس أول محاولة.

أمر الإسكندر بعدها بتقدم القوات نحو جناح الفرس الأيسر، فتقدم الجناح للقتال ببسالة عنيفة، ولكن انقض عليه الفرس بعنف شديد، وتقدمت خيالة الجناح الأيسر الفارسي بشكل مهيب، لكي تتطوق الجناح الأيمن المقدوني المتراجع وتنقض عليه، ثم بحماس شديد تقدم المشاة الفرس لدعم نجاحهم، وتحقيق النصر الذي ظهرت بشائره، ولكن هذا ما كان يريده الإسكندر، فقد وقعت الثغرة بالفعل في وسط قوات داريوس نتيجة تدفق المشاة، وهنا استغل الإسكندر هذه الثغرة، فاندفع مع المهرة من خيالته وحرسه، وشكلوا اختراقا واضحا

في القلب الفارسي، كان بداية الثغرة باتجاه وسط الفرس أي ناحية الملك «داريوس» نفسه، والذي بدأ يتراجع. ولكن لم ينم هذا التطور عن قوة قتال الإسكندر، فموقفه كان ضعيفا جدا في هذا الوقت، بعدما أصبحت ميمنة الفرس (قوات الجناح الأيمن) تخوض معركة ناجحة ضد ميسرة الإسكندر (قوات الجناح الأيسر) وطوقتها بالفعل، فصرخ قائد الميسرة «بارمنيون» المقدوني بطلب النجدة لأنه كان على وشك القتل، فاستغاث بالإسكندر الذي عجز عن تقديم التعزيزات إليه في موقف هزائمي محتمل. استشعر الإسكندر طعم الهزيمة، ولكنه استمر في الصمود، هاتفا في جنوده أن اصمدوا، فلقد تجاوزتم ما هو أصعب، وهذا كلامٌ صحيح، فبالفعل كان هذا الجيش قد تحدى الصعاب، فقبل هذه المعركة كان قد عبر جيش الإسكندر مضيق «الدردنيل»، وهزم الفرس في عدة معارك، كمعركة «غرانيكوس» ٣٣٤ ق.م، ثم في «إيسوس» ٣٣٣ ق.م، ثم تقدم هو وقواته عبر الشريط الساحلي السوري واللبناني حتى «صور» فحاصرها عام ٣٣٢ ق.م، لمدة سبعة أشهر حتى سقطت، ثم زحف إلى «غزة» ومنها إلى «مصر»، ثم أمر بتأسيس مدينة الإسكندرية، كمقترح ذكي منه، لكي يحرم الفرس من فرصة طعنه من الخلف، ولتأمين مواصلاته البحرية، ثم بعد ذلك انتقل إلى الداخل عبر سوريا والعراق من دون أي مقاومة تُذكر، ففتحهما، ثم زحف إلى هنا حيث وقف الملك الفارسي «داريوس» الثالث بانتظاره في «تل جومل»، لتعطيل فتوحاته والقضاء عليه في هذه المعركة النهائية الفاصلة، والذي وصل قبل الإسكندر إلى هذا المكان، وعمل على تمهيده وإزالة العوائق والأشجار وكل ما يعيق سير العربات المنجلية التي أحضرها لمعركته. هل ستكون هذه نهاية الإسكندر بعد كل هذا الزحف المبين؟ كان للإسكندر مبادئ وأسباب كفيلة بأن تجعله يُقاتل لآخر قطرةِ دم، فقد جاء إلى هنا رغبة منه في القضاء على الخطر الفارسي، الذي كان يُهاجمهم دائما من البر والبحر، والذي احتل بلاده وأهانها، أضف إلى ذلك رغبته في استمرار وحدة المدن اليونانية وعدم تفككها مجددا، ورغبته القوية في احتلال الشرق وبناء إمبراطورية ينشر فيها أفكاره التي أخذها عن معلمه «أرسطو»، أما «داريوس» الثالث ملك الفرس فكان يدافع عن ما تبقى من هيبة إمبراطوريته الأخمينية صاحبة التاريخ العريق، التي بدأت منذ أن استقرت قبائل الفرس البدوية في الجنوب عند منطقة سموها «فارس» قرب شيراز

اليوم، وقف «داريوس» على منصته داخل المعركة يصرخ في جنوده: «حافظوا على المجد، حافظوا على هيبة إمبراطوريتكم»، واستجاب له الجنود، وعليت همهماتهم، وتقدموا مدافعين عن حضارتهم الأخمينية، متذكرين ومدركين تاريخها منذ التأسيس ومنذ الألف الأول قبل الميلاد.

كيف تأسست الحضارة الأخمينية؟

الفرس هم أحد الشعوب الإيرانية القديمة، وتعتبر سلالتهم الأولى من سلالة الشعوب الهندية - الأوربية (الآرية)، والتي اجتاحت معظم أراضي إيران في مطلع الألف الأول قبل الميلاد، أما الأسرة الأخمينية فلم يُعرف أصلها بالتحديد، ولم ترد أي أخبار عن ظهورها قبل القرن السابع قبل الميلاد، والتي ظهرت وانتشرت وقتها، بعدما حاولت التمرد على تبعيتها لـ «العيلاميين» هناك، فاستمدت نفوذها واستقلت بإمارة «أنشان»، ولكن بعد وقت بسيط انقسمت هذه الأسرة على نفسها، بعدما استولى أمير أنشان «تشاهبيش» على بلاد «بارسا» والموجودة في إقليم شيراز، فظهر هناك حكمان: حكم فارس - وحكم أنشان، ثم بعد ذلك علا نجم الأنشانيين بعدما تزوج «قمبيز الأول» من ابنة «أستياج» ملك الميديين الأميرة «ماندان»، ليُنجبوا بعد ذلك «قورش الثاني» الذي كان حكمه انعطافا وتحولا حاسما في دور الأسرة الأخمينية في تاريخ إيران القديم، وللعلم، الميديون كانوا يحكمون كردستان وأذربيجان ومنطقة كاردوخ في حدودها الحالية، نشأت الحضارة الفارسية بماض فقير، فمؤسسوها لم يكن لهم تاريخٌ عريق كـ«العيلاميين» مثلا، ولا ثقافة تضاهي ثقافة حضارة بابل ولا وادي النيل ولا حتى الإغريقية، ولكنها استغلت كل شيء، وورثت مزيجا مميزا من تراث وثقافة كل الدول القديمة التي قامت على أرض إيران.

الانطلاقة

استطاع «قورش الكبير» أو «كورش الأكبر» أول ملوك فارس، وهو «قورش بن كمبوجية»، إعادة وحدة الأسرة الأخمينية، وبناء نفوذها، بعدما سيطر على «ميدية» وتمكن بذلك من توحيد البلاد الإيرانية ليُأسس الإمبراطورية الأخمينية الكبرى، والتي امتد نفوذها للسيطرة

على أعظم عواصم الشرق، فكان أهم انتصاراته في عام ٥٣٨ ق.م، عندما أسقط حضارة إمبراطورية بلاد الرافدين في بابل - كما ذكرنا فيما سبق - فكان ذلك مؤشرا على تغير كبير في الخريطة الجديدة لقوات العالم القديم، لتظهر وقتها إمبراطورية جديدة في المشرق على أنقاض الإمبراطوريات والممالك القديمة، لتعلن سيطرتها على الشرق بأكمله. وبعد فتوحاته العظيمة سقط «قورش» في ميدان القتال بعد أن توغل في أعماق الشمال الشرقي لآسيا الوسطى، فمرت البلاد بمرحلة انتقالية حساسة ومضطربة. وبعدها انتقل الحكم لابنه «قمبيز الثاني»، والذي حاول استعادة مجد والده، وجمع الشتات، وحسن وضعية الجيش مجددا، فاستكمل فتوحات أبيه، واستطاع أن يقود حملة عنيفة على مصر في عام ٥٢٥ ق.م واحتلالها بالفعل، وكانت مدة حكمه ٤ سنوات فقط. ثم جاء «داريوس الأول» وركز على التوسع ناحية الشرق إلى حوض نهر السند، وغربا إلى ضفاف نهر الدانوب، وأخمد ثورات الأرستقراطيون والكهان المجوس في الداخل الأخميني. وكان من أهم سمات الفرس في حكمهم، فرض الضرائب القاسية على الدول المحتلة، كالذي فعله «قمبيز» بمصر، ما جعل حكمهم دائما ممتلئا بالثورات. وعندما جاء «داريوس» حمل نفس السمة القاسية، فبسبب فرض الضرائب والتدابير القاسية على السكان الإغريق المقيمين على الساحل الإيوني في غربي آسيا الصغرى، اندلعت ثورة كبيرة ما بين عامي ٤٩٩ -٤٩٣ ق.م، وكانت هذه الثورة هي الشرارة الأولى لبداية الصراع بين الفرس والإغريق، وبداية سلسلة الحروب التي وقعت بينهم، منها معركة «ماراثون» عام٤٩٠ ق.م، ثم معركة «سلاميس البحرية «عام٤٨٠ ق.م، وبعدها وقعت معركة «بلاتيا» في عام ٤٧٩ ق.م، وولد هذا الصراع تحالفا بين الهلينيين بزعامة أثينا - كما ذكرنا فيما سبق - ثم بعد ذلك ظهرت العقبات والأزمات الطاحنة في داخل الإمبراطورية الفارسية، فاندلعت الثورات في مصر (٤٨٦-٤٨٥ ق.م)، وفي بابل (٤٨٢-٤٧٩ ق.م)، وظهرت المؤامرات الداخلية، والاغتيالات السياسية، وشرع أمراء المقاطعات في الانفصال والاستقلال عن الإمبراطورية.

التوسع الأخميني

عندما اتسعت الإمبراطورية الفارسية الأخمينية، كان الفرس غير قادرين على إدارة هذه الأرض الواسعة إدارة مباشرة،

فعندما كانوا يسقطون الممالك يتركون على قيادتها الزعماء المحليين وامراء القبائل لادارة شئون البلاد، كالعرب وكأهالي البدو مثل السكيثيين - وهم قبائل مملكة سيكيثيا (سيثيا) صاحبة الاصول الايرانية والقاطنين في أوراسيا - وذللك لإدارة شؤون البلاد؛ فقط إذا ما ارتضت التبعية لملك الملوك الأخميني، وكانت تراقبهم مؤسسة محكمة وهي مؤسسة استخباراتية تسمى «عيون الملك وآذانه»، وكانت مهمتها المراقبة والتفتيش في الولايات وإطلاع الملك على أحوالها. وبسبب اتساع النطاق وضخامة الإمبراطورية شق الفرس الطرق وطُوروا البريد، وأُصلحوا الطرق القديمة المعروفة قبل قرون، وأبدوا اهتمامهم بالبحر والملاحة، ومن مشروعاتهم البحرية شق قناة تصل بين النيل والبحر الأحمر عند خليج السويس، وإنشاء طرق بحرية جديدة للاتصال بين مصب نهر السند في الهند ودلتا النيل في مصر، وأنشأوا لهذا السبب محطات على الساحل الإيراني وعلى السواحل العربية، لتزدهر الإمبراطورية بعد هذه الأعمال وتحصل على ثروات هائلة وأطنان من الفضة والذهب، فصنعوا دنانير ذهبية وعليها صورة رامي القوس المتوّج، وكانوا ينفقونها في تجنيد المقاتلين المرتزقة، وشراء ضمائر العملاء قبل تحريك الجيوش، وبحلول القرن الرابع قبل الميلادي، لجأت إمبراطورية الفرس إلى فرض تصنيع ما كانت تحتاج إليه من الفخار والزيت والخمور، على الولايات الغربية في آسيا الصغرى وسوريا ومصر، لكي يزدهر الاقتصاد أكثر فأكثر، ما زاد الأمر سخطا في تلك البلاد، فزادت الثورات والانتفاضات بشكل أكبر، كما وقع في مصر، والتي انتفضت واستردت استقلالها مرتين الأولى ما بين (٤٦٠ - ٤٥٦ ق.م) والثانية ما بين (٤٠٥ - ٣٤٣ ق.م)، أما التحالف الهيليني الإغريقي فلم يتوقف عن الانتفاض والمقاومة من أول يوم حتى آخر يوم.

أعظم ما تم في تاريخ هذه الإمبراطورية هو ما تم على يد «قورش الثاني»، ملك أنشان كبير الفرس، ملك الملوك، ولكن خلفاءه من ملوك الفرس الأخمينيين لم يكن باستطاعتهم أن يقبضوا بسهولة على زمام الأمور، في دولة امتدت على نحو خمسة ملايين كم٢، وظهر

إخفاقهم وعجزهم في صعوبة الاندماج سريعا في المجتمعات الشرقية التي اختلطوا بها، كما أنهم لم ينجحوا في تأسيس مجتمعات مدنية مميزة كما فعل الإغريق بعدهم عند نزولهم في بلاد الشرق، فما فعله الأخمينيون عسكريا كان رائعا جدا، فلقد ملكوا جهات العالم الأربع، أما ثقافيا واجتماعيا لم يُبدوا نجاحا ملحوظا، لكن الحلم العسكري كان طاغيا، فهذا الحلم كان يتطلع إليه قديما ملوك سومر وأكد وبابل وآشور، والآن أصبحت هذه النعمة العظيمة والسلطان العظيم على بلاد العالم في يد الفرس. ظل الغرب هو مصدر إزعاجهم الكبير، أما الشرق فقد ظهرت فيه تطورات روحية شغلت أهله وجعلته زاهدا في الحياة، كالتي ظهرت في تراتيل «إخناتون» بمصر، ونبوءة «نبو نيد» ببابل وديانة دويلة «يهودا»، إضافة إلى الديانة الإبراهيمية، وعلى هذا المنوال ظهرت تجربة روحية أخرى في إيران، ولكن تختلف عما سبق بشكل ما، فهي كانت تُظهر الطبيعة الأخلاقية للإله، وتجعله يتجاوز الحدود السياسية للدولة وكذلك الحدود الإثنية.

بداية الانحدار

بعد مرور الوقت زادت ثورات الغرب المتمثلة في دويلات البحر الأيوني والمدن الأيونية، فبدأ التدهور منذ نهاية حكم «حشويرش الأول» في عام ٤٦٥ ق.م، والذي اعتبر الأخمينين موته مأساة كبيرة في داخل القصر، وأصبح قتله يمثل لغزا كبيرا، وقال البعض أنه تم على يد إحدى حريمه، ثم خلفه ابنه «أرتا حشويرش الأول» الذي كان له يد في الجريمة بوساطة قائد حرسه الذي قُتل أيضا، وبدأ التدهور يتملك الإمبراطورية التي أصبح كل همها مقاومة الدول الصغيرة في العالم الهيليني الإغريقي، والتي أرادت أن تحذو خطى مصر في التمرد والاستفادة من الصراعات الداخلية في الإمبراطورية، فحاول الفرس أن يخمدوا ثوراتهم بنثر الأموال الطائلة لزرع الانشقاق بينهم، وإيقاف هجماتهم على الحدود الغربية للإمبراطورية، وقاموا بمصالحة بعض المدن على حساب مدن أخرى، وأُجبر هذا الملك على التخلي عن الساحل الغربي لآسيا الصغرى ومجموعة من الجزر، بشرط أن تتعهد أثينا بألا تمضي في مساعدة ثورة مصر، ثم جاءت الحروب «البلوبونيزية» التي تسببت في انقسام العالم الهيليني، فتنفس «أرتا» الصعداء، وشعر بالأمان قليلا بعدما نتج عن ذلك

استرداد مواقعه على الساحل الغربي الذي اندلعت فيه الثورة على الأثينيين. وعندما مات «أرتا حشويرش الأول» في عام ٤٢٤ ق.م، كان له ثمانية عشر ولدا، وورث إابنه «حشويرش الثاني» العرش لمدة خمسة وأربعين يوما فقط، وانتهت حياته مسموما على يد مغتصب مجهول لم يحتفظ بالعرش أكثر من ستة أشهر تالية، ثم قُتل هو الآخر على يد «داريوس الثاني» الذي تخلص من إخوته من أجل العرش، باستثناء أخته التي حكمت معه، فزاد الصراع والفساد في داخل القصر، وعندما مات «داريوس الثاني» انتقل الحكم لابنه «أرتا حشويرش الثاني» ضعيف الشخصية، الذي لا يملك إلا مؤهلات ضعيفة، وقد قابلته معوقات كبيرة، من أهما تآمر أخيه مع زوجة أبيه ضده، وإستطاعوا قتله في عام ٤٠١ ق.م في معركة قرب بابل، وضعفت الإمبراطورية أكثر فأكثر، ما شجع الإغريق وحلفاءهم على المضي في تحدي الفرس، فهاجمت إسبرطة ممتلكات فارس في آسيا الصغرى، ووجد الفرس صعوبات في إخماد الاضطرابات العنيفة في مصر وقبرص.

بداية النهاية

تذكر السجلات التاريخية مساوئ تلك الفترة المضنية، التي من أبرزها: أن «أرتا حشويرش» أنجب عددا كبير من الأبناء يُقدر بمائة وخمسة عشر ولدا من ثلاثمئة وستين جارية، فتصارع خلفاؤه على الحكم بشكل مميت، وقد حاول بعض أفراد أسرته اقتناص الحكم واختصار مدة ملكه، فحصلت اضطرابات انتهت بمقتل ابنه الأكبر ، ثم قام ولد آخر بقتل اثنين من إخوته لكي يتكمن من اعتلاء العرش، ولقب نفسه باسم «أرتا حشويرش الثالث» وسيطر على الكرسي، وامتلك الحكم في عام ٣٥٨ ق.م، ورغم شدته وقسوته، فإن حزمه الصارم نجح في جمع قوة المملكة التي تناثرت، فعاقب الأمراء والولاة الذين حاولوا أن يستقووا وشد عليهم، واستطاع أن يقمع الثورة التي قامت في مصر في عام ٣٤٣ ق.م، ثم نظر إلى الغرب العنيد الذي تطور وقتها وظهرت مقدونيا فيه كقوة قائدة جديدة، بقيادة الملك «فليب الثاني»، فبدأ في ابتداع بعض الحيل من أهمها مساعدة خصوم الملك المقدوني هناك لكي يُضعف جبهته، ولكن قُتل هذا الملك بالسم على يد أحد رجال القصر واسمه «باجواس»، ثم تولى بعده «أوراسيس» لمدة عامين، ولكن قتله نفس الرجل

«باجواس» بنفس نوع السم أيضا. كان غرض سفاح القصر «باجواس» من قتلهم هو تمهيد الطريق للوجه الجديد «داريوس الثالث (دارا)»، وهو من أحفاد «داريوس الثاني»، لكي يرث العرش، وبالفعل ورثه في عام ٣٣٦ ق.م، وأجبر الملك الجديد بعد ذلك الأجير «باجواس» الذي أوصله للحكم على تجرع نفس السم الذي قتل به الملكين السابقين، وقضى عليه.

وفي نفس العام قرر الملك فيليب الثاني المقدوني أن يُرسل جيشا لتخليص آسيا الصغرى، ولكن انتهت التقدمات باغتياله، فورث الإسكندر عرش أبيه القتيل، لتبدأ أحداث درامية جديدة، فقد أعاد الإسكندر توازن الجيش المقدوني، وجعله جيشا قوميا لكل المدن اليونانية الموحدة، وصنع إستراتيجيات حربية جديدة، وزاد سقف الطموح المقدوني، فبدلا من أن يكونوا مجرد مدافعين منادين بالتحرر من الغزو، احتدت شوكتهم وشرعوا في تكوين إمبراطوريتهم، وفاجأ هذا الملك الشاب الطموح الجميع برغبته في إيقاع هزيمة حاسمة بالإمبراطورية الفارسية، وبالفعل واجههم في مواقع عديدة، ذاق الفرس فيها الهزيمة، كالتي وقعت في «كيليكية» وفي «أربيل»، وفي بلاد «آشور»، وفي خليج «الإسكندرونة» عند أبواب سوريا، وتقدمت انتصارات الإسكندر وتوسعت بشكل سريع ورهيب، فاستطاع هذا الملك أن يدخل «بابل» و«سوسة» و«برسبوليس»، مرورا بتلك الرحلة الكبيرة، ووصولا لهذه المعركة الحاسمة والنهائية، التي بلغت أشدها الآن.

القتالُ مشتد، والدماء في كل مكان، وموقف الإسكندر المقدوني ورجاله أصبح ضعيفا، ولكن تغيرت الأقدار في لحظة، بعدما أخفق «داريوس» وتصرف تصرفا ساذجا، فبدلا من أن يعزز «داريوس» قوات ميمنته المتقدمة نحو الانتصار، أمر بسحب بعض القوى لحمايته، وفي انحراف تام عن اتباع أوامره وأوامر قيادته، تقدم فرسان ميمنة الفرس إلى مراكز التموين المقدونية في الخلف وسلبوها بدلا من أن يطوقوا فرسان ميسرة الإسكندر، ولكنهم في أثناء عودتهم اصطدموا بالإسكندر نفسه هو وحراسه وجها لوجه، والذي قدِم من أجل نجدة قوات ميسرته، فوقعت مواجهة عنيفة جدا بين الفريقين، وفقدوا فيها الكثير من مهرة قواتهم، فمالت الكفة بعض الشيء ناحية المقدونيين، واهتزت ثقة الفرس

في أنفسهم، فشعر الملك «داريوس» ببوادر الهزيمة، فترك أرض المعركة وهرب، ففرت وراءه العديد من قواته، فلحق بهم الإسكندر وبدأ في مطاردتهم طوال الليل، ثم فر «داريوس» إلى «أربيل» ومنها الى داخل البلاد الفارسية.

بعد ذلك بدأ «داريوس» في تجميع جيشه مجددا لمتابعة القتال، ثم انتقل شرقا إلى «هركانية»، فخرج عليه أحد رجاله وهو أحد الولاة المحليين وقتله، أملا في الحصول على مكافأة الإسكندر التي وعده بها، وهكذا انهارت الإمبراطورية الشرقية الشاملة، في أهم معارك التاريخ الفاصلة، والتي غيرت تاريخ المنطقة والعالم في ذلك الوقت، وبعدها احتل الإسكندر بابل من دون معركة، وتابع سيره الى عاصمة الفرس في «برسيبولس» حيث أحرق قصر الملك وألقى القبض على أفراد عائلته الذين أخذوا كسبايا، ولكن عاملهم الإسكندر معاملة الملوك، وكان لـ«داريوس الثالث» اثنتا عشر بنت، تزوج الإسكندر من الكبرى، وهكذا انتهت واحدة من أعظم إمبراطوريات العالم القديم.

محاولات التعافي مجددا

حاول الفرس التعافي ولم شتات قوتهم المندثرة بعد أقل من قرن من الزمان، وشرعوا في تأسيس إمبراطورية فارسية جديدة، وهي الإمبراطورية «الفرثية» والتي قامت منذ عام ٢٤٧ ق.م، حتى عام ٢٢٤ ميلادية، والمعروفة أيضا باسم الإمبراطورية «الأرسكيدية» أو سلالة «الأشكانيين»، ولكنهم عجزوا عن الوصول لمجد من سبقهم، بل كانوا أقل بكثير، فكانوا مجرد قوة سياسية وثقافية إيرانية كبرى في إيران القديمة، والتي أسسها «أرساكيس الأول» من مقاطعة «بارثيا»، قائد قبيلة «بارني»، والذي أنشأها بعد ما غزا منطقة بارثيا في شمال شرق إيران، محاولا التمرد على حكم الإمبراطورية السلوقية، ولكن لم يستطيعوا استعادة هيبة الفارسيين. مر بعد ذلك أكثر من أربعة قرون، لتظهر الإمبراطورية الساسانية في بداية القرن السابع الميلادي، والتي علا نجمها بعدما أخضعت الترك في بلاد ما وراء النهر، والعرب في العراق، واستطاعت تلك القوة الصاعدة استعادة القليل من مجد الأجداد، فتعمقت ناحية الغرب عام ٦١٤ ميلادية، واجتاحت بلاد الشام،

واستولت على بيت المقدس، وبعدها استطاعت أن تستولى على مصر سنة ٦١٦م، في تهديد كبير لقوة الروم.

لم يستسلم «هرقل» إمبراطور الروم لتلك القوة المنازعة، فأعد جيوشه وهزم الفرس في آسيا الصغرى في عام ٦٢٢ ميلادية، واستطاع بعدها بثلاث سنوات أن يسترد سوريا ومصر في عام ٦٢٥ ميلادية، ثم اشتبك مع الفرس قرب نينوى وهزمهم عام ٦٢٧ ميلادية، ما أدى إلى نشوب ثورة في العاصمة الفارسية الساسانية ضد الملك «كسرى الثاني»، والذي اضطر لعقد اتفاقية صلح مع الروم، أبرمها خليفته» شيرويه» مع هرقل.

لم تستطع تلك القوة الساسانية الجبارة استعادة قوة أسلافهم الأخمينين كاملة، فأحوالهم لم تكن مستقرة طوال الوقت، فكثُرت الثورات والانقلابات الداخلية، وعليك أن تتخيل أنه في التسع سنوات التي تلت هذه الحقبة، تعاقب على عرش الإمبراطورية أربعة عشر حاكما! فتمزقت الأوصال، وجاءت نهايتها على يد الفرسان المسلمين، الذين أنهكوها في معارك عديدة كانت متميزة عسكريا، قاتل فيها المسلمون ببسالة وقيادة رائعة، كان قتالا من أجل إسقاط الوثنية ونشر الدين الإسلامي، ولعل من أشهر هذه المعارك: معركة ذات السلاسل - معركة المذار- معركة القادسية - معركة الولجة - معركة أليس – معركة فتح الحيرة - معركة فتح الأنبار - معركة عين التمر - معركة دومة الجندل - معركة الحصيد، وعدد من المعارك الأخرى، والتي كان النصر فيها حليف المسلمين، الذين قضوا بشراسة على الحضارة الساسانية، ونشروا السلام فيها، وأبطلوا العبادة المجوسية.

* * *

الباب الثامن

الحضارة الإسلامية

هي تلك الحضارة الطويلة التي سيطرت على معظم العصور الوسطى، ووصلت لأقصى اتساعا عندما امتدت من حدود الصين في شرق آسيا، إلى غرب آسيا وشمال أفريقيا وصولا إلى الأندلس، وهي التي بدأت منذ بداية الدعوة الإسلامية بعد نزول الوحي في شبه الجزيرة العربية على رسول الله «محمد بن عبد الله» - صلى الله عليه وسلم - بمكة، ثم تأسيس الدولة الإسلامية بـ«المدينة المنورة» مرورا بالدويلات الإسلامية العديدة، ثم إلى نهاية الخلافة العثمانية.

المكان: الآستانة عاصمة الخلافة العثمانية – إسلام بول (إسطنبول).

الزمان: ٣ مارس ١٩٢٤م.

الحدث: اجتماع طارئ في جمعية الاتحاد والترقي، التي تولت السلطة بشكل منازع لحكم السلطان العثماني «عبد الحميد الثاني» في عام ١٩٠٩م بدعم واضح من المحفل الأوروبي، والآن وبعد خمسة عشر عاما، استمروا في خططهم دون رجوع. لقد حضر الآن جميع أعضاء الاتحاد، في انتظار قائدهم «مصطفى كمال أتاتورك»، والذي علا نجمه في الأعوام السابقة، بعدما دُعم من القوة الغربية ولا سيما الإنجليز، من أجل إسقاط الخلافة العثمانية، وبناء مجتمع تركي جديد مستقل ومنفتح.

الجميع في انتظار القائد، والذي وقّع العام الماضي على معاهدة مصيرية في تاريخ إسطنبول، إنها معاهدة «لوزان» التي فُرضت في عام ١٩٢٣م، أي قبل هذا الاجتماع بشهور، والتي نصت على إلغاء الخلافة الإسلامية إلغاء تاما، وقطع صلة تركيا بالحكم الإسلامي، وطرد السلطان ورجاله من البلاد ومصادرة أموالهم وممتلكاتهم، واستخدام دستور مدني جديد للبلاد، ومعاهدة «لوزان» لم تكن إلا تحصيل حاصل لمعاهدة سابقة هي الأسوأ

والألعن في تلك الفترة التي اتسمت بكثرة المعاهدات، والتي كان مفادها تفكيك الدولة العثمانية، إنها معاهدة «سيفر»، والتي تمت في يوم ١٠ أغسطس ١٩٢٠م، وهي واحدة من سلسلة معاهدات وقعتها دول «المركز»، والتي كانت الدولة العثمانية من بينها، عقب هزيمتها في الحرب العالمية الأولى. العثمانيون كانوا هم أشد الخاسرين في هذه المعاهدة، وكانت المسمار الأخير في نعش دولتهم وخلافتهم وانهيارها بسبب شروطها القاسية، حيث تضمنت تلك المعاهدة التخلي عن جميع الأراضي العثمانية بكافة ربوعها التي يقطنها غير الأتراك، إضافة إلى استيلاء الحلفاء المنتصرين في الحرب على أراض تركية بالفعل، وبسببها تم تقسيم بلدان شرق البحر المتوسط، وظهر ما يعرف بـ«الانتداب»، فوقعت فلسطين تحت رحمة الانتداب البريطاني، والذي جاهد مرارا وتكرارا في إنشاء دولة إسرائيل، وتبنيه رغبة اليهود في احتلال فلسطين من خلال «وعد بلفور»، وأماكن عربية أخرى وقعت تحت الانتداب الفرنسي.

انتفض الشارع القومي في تركيا وقتها، معترضا على تلك المعاهدة وخسارة النفوذ العثماني، فجاء دور البرلمان الذي يقوده مصطفى كمال أتاتورك والذي كان متشكلا على كل لون، مستخدما أي إخفاق سلطاني لصالح أهدافه، فجرد موقعي المعاهدة من جنسيتهم في العلن، ثم انطلقت ما تُسمى حرب الاستقلال التركية، التي أفرزت «معاهدة لوزان»، والتي وافق عليها القوميون الأتراك، كان رجل الجيش مصطفى أتاتورك طموحا، فساقته طموحاته للاستفادة من ضعف النظام العثماني القديم والمتهالك، وأشاع عنه أنه لا يلبي متطلبات الدولة الحديثة، وبشكل مجتهد استثمر عوامل دولية كرغبة الغرب في القضاء على الخلافة العثمانية، وأخرى محلية كالأصوات المعارضة في الداخل، وأهمها على المستوى المحلي استقالة رئيس الوزراء وحل الجمعية الوطنية بسبب الخلاف حول مؤتمر لوزان، ليوظف أتاتورك الظرف لصالح مشروعه بعزل السلطان، وتحويل تركيا إلى دولة جمهورية علمانية، والذي لم يبدأ الآن بل بدأ قبل سنوات عديدة.

وهذا ما حدث في الماضي القريب بالتفصيل بشكل ملخص: كانت قد بدأت الدولة العثمانية بشكل فعلي في الاحتضار، في الوقت الذي تصاعدت فيه الحملات المعارضة

لحكم السلطان عبد الحميد قبل سنوات، حينما اتحدت المعارضة ضده، بقيادة «جمعية الاتحاد والترقي»، و«تركيا الفتاة»، وانقسم الشارع التركي لقسمين، بعدما ظهرت قوى أخرى إسلامية مؤيدة للسلطان بشكل غير سلمي، يُقال أنها مدسوسة، ومع صعود وتيرة الاضطراب بدأت الدولة تنحدر، وتفقد بعض ممتلكاتها الأوروبية، فضاقت السبل بالسلطان عبد الحميد، والذي نادى وقتها بالاتحاد تحت لواء الإسلام، بما عرف بالجامعة الإسلامية، ولكن جاء رد المعارضة بشكل سريع، عندما دعمت تمرد قوات من الجيش، وظهرت الانشقاقات الخطيرة، فانتهى الأمر بإعلان الدستور، ثم عُزل السلطان عبد الحميد وتولى من بعده أخيه «محمد الخامس» الحكم بشكل صوري ومهين. بعد ذلك دخلت الدولة العثمانية الحرب العالمية الأولى بجانب دول «المركز»، الذين تلقوا خسارة فادحة، وخسرت الدولة العثمانية معظم أراضيها خارج الحدود التركية الحالية، فالدولة العثمانية المحتضرة دخلت قواتها المتهالكة في معارك على عدة جبهات، دون وجود الاستعداد الكامل من حيث التسليح أو التدريب أو حتى الإمدادات، فتلقوا الهزائم العديدة، فعلى الجبهة الشرقية كانوا قد خسروا من الروس، وفي الجبهة الجنوبية انهزموا أمام البريطانيين الذين استطاعوا احتلال الولايات الشرقية، وفرض النفوذ عليها، كالذي تم ما بين نهري دجلة والفرات.

لم ينجح العثمانيون نجاحا كبيرا في هذه الفترة إلا في حربهم مع اليونان، ودفاعهم عن مضيق «الدردنيل» بقيادة مصطفى كمال أتاتورك، الذي ذاع صيته بسبب تلك المعركة، في تمثيلية سخيفة، نفذتها بريطانيا من أجل بناء شعبية جماهيرية لرجلها أتاتورك، فبتعمد واضح رفعت بريطانيا دعمها عن اليونان في حربها مع العثمانيين والفيلق الذي يقوده أتاتورك، لتضمن لأتاتورك الانتصار في معركة سهلة، لا تصيب الإنجليز ولا تقدم لهم أي خسارة، لتمرر البطولة لأتاتورك، والذي قادته بطولته هذه لحكم الشارع القومي في تركيا، وحصوله على لقب «الغازي».

وفي غضون الحرب العالمية الأولى تبعثرت الأمور في الداخل العثماني بسبب الخسائر المتتالية في الحرب وبسبب وقوع «الثورة العربية الكبرى»، وهي ثورة مسلحة ضد الدولة العثمانية، كان الغرض منها الاستقلال عن الحكم العثماني، والتي بدأت في الحجاز، حينما

أطلق «الشريف حسين» أول طلقة من بندقيته كبدء ساعة صفر، وذلك في فجر يوم ٩ شعبان ١٣٣٤هـ - ١٠ يونيو ١٩١٦ في «مكة المكرمة»، ثم انضم إليها «جدة» و«الطائف» و«المدينة» وامتدت إلى سوريا والعراق، وذلك نتيجة للسياسة العثمانية خلال الحرب العالمية الأولى، والتي تمثلت في التجنيد الإجباري حتى يُغطي تعداد الجيش، وفي الاضطرابات الداخلية العديدة التي وقعت بسبب قرار خوض الحرب، منها الأزمة الاقتصادية. كان الثائرون يأملون في التحرر والاستقلال بعدما تفاءلوا بمساعدة الغرب المتقدم لهم، بعدما وصلهم تلميحات عديدة بذلك، ولكن الغرب لا يساعد إلا مصالحه، فلماذا يساعدهم وهو قادر على غزوهم أو ما أسماه بالوصاية والانتداب؟!

انتهت الحرب العالمية بتوابعها، وخسرت الدولة العثمانية من كل الاتجاهات، وكان قد توفي السلطان «محمد الخامس» قبلها بعدة أشهر، وتولى الحكم من بعد أخوه «محمد السادس»، وبعد الحرب وقّعت الدولة العثمانية على سلسلة من المعاهدات والاتفاقيات، فوقّعت على هدنة «مودروس» في ٣٠ أكتوبر عام ١٩١٨م، والتي أنهت العمليات القتالية الواقعة في الشرق الأوسط، بين الدولة العثمانية والحلفاء خلال الحرب العالمية الأولى، وقد وقعها وزير الشؤون البحرية العثماني «رؤوف أورباي بك» مع الأميرال البريطاني «سومرست آرثر غوف»، على متن السفينة «إتش إم إس أجاممنون» في ميناء «مودروس» في جزيرة «ليمنوس» اليونانية، وتسببت هذه الهدنة في احتلال أغلب الأراضي التركية من قبل الحلفاء، وتقسيم الإمبراطورية العثمانية فيما بعد. لم يهدأ الشارع التركي طيلة هذه الأعوام، ورفض الأتراك في الداخل الخضوع لتلك الشروط المهينة، وقامت العديد من التظاهرات في الشوارع، استغلها «مصطفى كامل أتاتورك» وتزعمها كالمعتاد، فعُرفت باسم «الحركة الكمالية»، نشطت هذه الحركة وتمكنت من تشكيل حكومة وطنية برئاسة «أتاتورك»، كانت تهدف إلى إقامة دولة تركية مستقلة وإسقاط الخلافة العثمانية، وحاول السلطان «محمد السادس» القضاء على هذه الحركة وصدها مرارا وتكرارا، لكن محاولاته باءت بالفشل، وتنازل عن العرش لأخيه «عبد المجيد الثاني»، والذي جُرد من السلطة وظل الحاكم رسميا حتى هذه اللحظة.

الجميع يرتقب الآن، فلقد حضر الآن مصطفى أتاتورك، واستقبله الجميع استقبالا حافلا، وبدأ الاجتماع المغلق، وبدأ أعضاء جمعية «الاتحاد والترقي» في التشاور، تلك الجمعية التي تأسست في عام ١٨٨٩م، في الذكرى المائة للثورة الفرنسية، وشُكلت هذه الجمعية بشكل سري، على أيدي طلاب المدرسة الحربية والمدرسة الطبية العسكرية، كان هدفها الأوحد هو عزل السلطان عبد الحميد الثاني، وبناء دولة ذات طراز حديث، وإعادة الحياة الدستورية للدولة، ثم اكتشفت السلطات العثمانية هذه الجمعية بعد تأسيسها بثمانية أعوام، فهرب الكثير من أعضائها إلى باريس، فحاول السلطان عبد الحميد احتواءهم، مقدما لهم يده للرجوع، وفوض مدير الأمن العام الفريق الأول «أحمد جلال الدين باشا» في محاولة إقناعهم والتفاوض معهم، فأقنع الكثير منهم، ومنحهم «عبدالحميد» مناصب كبيرة في الدولة، ولكنهم كانوا بمثابة فئران تنقر في قاع السفينة، فبهذا الشكل وافق السلطان عبد الحميد على اختراق سلطته وحكمه من الداخل، وبالفعل استمر العمل داخل الجمعية بشكل سري لا يتوقف، حتى جاءت «واقعة ٣١ مارت» والتي حدثت في ٣١ مارس، والتي تسببت في نهاية حكمه خاصة، وبداية نهاية الدولة العثمانية عامة.

وأجمعت المصادر التاريخية أن أحداث ٣١ مارس كانت مدبرة بالكامل، وأن أهدافها محددة من قبل «الاتحاديين»، فلقد خرجت قوة مجهولة تدافع عن الشريعة، وعن هيبة الإسلام، وأطلقت شعارات قومية لدعم فكرتهم، حيث كان من شعاراتهم «الشريعة تنتهك»، «أنقذوا الإسلام»، ليتجاوب معهم كافة جموع الشعب، فخرجت مجموعات في الشارع بشكل فوضوي غير سلمي، وندد «الاتحاديون» بتلك الفوضى، وقالوا إن من أشعلها هم رجال من أتباع السلطان، جاءوا لنصرة موقفه الضعيف، لنشر الفساد وتخويف الشعب، وبالفعل ظهرت الفوضى في البلاد، وانتشرت الجريمة في ظل هذا التسيب، فتمنى الشعب بعدها الاستقرار، وقلق الشعب بسبب زيادة الجرائم، وأعلنوا رفضهم ظهور أي مجموعات تفرض عليهم حكم السلطان عبد الحميد بالقوة، وانتقدوا دخول الجيش في السياسة، وأعلنوا عن قلقهم إثر الاضطرابات والانشقاقات التي نالت من الجيش. انتهت تلك الحادثة الفوضوية باتهام السلطان عبد الحميد بالعديد من التهم، منها اتهامه بأنه هو مدبر حادثة «٣١ مارت»،

وأنه هو من حرض المسلمين على قتال بعضهم البعض، إضافة إلى قذفه بتهمة حرق المصاحف، وكان كل هذا كفيلا لخلع السلطان عبد الحميد ونفيه في محاكمة صورية. قام على إثرها بالتنازل عن العرش لأخيه محمد رشاد في يوم ٢٧ أبريل ١٩٠٩م، ثم تم ترحيله مع أشخاص من حاشيته تجاوزوا ٣٨ شخصا، إلى منفاه في «سلانيك» بعدما تم التحفظ على كل ممتلكاته وأمواله. استمرت الأحداث تحتد منذ تولي «محمد رشاد» ومن بعده «محمد السادس» حتى هذه الفترة التي يحكمها «عبد المجيد الثاني» منزوع الصلاحيات، الحاكم بشكل صوري، وكأنه شبيها «بشيخ الإسلام» أو كبير المسلمين، وهو وضع مهين جدا لآخر خليفة من خلفاء الحضارة الإسلامية الممتدة لطيلة ألف عام، والتي بدأت منذ أن نزل الوحي على «محمد» صلى الله عليه وسلم، في قريش العربية، وظهور الدستور الإلهي الجديد (القرآن الكريم)، لتنشأ حضارة من أعظم حضارات العالم. وتلك الحضارة لم

صورة من أحداث ٣١ مارت

يكن لها مقدمات قبل ظهور الإسلام على الإطلاق، فقلد انطلقت من خلال تشريعات القرآن الكريم، فظهرت الحضارة منذ ظهور جماعة المهاجرين، والتي واجهت الاضطهاد المكي، ثم هاجرت وتطورت وأنشأت أول ظهور مدني لها في المدينة المنورة.

وبظهور الإسلام ظهرت ثورة اجتماعية وحضارية منحت العرب دولة وحضارة ضخمة، فبعثة نبي الله «محمد بن عبد الله» - صلى الله عليه وسلم - كانت من أهم النقاط التاريخية على وجه البسيطة، وهي النقطة التي أحدثت انقلابا في تاريخ المنطقة والعالم

كله، فالدولة المدنية الحديثة التي قامت بالمدينة المنورة، كان لها تشريع يحكم الجميع، ومن أهم ما يميزها أنها عرفت واعترفت بالوثائق والمعاهدات، كالتي حدثت مع يهود يثرب جيرانهم في تلك المدينة.

عاشت هذه المدينة الحديثة على أسس ونظم مثالية، جعلتها تتمكن من هزيمة أعداءها في معارك كثيرة جدا، رغم قلة العدد والعتاد، ثم بعد ذلك فتحوا «مكة» وشرعوا في تأسيس دولتهم بعدما أعلنوا التوحيد. وبوفاة مؤسس تلك الحضارة وهو سيد الخلق «محمد» - صلى الله عليه وسلم - لم تتوقف عن تقدمها، بل اتسعت وتطورت، تنفيذا للأسس والقواعد والوصايا التي تركها مؤسس تلك الحضارة العظيمة، فظهر من بعده ما يسمى بـ«الخلافة الإسلامية».

خلافة أبو بكر الصديق

تولى أبو بكر - رضي الله عنه - الخلافة في مرحلة حساسة، بعد ما بايعه قادة المهاجرين والأنصار، في سقيفة «بني ساعدة»، ثم قابلته الكثير من المخاطر، فبعد موت النبي - صلى الله عليه وسلم - تجرأ الكثير من القبائل العربية التي كانت قد أعلنت ولاءها للإسلام، وأقدموا على إعلان العصيان العام واستقلالهم، وأعلن بعضهم الارتداد عن الإسلام، ناهيك عن ظهور العديد من مدعي النبوة في أماكن متعددة. لم يتردد أبو بكر في شن مجموعة حملات عسكرية على تلك القبائل المرتدة، والتي عُرفت بـ«حروب الردة» الشهيرة، والتي خرجت في نفس الوقت مع خروج جيش» أسامة بن زيد» المتوجه لمحاربة الروم تنفيذا لوصية الرسول، في تحد تام من قيادة حازمة غير متراجعة عن نشر وحدة الدولة ومحاربة تفككها، فكانت الدولة تحارب في جبهتين – جبهة الروم «بقيادة أسامة بن زيد» – وجبهة المرتدين التي انقسمت لجبهتين – جبهة بقيادة «عكرمة بن أبي جهل»، لمحاربة «لقيط بن مالك» في «دبا» والذي قُتل في المعركة - والأخرى بقيادة «خالد بن الوليد» التي زحفت لمعركة «اليمامة» لمحاربة «مسيلمة بن حبيب الحنفي الكذاب» والانتصار عليه. ثم توسعت

الحملات العسكرية للدولة الإسلامية، وبدأت الفتوحات في عهد أبى بكر، والذي قام بإرسال خالد بن الوليد ومهمته فتح العراق، ثم تنظيم أربعة جيوش ومهمتهم فتح بلاد الشام:

- الجيش الأول بقيادة «يزيد بن أبي سفيان».

- والجيش الثاني بقيادة «شرحبيل بن حسنة».

- والجيش الثالث بقيادة «أبو عبيدة بن الجراح».

- والجيش الرابع بقيادة «عمرو بن العاص».

وبعد تحقيق الانتصارات، توحدت هذه الجيوش في جيش تحت قيادة خالد بن الوليد، الذي حقق عدة انتصارات منها خمسة في شهر واحد، ثم بعد ذلك انقسم الجيش لفرقتين، الفريق الأول - ذهب لمقابلة الروم في فلسطين بقيادة خالد، وانتصر عليهم في «أجنادين»، والفريق الآخر- ظل مكانه بقيادة «المثنى بن حارثة». وتوسعت الفتوحات بشكل كبير، واستعد الروم مرة أخرى لمقابلة المسلمين في معركة «اليرموك» الشهيرة، والتي انتصر فيها المسلمين انتصارا كبيرا، وخليفة المسلمين أبو بكر كان قد توفي عند بدء هذه المعركة ولم يعلم من المنتصر، وكان هذا في عام ٦٣٤ م، الموافق يوم الاثنين ٢٢ جمادى الآخر عام ١٣ هـ، بعدما تمكن منه مرض الحمى، لتنتهي خلافته التي استمرت سنتين وثلاثة أشهر وثمانية أيام فقط، لكنها كانت أيام عظيمة شهدت انتصارات وفتوحات عديدة، وإخمادا لثورة المرتدين، والحفاظ على وحدة الدولة، ليستلم الخلافة بعده «عمر بن الخطاب» - رضي الله عنه.

خلافة عمر بن الخطاب

استلم عمر الخلافة، لتشهد الدولة الإسلامية تقدمات عسكرية، نجم عنها العديد من الفتوحات الإسلامية، ففي عهده استطاع المسلمون فتح بلاد شرقية ضخمة وعنيدة يحكمها إمبراطوريات جبارة، كبلاد الرافدين والشام ومصر، واستطاع جيش عمر القضاء

على الوجود البيزنطي والساساني هناك، وفي عهده تحولت الدولة الإسلامية إلى إمبراطورية أطرافها ممتدة، يخضع لها الكثير من الأراضي والأقوام، وانتعش الاقتصاد وزاد نفوذ الدولة في حكمه، ففتح بلاد الفرس المستعصية لم يكن سهلا، حيث كان في قوات المسلمين هناك خلل واضح، فكما ذكرنا أن الخليفة السابق أبو بكر أمر بانتقال خالد بن الوليد مع نصف الجيش في بلاد فارس والعراق، إلى بلاد الشام لمساعدة الجيوش التي هناك، وبقى النصف الآخر في فارس بقيادة «المثنى بن حارثة»، والذي أصبح في موقف ضعف، بعدما علمت الجيوش الفارسية بقلة قواته، وقامت بالهجوم على جيشه فاضطر للتراجع، ولكن الخليفة عمر كان قد علم بتلك الثغرة، وأرسل الإمدادات إلى «المثنى بن حارثة»، والذي تمكن من إسقاط المدائن عاصمة الإمبراطورية الساسانية الحاكمة لبلاد فارس، ومع توالي الانتصارات، جاءت معركة «نهاوند» الشهيرة، والتي سميت بمعركة «فتح الفتوح» لأنها فتحت الطريق أمام المسلمين، للقضاء على دولة الساسانيين في فارس واغتنام كنوز كسرى، ثم فتحهم لباقي المدن الفارسية بمعارك سهلة.

بعد ذلك قام عمر بعزل «خالد بن الوليد» وإقالته خوفا من أن يُفتن به الناس، ثم فتح المسلمون في عهد عمر بلاد الشام، بقيادة «أبو عبيدة بن الجراح»، بعدما غادر هرقل «بيت المقدس» بعد انتصار المسلمين في اليرموك، متجها إلى حمص، عاقدا النية في جعلها عاصمة لجيشه، وهذا ما كان قد أشار به عمر، حيث قال لعبيدة ركز على دمشق فهي ستكون حصن الروم، وبالفعل أعد المسلمون عدتهم وانتصروا هناك. وفتح المسلمون القدس بعد ذلك، بعدما كتب عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص طالبا منه الزحف إلى القدس بعد فتح الشام، فزحف عمرو بجيشه ناحية «الرملة»، ثم كتب لعمر بن الخطاب يخبره بأنه وجد عندها جندا عظيما، وعلى رأسهم قائدا داهية اسمه «أرطبون»، فرد عليه عمر قائلا: «رمينا أرطبون الروم بأرطبون العرب»، أي رمينا داهية الروم بداهية العرب، واشتبك الفريقان، ثم جاء المدد من جيوش «أبو عبيدة بن الجراح» والذي حاصر بيت المقدس، وضغط على الروم حتى قبلوا الصلح بعد هروب أرطبون لمصر، وكان شرطهم للمصالحة، أن يحضر خليفة المسلمين عمر بن الخطاب بنفسه لكي يتسلم المدينة، فأرسل

عمرو لعمر كي يخبره، فلم يتردد عمر وجاء وحضر، وتسلم الحكم في بيت المقدس، بعدما أعطى المسيحيين هناك الأمان، وكتب بنفسه كتاب الأمان المشهور باسم» العهدة العمرية».

ثم بعد ذلك قام المسلمون في عهده بفتح مصر، والتي رفضت الدخول في الإسلام سابقا حينما جاءتها رسالة على يد «حاطب بن أبي بلتعة» من رسول الله إلى عظيم مصر «المقوقس». والآن أصبح فتحها وشيكا بعدما هرب إليها فلول الروم وتحصنوا بها، وعرض عمرو بن العاص على الخليفة عمر فكرة فتحها، وبعدما رفض عمر ذلك نظرا للخوف من التعمق في أدغال أفريقيا، قبل عمر الفكرة فيما بعد، وأرسل عمرو على رأس جيش مكون من ٨ آلاف مقاتل إلى مصر عام ٦٤١م، الموافق سنة ٢١هـ، فسلك نفس طريق الذي سلكه قمبيز الفارسي والإسكندر المقدوني من قبل، فبدأ بالعريش ثم الفرما (بورسعيد حاليا) ثم استطاع تدمير حصن بابليون الرومي العنيف، ثم وصل الإسكندرية، لتخضع كل مصر للحكم الإسلامي، وأصبح عمرو أول الولاة عليها.

وبعدما زادت الفتوحات في عهد عمر، عين واليا لكل ولاية ينوبه في إدارة شئون الحكم في الولاية، وفي عهده قام المسلمين بترتيب البريد، وعرفوا التقويم، واتخذوا من الهجرة بداية للتقويم الهجري، وعزز عمر عمل القضاء، وفصل السلطة القضائية عن سلطة الحكام، وأنشأ ديوان المحاسبة، فكان عمر لا يصدر قرارا خاص بمعاقبة أحد من ولاته أو عماله أو أحد الرعية إلا بعد تحقيق شامل ووافٍ، لذلك اشتهر حكمه بالعدل ولقب بـ«الفاروق»، وبعدما حكم عمر عشر سنين ونصف وتسعة عشر يوما، جاءت نهايته على يد «أبو لؤلؤة المجوسي» نتيجة غيظه الشديد من سقوط الإمبراطورية الفارسية الساسانية، والذي اغتاله في المسجد، ليتولى من بعده عثمان بن عفان - رضي الله عنه.

خلافة عثمان بن عفان

حكم عثمان اثنتي عشرة سنة، وتعتبر السنوات الست الأولى من حكمه متقدمة ومزدهرة، ففيها اتسعت الفتوحات، ووصل المسلمون إلى تركيا وقبرص وأرمينيا وبلاد السند وكابل وفرغانة. وروضت وأدبت دولتهم المنشقين الذين خالفوا العهد في بلاد فارس وخراسان،

وأنشأوا أول أسطول بحري إسلامي على الإطلاق، وكان الغرض منه حماية الشواطئ الإسلامية من هجمات البيزنطيين، وأيضا من أهم إنجازات حكم عثمان، جمع القرآن الكريم في مصحف مكتوب برسمه إلى الوقت الحالي. أما الست السنوات التالية في حكمه، ظهرت فيها الفتن والاضطرابات في الولايات الخاضعة للدولة الإسلامية، ولعل من أشهرها فتنة اليهودي «عبد الله بن سبأ»، الذي أظهر الإسلام ولكن طعن فيه، واتهم عثمان بحرق المصاحف وتعيين المقربين إليه كولاة فقط، كثر أتباع هذا اليهودي من الحاقدين على الدولة الإسلامية، وتجمعوا واقتحموا بيت عثمان وهو جالس يقرأ «سورة التوبة»، فانتبهت زوجته «نائلة» وهبت لتحميه بنفسها، فضربوا يدها بالسيف فقُطعت كل أصابعها، فضربوا عثمان بالسيوف، فسال دمه على المصحف الذي كان يقرأ منه ليقع شهيدا، ليشهد موته بداية حقبة عصيبة في تاريخ الدولة الإسلامية، اتسمت بالحروب والفتن. مات عثمان ليتولى بعده علي بن أبي طالب - رضي الله عنه.

خلافة علي بن أبي طالب

تسلم علي بن أبي طالب الخلافة في اليوم التالي، في وقت عصيب جدا، وانتقل إلى الكوفة وجعلها مقرا لخلافته، وتوقفت الفتوحات في عهده، بل اتسمت هذه الفترة بالانشقاق والصراع والفتن، بدأت من قبل مقتل عثمان بست سنوات، واستمرت حتى تمكنت منه، ثم اشتدت في عهد علي، واحتدت عند قرار أخذ القصاص من قتلة عثمان، فانشق فريق المسلمين، وظهر الانقسام، وكان أوله «موقعة الجمل» في شهر جمادى الآخر سنة ٣٦ هـ، ثم «معركة صفين» في محرم سنة ٣٧ هـ، ثم ظهور الخوارج وعلوّ ذراعهم، والذي تمكن من قتل الإمام علي نفسه في ١٦ رمضان سنة ٤٠ هـ، بعدما تربص له اثنان من الخوارج عند خروجه كعادته ليوقظ الناس قبل صلاة الفجر، ثم قتلوه على عتبة محراب المسجد، وكان آخر كلامه «فزت ورب الكعبة»، وباستشهاده انتهت خلافته التي كانت لمدة خمس سنوات من سنة ٣٥ هـ، حتى سنة ٤٠ هـ.

استمر انشغال المسلمين عن الفتوحات بسبب هذه الفتن، وقامت الثورات عليهم في الولايات المتعددة، وظهرت محاولات جديدة للروم، لاحتلال تلك الولايات، واستمر الوضع بهذا الشكل، حتى قامت الدولة الأموية على يد «معاوية بن أبي سفيان».

الدولة الأموية

الدولة الأموية هي القالب الأول لشكل الإمبراطورية الإسلامية المتوسعة، فلأول مرة منذ ظهور الإسلام تظهر الدولة الإسلامية بهذا الاتساع، فكانت تبدأ من الصين ومن وسط آسيا مرورا بالشام وحتى وسط أوروبا نفسها، ففي عهد معاوية تحرك المسلمون مجددا ناحية الفتوحات التي توقفت منذ عام ٣٥ هـ ومقتل عثمان، فكان عهد معاوية الممتد لعشرين عاما، عهد فتوحات وتوسعات، وفترة استقرار نسبي، وكانت عاصمته دمشق. ظهرت في عصره الشرطة لأول مرة، وعرف الخليفة نظام الحرس الخاص لأول مرة، وطور البريد وجعله ديوان الخاتم، وكان من أهم رجاله «عقبة بن نافع» صاحب الفتوحات العديدة في بلاد المغرب العربي، ومؤسس مدينة «القيروان» خلال عامي ٥٠ و٥٥ هـ ، وبوفاته انتقلت الخلافة إلى ابنه «يزيد بن معاوية»، فهبت في عهده ريح الفتن والانقسامات مجددا بشكل أعنف، ففي عهده قُتل «الحسين بن علي» - رضي الله عنهما. وبعد فترة عصيبة تسلم في ما بعد «مروان بن الحكم» الخلافة، والذي أبرز في عصره عداوته لـ«عبد الله بن الزبير» - رضي الله عنه - ثم تسلم الخلافة بعد مروان ولده «عبد الملك بن مروان» في عام ٦٥ هـ، ليشهد هذا التاريخ لم الشتات، وتوحيد البلاد، فأخمد نار الفتن، وفي عهده عُرِبت الدواوين، ولتسهيل القراءة على نشء المسلمين تم في عهده وضع النقاط على الحروف في المصحف، وازدهرت وتقدمت الدولة الأموية في عهد عبد الملك، واستمرت الفتوحات في توسعها. ثم خلفه في ما بعد ابنه «الوليد بن عبد الملك» والذي انتهج نهج أبيه، واهتم بالعلم والعلماء كما كان يفعل، وتقدمت الدولة على يديه، واستكمل الفتوحات، ولعل أشهرها «فتح الأندلس» عام ٩٥ هـ، علي يد جيش الفارسين «طارق بن زياد» و«موسى بن نصير» ليبدأ عهد الإسلام في الأندلس الذي استمر لثمانية قرون، وفي عهده تم سك العملة الأموية الإسلامية. ثم توفي الوليد، لتنتقل الخلافة إلى ولده «سليمان بن الوليد بن عبد الملك»

والذي اتسم حكمه بالشدة والحزم، والذي كان قريبا من ابن عمه «عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم»، والذي تسلم الخلافة بعد سليمان في عام ٩٩هـ دون أن يطلبها بل جاءته بالتزكية، ليكون عمر هو ثامن الخلفاء الأمويين، لتزدهر الدولة الإسلامية في عهده، نظرا لصلاح وعدل الخليفة وزهده في الحياة، وبسبب حكمته شهدت البلاد الرخاء والعدالة الاجتماعية، ويقال إن في عهده كانوا يبحثون عن الفقراء ليعطوهم الزكاة فلا يجدون، ثم يموت الخليفة عمر، وتنحدر البلاد بعد ذلك في فترة ضعيفة، استمرت طيلة عهد خمس خلفاء أمويين من بعده، ثم جاء سادسهم «مروان بن محمد»، والتي انتهت الخلافة الأموية بمقتله عام ١٣٢ هـ، لتقوم بعدها الخلافة العباسية.

الدولة العباسية

لم تكن محاولات قيام الدولة العباسية وليدة هذه اللحظة بالذات، ولكنها ظهرت منذ آخر خمسين سنة في العهد الأموي، فقد بدأت المحاولات منذ اندلاع الثورة العباسية في «خراسان» بقيادة «أبي مسلم الخراساني»، وكان قائدا أمويا انقلب في ما بعد على الأمويين، وبعد نجاح ثورة العباسيين، أصبحت بغداد هي عاصمة الخلافة، لتتزين وتكون من أهم وأكبر دول العالم خلال ٢٠٠ عام من الازدهار والتقدم، وكان لـ«أبو جعفر المنصور» الفضل في تقدم الدولة العباسية، وإنشاء حضارتها الحقيقية، ولكن في عهده فقد العباسيون بعض المناطق التي فُتحت في عهد الأمويين، منها أراضي من بلاد المغرب العربي وغرب أفريقيا. وعندما جاء من بعده الخليفة الجديد «هارون الرشيد» بدأ عصر القوة والفترة الذهبية، فقد ضم أراضي جديدة، ليمتد نفوذهم لما هو أبعد، ثم من بعده ابنه «المأمون بن الرشيد»، الذي انتهج نهج أبيه، ثم تقدمت الدولة للأمام مجددا في عهد «المعتصم بن الرشيد» و«الواثق» ابنه، تميزت الدولة في عهدهم، ووُضعت أسس تنظيمية وإصلاحية فذة، وظهرت العلوم والاختراعات، وحفرت الترع والجداول للاتصال بين الأنهار، وبُنيت الجسور والقناطر الكبيرة، علاوة على التقدم التجاري الكبير.

بعد الرشيد وأبنائه انتهى العصر الذهبي للعباسيين، لتبدأ حضارتهم في الانحدار بعد نحو ١٠٠ عام، وبدأ الضعف يتملك من الدولة، لتفقد العديد من البلدان، ورغم كل ذلك؛ فقد شهدت الدولة العباسية بطولها أبرز الإنجازات العلمية، ففي عهدهم رُسمت أول خريطة للعالم على يد «أبوعبد الله محمد بن محمد الإدريسي الهاشمي»، وفي عهدهم عاش «أبو علي الحسن بن الحسن بن الهيثم»، والذي ألف مائتي كتاب في شتي العلوم، وظهرت على أيديهم المدارس الفقهية التي توارثناها حتى اليوم، كمدرسة «أبو حنيفة النعمان» و«مالك ابن أنس» و«الشافعي» و«أحمد ابن حنبل».

تسبب ضعف الدولة العباسية في طمع الولاة المحليين في الاستقلال، فظهرت دويلات خرجت من كنف الدولة العباسية، كدولة «الخوارزمية» ودولة «السلاجقة» والدولة «الفاطمية» وغيرهما العديد، ثم علا نجم الكثير من المتمردين، على رأسهم «أحمد بن طولون» الذي وحده استطاع أن يستقل بالشام والحجاز ومصر، ليظهر ما يُعرف بالدولة الطولونية، ولكن من أبرز الدويلات التي قامت وتمردت عليهم وقاومتهم، الدولة الفاطمية.

الدولة الفاطمية

قامت الدولة الفاطمية بعد استقلالها عن العباسيين على يد «عبيد الله المهدي» في عام ٢٩٦هـ، وقامت في بلاد المغرب العربي، ومؤسسوها هم السلالة الشيعية التي تنتمي للفرقة الإسماعيلية، بدأ نفوذهم في الظهور بعد فتحهم الجزائر ثم تعمقهم شرقا إلى تونس، ثم زحفهم لليبيا وصقلية، ثم بدأوا في منازعة العباسيين على حكم الشام بعد السيطرة على شمال أفريقيا، كما أنهم استولوا على الحرمين منذ عام ٩٦٥ ميلادية حتى عام ١٠٧٠ميلادية، وكانوا قد جعلوا من مصر عاصمتهم بعد فتحها في عام ٩٦٩ ميلادية الموافق ٣٥٨ هـ، وذلك منذ إقامة «المعز لدين الله» فيها وإنشاؤه الجامع الأزهر. وامتدت الدولة الفاطمية بشكل بارز وقوي في عهد المعز، ثم في عهد ابنه «العزيز بالله بن المعز»، ثم من بعده «الحاكم بأمر الله بن العزيز»، ثم «الظاهر لإعزاز دين الله بن الحاكم». وتقدمت العلوم والفنون في عهدهم، وبعدما بنوا الأزهر، بنوا دار الحكمة. ثم بعد هؤلاء بدأ عصر الضعف في عهد الستة

خلفاء التاليين، وكان آخرهم الخليفة «العاضد لدين الله» والذي سيطر الوزراء على حكمه مثل الخمسة سابقيه، بل وتنازعوا في عهد الأخير، ولعل أشهر هذه النزاعات ذلك النزاع الذي وقع بين «شاور بن مجير السعدي» و«ضرغام بن عامر المنذري اللخمي» على منصب الوزارة، واللذان استنجدا وعجلا بدخول قوات أجنبية، فـ«ضرغام» استنجد بالقوات الصليبية الموجودة في بيت المقدس آنذاك، أما «شاور» فكان قد استنجد بسلطان الزنكيين في بلاد موصل العراق «نور الدين محمود»، والذي لبى النداء، وأرسل القائد «أسد الدين شيركوه» ومعه ابن أخيه «صلاح الدين بن يوسف بن أيوب» إلى مصر، وانتهى هذا النزاع بمقتل الوزيرين، وعزل آخر الخلفاء الفاطميين الخليفة العاضد لدين الله، ثم بعد ذلك استقل الأمير صلاح الدين بمصر، ليبدأ عصر الدولة الأيوبية.

الدولة الأيوبية

بعدما استقل صلاح الدين الأيوبي بمصر، شرع في بناء دولة إسلامية قوية، سميت بالأيوبية، والتي كانت امتدادا للدولة الزنكية في سوريا وشمال العراق الحالي، وكان سلطان الزنكيين هو «نور الدين محمود»، ابن «عماد الدين زنكي» واللذان كانا على يقين تام بأن فتح القدس لن يأتي إلا بالقوة والوحدة، فبنوا دولتهم على ترابط وعلا نجم القائد صلاح الدين. قضى صلاح الدين على الفاطميين أعداء الخلافة العباسية التي كانت موجودة في الخلفية بشكل صوري، وفرض المذهب السني الشافعي على البلاد، وعزل قضاة الشيعة، ثم بعد موت «نور الدين» قام الأمير «صلاح الدين» بإعلان نفسه سلطانا على مصر، بعد حصوله على موافقة من الخلافة العباسية، ثم بدأ في الفتوحات، لتتوسع مملكته التي كانت مصر مركزها وعاصمتها، من الشرق - الشام وشمال العراق وبلاد الحجاز واليمن، والغرب - شرق تونس، والجنوب - بلاد النوبة.

وصلاح الدين كان قد أظهر بطولته وقوته العسكرية ابتداء من جهاده ضد الصليبيين، وانتصاره عليهم في «معركة حطين» واسترداد بيت المقدس، ثم مقاومته للحملات الصليبية التي قصدت بلاد الشرق، والتي قادها ثلاثة يتصفون بالدواهي، وهم من أعظم

ملوك أوروبا في ذلك الوقت «ريتشارد قلب الأسد» ملك إنجلترا، و«فيليب أغسطس» ملك فرنسا، و«فريدريك باربروسا» إمبراطور ألمانيا، وبعد هذه النجاحات الحافلة بالبطولات، توفي صلاح الدين الأيوبي بدمشق في سن ٥٥ عاما، ثم تولى بعده الملك «عماد الدين» ثم خلفه الملك «المنصور ناصر الدين» ثم «العادل سيف الدين»، ثم «الكامل ناصر الدين» والذي تصدى للحملة الصليبية الخامسة والتي غزت دمياط، ثم «العادل سيف الدين»، ثم من بعده «الصالح نجم الدين» فورث البطولة عنهم جميعا، فالتقت جيوشه بقيادة مماليكه «عز الدين أيبك» وأقطاي» و«قطز» و«بيبرس» مع جيوش الصليبيين التي احتلت دمياط، وزحفت لحصار المنصورة بقيادة «لويس التاسع» ملك فرنسا، ثم توفي الملك «الصالح» أثناء معركة المنصورة، ولكن أخفت زوجته «شجر الدر» خبر الوفاة حتى لا تهبط الروح المعنوية للجنود، وقادت الجيش مع القادة المماليك، حتى تحقق النصر وأُسر الملك لويس التاسع. وتسلم «توران شاه بن الصالح» الحكم خلفا لأبيه الصالح، ولكن قتلته بعد ذلك «شجر الدر» بمعاونة مماليك أبيه، ثم انتقل الحكم لـ«شجر الدر» التي تزوجت من «عز الدين أيبك»، فقتلته لتنفرد بالحكم، ثم قتلها بعد ذلك مماليك «أيبك» انتقاما له، وعلى حسب الرواية السائدة: أمرت زوجة عز الدين «أيبك» جواريها بقتلها، فقاموا بضربها بالقباقيب على رأسها بشكل عنيف، وألقوا بها من فوق سور القلعة، وقام المماليك بتنصيب القاصر «المنصور بن عز الدين أيبك» سلطانا، لينفرد بالسلطة كثاني حاكم مملوكي بعد أبيه الذي كان يحكم مناصفة مع شجرة الدر، لينتهي العهد الأيوبي بموتها ويبدأ العهد المملوكي.

الدولة المملوكية

طائفة المماليك، هي طائفة العبيد المملوكة للأشراف، وكانوا من أسرى الحروب، ظهر منهم فرسان أشداء، وذلك بسبب أن هؤلاء الرقيق كانوا يُسلمون إلى المختصين ليعلّموهم القراءة والكتابة وحفظ القرآن الكريم، ثم عندما يبلغ أحدهم سن الرشد والشباب يبدأ في تعلم فنون الحرب والفروسية، كما كان لهم بعض الامتيازات المحدودة نظرا لقوتهم العسكرية، حيث يحق للمملوك أن يترقى من رتبة إلى رتبة، بل ويستطيع أن يشغل منصب أمير الأمراء أو قائد الحرس الملكي أو قائد الجيش. تُعتبر بداية انقضاض هذه الطائفة على

الكرسي عندما تزوجت «شجر الدر» من «عز الدين أيبك» من أجل أن تجعله واجهة للحكم عام ١٢٥٠م، ولكن «أيبك» فاجأها وانقلب عليها بعدما سيطر على زمام الأمور، وأحكم قبضته على إدارة البلاد، فقتلته إلى آخر ما قد تم ذكره.

كانت كل هذه الأحداث تدور بعيدا عن قصر الخلافة في بغداد، الذي أصبح متهالكا بشكل كبير، والذي أفل نجمه، وأصبح معزولا عن الأوضاع الإسلامية في أقصى البلاد، وكان الخليفة العباسي مجرد رمز لإمامة المسلمين فقط.

نهاية الخلافة العباسية

استمر مسلسل الانهيار العباسي في التتابع، حتى جاءت الضربة القاضية بيد «هولاكو خان» زعيم المغول، وحفيد «جنكيز خان»، والذي غزا بغداد عام ١٢٥٨م، وحرق المدينة ودمرها وحرق مكتبتها العلمية التي احتوت على كُتب ومخطوطات نادرة ألقاها في النهر، وقيل إنهم عبروا عليها بخيولهم إلى الضفة الأخرى كجسر، ونهب وقتل الآلاف من سكانها، وقام بمجزرة عظيمة استمرت ٤٠ يوما، وقتل الخليفة «أبو عبد المجيد المستعصم بالله عبد الله بن منصور المستنصر بالله» وأبناءه، لينتهي عهد خلافة العباسيين في العاصمة بغداد. وفر هربا العديد من الناجين من آل عباس، والتجأوا إلى القاهرة، مندمجين داخل دولة المماليك الحديثة، حتى أصبحوا كتلة كبيرة في عام ١٢٦١م. ولكن خطر المغول أصبح خطرا عالميا يُهدد شتى بقاع الأرض، وسقوط بغداد كان أمرا مفزعا ومرعبا، وأصبح واضحا أن الخطوة القادمة هي زحف المغول إلى مصر، التي يحكمها صغير السن «المنصور بن أيبك»، تحت وصاية «سيف الدين قطز»، ولأن الجميع علم أن العاصفة قادمة لا محالة، أعلنوا حالة التأهب، وقام العالم الشيخ «العز بن عبد السلام» بعزل المنصور، وتسليم الخلافة للقائد والفارس «قطز»، واشترط عليه أن يُعلن الجهاد ضد المغول.

تسللت الثقة إلى قلوب أفراد الجيش بعد تولي «قطز»، الذي أظهر شجاعته وتحديه لـ«هولاكو» بعدما ذبح رسله، وعلق رؤوسهم على باب زويلة، ما زاد من ثقة الناس به وبقدرتهم على تحدي العدو، وفي ٣ سبتمبر من عام ١٢٦٠ ميلادية، وقعت معركة عين

جالوت (بالقرب من فلسطين)، لينتصر «قطز» ورجاله، ويتوقف هذا الخطر في المشرق الإسلامي بشكل نهائي وللأبد. وبعد عودة قطز لمصر قتله «الظاهر بيبرس»، الذي تولى الحكم بعده، وقضى على باقي فلول التتار، وأحيا الخلافة العباسية المنتهية ونقلها إلى مصر، لتصبح دولة المماليك هي الخلافة الإسلامية الجديدة، واشتهر سلاطين المماليك الذين جاءوا بعده بالقوة، و من أشهرهم المنصور «سيف الدين قلاوون» و«الأشرف صلاح الدين خليل» و«الناصر محمد بن قلاوون»، فسِجل التاريخ قد خلدهم بسبب قضائهم على الوجود الصليبي في الشام للأبد دون رجعة. ثم بعد ذلك تدهورت دولة المماليك، بعدما تدهورت تجارتهم، وذلك بسبب اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح على يد البرتغاليين، فسقطت مصر تجاريا، ثم بعد ذلك سقطت عسكريا في يد العثمانيين بعد ما هزموا المماليك في معركة «مرج دابق» بقيادة «سليم الأول» العثماني ضد «قنصوه الغوري» المملوكي، ثم هزمهم سليم مجددا في «الريدانية»، واعتقل «طومان باي» وأعدمه على باب زويلة، ولتصبح الدولة العثمانية هي الخلافة الإسلامية في المنطقة كلها، بعدما سقطت دولة المماليك المدعومة ببقايا الخلافة العباسية.

الدولة العثمانية

هي الدولة التي قامت على يد «عثمان بن أرطغرل» وكانت عبارة عن إمارة حدود تركمانية، تتبع سلطنة سلاجقة الروم، وكان من أهم نشاطاتها التصدي للغارات البيزنطية التي تُهاجم بلاد الإسلام، استقلَت تلك الإمارة بالإمارات التُركمانية التابعة لها، واتحدت في دولة واحدة، يحكمها أبناء «عثمان أرطغرل»، تميزوا عسكريا، فهم أول من استطاع العبور إلى أوروبا الشرقية، وفتح أغلب البلاد البلقانية، كما قاموا بضم آسيا الصغرى تحت قيادتهم، وكان لهم محاولات عديدة وطويلة لفتح القسطنطينية ومحاربة البيزنطيين، حتى فُتحت على يد «محمد الفاتح» - كما ذكرنا فيما سبق - ثم توسعت وكبرت الإمبراطورية بشكل ناجح ومذهل، حتى وصلوا إلى اليونان وحدود إيطاليا، واستمر الفاتح في فتوحاته وانتصاراته حتى توفي، ليُكمل خلفاؤه سياسة التوسع. ففي عصر السلطان «سليم الأول» لم يُسقطوا المماليك في مصر وحسب، بل أسقطوا دولة الصفويين في

العراق وفارس، وورثوا أملاك المماليك بما فيها «الحجاز» و«تهامة»، حتى سيطروا على الحكم في تلك المنطقة، ليُلقب سليم بلقب أمير المؤمنين وخادم الحرمين. وعلا نجم العثمانيين وصاروا قوة دولية لها شأنها، وارتفع شأنها أكثر عندما تسلم «سليمان القانوني» السلطة، فازدهرت الدولة على يديه، وانتصر للعلوم والفنون، وتميز عسكريا، وأصبحت دولته منفتحة على العالم، وعزز الاتصالات والتعاملات مع الغرب المسيحي، ولكن من أهم سلبياته أنه عزز صداقاته مع الفرنسيين بشكل زائد، وأعطى لهم امتيازات داخلية، ما زاد من نفوذهم وتوغلهم داخل الدولة، وتحكموا في سياستها الداخلية، حتى أضعفوها بشكل خبيث. وأصبح العثمانيون أصدقاءً للفرنسيين، ولكن حلفاء الأمس أصبحوا أعداء اليوم، ففاجأهم الفرنسيين بطمعهم في غزو مصر والشام، فانقلبا وأصبحا أعداء، لدرجة أن العثمانيين تعاونوا بعد ذلك مع الإنجليز لطرد الفرنسين.

بهذا الشكل بدأت الدولة العثمانية طريقها إلى الانحدار، بعدما أصابها فيروس الخبث الغربي بشكل غادر، ويعد عصر سليمان هو العصر الذهبي الأخير، فبعده فقدت الدولة العثمانية الكثير من أراضيها. وكَولي عثماني تسلم «محمد علي باشا» الحكم في مصر، والذي تميز فكريا وعسكريا، وخاض في بداية حكمه حروبا داخلية مع بقايا المماليك، وقوات الإنجليز فيما عُرف بالحرب الأنجلو مصرية، ثم ذاع صيته في كل أركان الخلافة العثمانية بعد ما حارب بالنيابة عنهم في جزيرة العرب ضد الوهابيين وضد الثوار اليونانيين الثائرين على الحكم العثماني، واستمر هذا القائد في انتصاراته الفذة حتى توغل جنوبا وضم السودان لمملكته.

استغل محمد علي ضعف الخلافة العثمانية، واستثمر قوته الفردية في التمرد على الدولة العثمانية المريضة، بل وأعلن عداءه للدولة، وحارب جيوشها في الشام وفي الأناضول، ليأتي الرد المفاجئ من العثمانيين، بأن تحالفوا مع الأعداء في أوروبا ضد محمد علي المستقل بمصر في عام ١٨٤٠ميلادية، ليتلاعب الأوروبيون في مصير الدولة أكثر فأكثر، فاستغل الأوربيون هذا الانشقاق ليدعموا الثورات في البلاد الأوروبية الخاضعة للعثمانيين، وأمدوهم بالسلاح في السر، حتى ثاروا على الدولة العثمانية وأفقدوها الكثير من الأراضي،

لتبدأ الدولة في السقوط والانهيار الأخير. ثم بعد ذلك تولى الخلافة في تلك الفترة الحساسة السلطان «عبد الحميد الثاني»، لتواجهه الأزمات والتحديات من أول دقيقة، وظهرت أفكار جديدة، تنادي بالانفصال، ودس الأوربيون داخل الدولة المصطلحات الحديثة، ليصبح الوطن مشبعا بالثورة والاضطراب، وظهرت على السطح الأفكار التي تُنادي باحتلال فلسطين، فتجمع اليهود وتوحدوا لأول مرة بعد سنوات من الضياع والذل والعبودية، على يد الصحفي الصهيوني «ثيودر هرتزل» في عام ١٨٩٧ميلادية، عندما أنشأ المنظمة اليهودية العالمية في مؤتمرهم اليهودي الأول في «بازل» بسويسرا، وفي عام ١٩٠١ ميلادية، نفذوا فكرة «هرتزل» الذي دعا لإنشاء «الصندوق اليهودي الوطني» لشراء الأراضي في فلسطين وعرْض رشوة ضخمة على السلطان عبد الحميد.

بالفعل ذهب إليه «هرتزل» وأدخله الحرس، وأدى التحية للسلطان وانحنى وقارا له، ثم بدأ في الإلحاح في طلبه، حتى رفض السلطان، وأخبره أن لا فلسطين ولا غيرها للبيع، ثم أصدر السلطان عبد الحميد مجموعة قرارات عنيفة، لعل من أهمها فرمان يمنع هجرة اليهود إلى فلسطين تحت أي سبب. أدرك اليهود وحلفاؤهم في أوروبا الذين تبنوا الفكرة وعلى رأسهم «إنجلترا» أن السلطان شوكة في حلق الجميع يجب التخلص منها، حتى يتسنى لهم تفكيك القوة العثمانية التي تهددهم، ويتسنى لهم أيضا إقامة دولة لليهود، فاليهود يرغبون في تحقيق حلمهم على أرض فلسطين، أما حلفاؤهم فكانوا قد أدركوا خطورة الوجود الصهيوني في بلادهم واحتكارهم للبنوك والاقتصاد، ما جعلهم مرحبين بفكرة إنشاء الكيان الصهيوني في فلسطين بعيدا عنهم. علم اليهود أن القتال من الداخل العثماني هو الأدهى والأمر، وأن السوس إذا تمكن من الداخل سيصبح البنيان هشا، فجاء دور يهود «الدونمة» والجمعيات السرية، مثل جمعية «الاتحاد والترقي»، الذين نفذوا خطتهم مرورا بأحداث «٢١ مارت»، حتى هذا اليوم المشهود، والذين مازالوا بالداخل الآن يتفاوضون والناس في انتظار قرارهم.

خطاب من ضمن خطابات مصطفى كمال في
عام ١٩٢٤، وكانت كلمة ألقاها في بورسا

وبعد مُضي الوقت، خرج أعضاء الجمعية، وعلى رأسهم مصطفى كمال أتاتورك، ليهتف في الجميع، بعد إلقاء بعض الجمل التي مفادها الحرية وما شابه، ثم يقوم بتنفيذ القرار السابق والخاص بإلغاء الخلافة الإسلامية في تركيا بشكل فوري الآن، ومصادرة جميع أملاك الأسرة العثمانية وتأميمها، وإعلان تركيا دولة علمانية منذ تلك اللحظة، لاغيا بذلك وزارتي الأوقاف والمحاكم الشرعية، والوظائف الدينية في البلاد، معلنا تكوين دستورا قوانينه مستوحاة من القانون المدني السويسري، والقانون الجنائي الإيطالي، والقانون التجاري الألماني، لتنتهي الخلافة الإسلامية على يده ويد العلمانيين للأبد.

الفصل الثالث

٤٠ حضارة ربما لم تسمع عنهم من قبل

(حضارات غامضة قصيرة الأمد)

هنا سنتعرف على مجموعة من الحضارات، منها حضارات كثيرة لم يُتداول اسمها على الإطلاق، واستكمالا لما وصفته في مقدمة هذا الكتاب، وكيفية تصنيف الحضارة، والمعايير البحثية التي نميز بها أي تقدم حضاري عن غيره، يجب اتباع الشروط التالية في التصنيف:

- التحضر في طرق العيش بما يناسب الظروف المتاحة في وقتها.

- التقدم الاقتصادي الذي ينتج عن إخضاع الموارد لسلطة الفكر البشري آنذاك.

- تطور العلاقات الاجتماعية بين فئات المجتمع.

- التميز في الإدارة والتطور والتخطيط المجتمعي.

- الإنجازات العلمية والثقافية والعمرانية.

- التأثير المباشر في الحياة البشرية بالإيجاب.

وما دون ذلك لا تسمى حضارة، ولكن سمها ما شئت، فعلى سبيل المثال سكان «بومبي» مدينة الفحشاء الشهيرة، كان لهم تاريخ عريق، فقد أسسها «الأسكان»، وأشاد بها البحارة اليونانيون والفينيقيون، وسيطر على فنونها الفن «الأتروسكاني»، و«الروماني» نسبة للغزو، ولكن ما الجدوى من ذكرها رغم تقدمها وتطورها ووصول الإنسان فيها لأعلى معدلات الرفاهية؟! ببساطة، لا يمكن تصنيفها كحضارة لأنها فقط ينقصها بعض بنود تلك الشروط، والتاريخ ممتلئ بحضارات عديدة سيئة السمعة على شاكلة «بومبي» لم يذكرها ولم يخلدها، ولكنه ذكر منها من عاد إلى رشده وأصلح من شأنه، كحضارة «الفايكنج» ذلك الشعب الأكثر جرما في التاريخ، ولكنه عندما اعتنق المسيحية استقر وبنى مجدا خلده التاريخ، كذلك الحضارة المغولية التي اشتهرت بوحشيتها، قد تطورت بعد دخولها الإسلام وأصبحت دولة إسلامية مؤثرة، مثلها مثل الأمازيغية وغيرها الكثير، هذه الشعوب أصبحت

منذ دخول الإسلام جزءا لا يتجزأ منه، فأحيانا دخول الأصغر في حضارة الأكبر ينتج عنه مجد لا يُنسى، وفيه لا يُنكر فضل الصغير، أما الانعزال والانفصال هو خيار صعب جدا، يجعل الحضارات المنعزلة ربما تقوم ولكن تنتهي بعد وقت قصير، فشعب الإسكيمو كانوا قد بنوا حضارة، ولم يستعينوا بأي أفكار خارجية، بل عاشوا وظنوا أنه لا يوجد غيرهم على وجه الأرض، وبسبب انعزالهم لم يُعترف بحضارتهم كحضارة مؤثرة.

وأيضا هناك حضارات قديمة جدا كانت هي النبتة الأولى لبعض الحضارات كـ«السبيلية» في مصر، لم نذكرها هنا، لأن وصفها جاء كسلالة أولى للحضارة التي تلتها، ولكننا فقط سنذكر ما هو غير متداول. بعض من الحضارات البائدة ذات نهاية شبه واحدة، وذلك لأن نهاية معظم هذه الحضارات متشابهة وغامضة، فقد أثبتت الدراسات الحديثة أن التغير المناخي أدى بشكل مباشر أو غير مباشر لاندثار الحضارات القديمة على الأرض في حدث يعتبر متشابها نوعا ما، ومن أهم الشواهد حضارة «وادي السند» الشهيرة، وما تم إثباته حولها مجددا، من تجديد وترميم لبعض المفاهيم التي أخطأ فيها العلماء، فعلى عكس ما هو متوقع ظهرت اكتشافات جديدة تؤكد أنها لم تندثر بسبب الاحترار العالمي، بل إن الانخفاض القوي لدرجات الحرارة هو الذي تسبب في اختفاء معظم الأراضي الصالحة للزراعة، وانتقال حضارة وادي السند من المدن المتقدمة في السهول إلى التلال، وهناك أسباب انتهت بها حضارات أخرى كالمجاعات التي تنجم عن التغيير المناخي وفساد الأراضي الزراعية أو الفساد الاقتصادي، ومن أشهر تلك التغيرات التي مرت على التاريخ وتسببت في انقراض شعوب وحضارات:

- ظاهرة تسونامي، التي تتجدد على مر التاريخ لتحصد معها أرواحا وحضارات.

- ظاهرة ارتفاع منسوب المياه، أو كما نسميها الفيضانات.

- العوامل الطبيعية، كالزلازل والبراكين.

أما العوامل غير الطبيعية:

- الحروب بجميع أشكالها ومنها الأهلية.

- الغزو والاستعمار.

- سوء التخطيط الاقتصادي.

- الفساد الإداري الذي ربما يؤدي لمجاعة.

تجوّل معي في هذه الحضارات، لنرى ونعتبر أن كلَّ شيء حي مهما كانت عظمته، فمصيره للفناء.

حضارة كوبيك تيبي

حضارة كوبيك تيبي

أو حضارة «جوبيكلي تيبة»، التي تعتبر واحدة من أكثر الاكتشافات غموضا وإلغازا عبر التاريخ، ومكانها الآن موقع جبلي «مقدس» يعود إلى حقبة العصر الحجري، على أعلى قمة لسلسلة مرتفعات على بعد ١٥ كلم جنوب شرق «الرها - أورفا» في ذروة الهلال الخصيب (جنوب تركيا حاليا)، ويقال إن تلك الحضارة ربما قامت في فترة ما قبل الطوفان، في حوالي ١١.٥٠٠ سنة إلى ١٠٠٠٠ سنة، فقد بنيت قبل بداية الاستقرار الحضاري الحديث للبشر، وهي عبارة عن مجموعة من النصب الحجرية الضخمة على شكل دائري، المكونة من

الغرف المستطيلة والأعمدة الحجرية المرسومة على شكل حرف «T»، ومنحوت على تلك الأعمدة بعض الرموز غير المفهومة، وصور بعض الحيوانات مثل الأسد والعقرب والثعبان، بطريقة غامضة، وأثبتت الأبحاث أن هذا المعبد بُني قبل أكثر من ٦٠٠٠ سنة من بناء الهرم الأكبر! ويُعتقد أن هذا المكان كان معبدا للقبائل في تلك المنطقة، ويُعتبر هذا أقدم بناء موجود على الأرض.

ونظرا لقدم هذه الحضارة أصبح من المستحيل تحديد الأسباب التي جعلتها تندثر، إلا أن معظم العلماء توقعوا بأن التحول المناخي الذي جاء أثناء وبعد الطوفان ربما يكون سبب هجرتها من ساكنيها، ليتفرعوا في أماكن شتى، ويعتقد أن بعد ذلك قامت الحضارات في مختلف الأماكن في أوروبا وآسيا.

حضارة الكلوفيس

حضارة الكلوفيس

يُعتقد أن «الكلوفيس» من الشعوب التي عاشت قبل الطوفان، وأنهم من أوائل الشعوب التي استوطنت العالم الجديد، وهم بذرة كل الحضارات التي قامت على أمريكا الشمالية

والجنوبية الأصلية التي بدأت بعد الطوفان، ويمتد تاريخ «الكلوفيس» إلى أبعد من ٩٠٠٠ سنة ق.م، واستطاعوا في ما بعد بناء حضارتهم في سهول وسط وجنوب أمريكا الشمالية، بعدما عبروا ممر «بيرنج» المتجمد من «سيبيريا» إلى «ألاسكا» أثناء العصر الجليدي، ثم توجهوا جنوبا إلى حيث المناخ الدافئ (على حسب وصف العلماء). ومن أهم آثارهم المميزة الأحجار الصوانية مدببة الشكل، والتي سُميت بـ«سن كلوفيس»، وكان الغرض من صنع تلك الأحجار ذات السنون، استخدامها في الصيد البري والبحري.

وهناك احتماليات عديدة لاختفائهم، منها فرضية تقول: إنه قد ارتطم نيزك بالأرض بمنطقة البحيرات الكبرى ما أنهى شكل حياتهم. وفرضية أخرى تقول: إنهم ربما قد ماتوا جوعا بعد انقراض الحيوانات الضخمة التي يتغذون عليها كالماموث وحيوانات أخرى بسبب صيدهم المستمر لها.

حضارة كاتال هيوك

حضارة كاتال هيوك

سكان هذه الحضارة قد اختفوا تماما واختفت آثارهم، ولم يتركوا لنا شيئا إلا مدينتهم الأسطورية التي تُذهب العقول، وهي المدينة الملقبة بأقدم مدينة في العالم، وهي مدينة

«كاتال»، حيث قامت بشكل متطور جدا جدا في فترة يُعتقد أنها كانت قبل الطوفان، وهي الوحيدة التي نجت وصمدت من آثار هذه الحضارة رغم الكوارث الأرضية، وهي عبارة عن مدينة كبيرة وحضارة زراعية قامت منذ ٩٠٠٠ سنة ق.م، في جنوب تركيا الحالية، وقد اتسمت هذه المدينة بصنعها الفريد حيث لم يصنعوا لها شوارع، بل جعلوا أبنيتها على شكل خلية نحل كرمز للوحدة، وكانوا يتنقلون عبر سلالم بين السقوف ويدخلون بيتوهم عبر فتحات مفتوحة في كل سقف، وتعتبر هذه الحضارة إثباتا واضحا على ما ذكرناه في الفصل الأول، وأن الإنسان القديم لم يكن بالجهل الذي قذفه به الكثيرون، فهذه الحضارة تمت في فترة ما قبل كتابة التاريخ وسابقة لعصور الكتابة، ورغم ذلك فهي دليل مهم على وجود مجتمع قديم متقدم ومعقد، ومتشبع بالفنون والرسم والعادات الراقية.

انتهت هذه الحضارة واختفت بعد ما استمرت ٢٠٠٠ عام فقط، ولم يستطع العلماء تحديد سبب انهيارها بشكل واضح، ولكن قال بعضهم إنه ربما تكون هي الأخرى أهلها قد تركوها بسبب الكارثة الكونية، والأحداث التي وقعت على الأرض أثناء وبعد الطوفان.

حضارة المينويون

حضارة المينويون

تأسست تلك الحضارة «المينوية» أو «المينوسية» على يد الملك سمو «مينوس» قبل عام ٧٠٠٠ ق.م تقريبا، تعتبر من أقدم حضارات اليونان وأوروبا عموما وتعود إلى العصر

البرونزي، وكان وطن تلك الحضارة جزيرة «كريت» أكبر الجزر اليونانية، وتقدمت وازدهرت وأصبحت في ذروة شهرتها ما بين ٣٠٠٠ حتى ١٠٠٠ ق.م، وكان من أعظم أعمالهم هي التجارة، والفن، والترابط الاجتماعي. «المينويون» الأوائل تكلموا لغة يطلق عليها «الخطية الأولى» واستبدلت بعد ذلك بـ«الخطية الثانية».

كان المناخ السائد وقتها متقلبا، فشهدوا البراكين والزلازل، ولكنهم كانوا على مقدرة من بناء نفسهم المرة تلو الأخرى، ولكن في حوالي عام ١٤٥٠ ق.م حدثت كارثة لم تستطع هذه الحضارة أن تتجاوزها وبدأ الانهيار، وبعد سقوطهم ورثتهم الحضارة الميسينية ثم الهيلينية، حيث أكد فريق كبير من العلماء أنهم قد اندثروا تحت تأثير ثورة بركانية بجزيرة ثيرا «سنتورني»، ثم شاء لهم القدر أن ينجوا من ذلك، إلا أن الثورة البركانية قد قضت على جميع النباتات ما أدى إلى مجاعة، وخراب سفنهم أدى إلى تدهور اقتصادي، ما أعطى الفرصة للميسنين للانقضاض على حضارتهم.

حضارة نبتة بلايا

حضارة نبتة بلايا

تعتبر هذه الحضارة من أولى الحضارات التي شهدتها الأراضي المصرية، ويعتبرها العلماء هي النبتة الأولى والتمهيدية لحضارة وادي النيل العظيمة التي قامت في ما بعد، وقد نشأت هذه الحضارة في الفترة ما بين ٦٥٠٠-٧٠٠٠ سنة ق.م، لتعلن عن قيام مجتمع متطور

على أراضي الصحراء المصرية، عرفوا الزراعة وصنعوا الخزف جيد الصنع، وقاموا بتربية الأبقار، وأثبتت الاكتشافات الحجرية أن هؤلاء الأناس كان بينهم فلكيون، والسبب هو العثور على أقدم ساعة حجرية في منطقة نبتة بلايا، غرب معبد «أبو سمبل»، ويعود تاريخها إلى ما لا يقل عن ٧٠٠٠ سنة ق.م.

وتلك الساعة تتكون من مجموعة أحجار عمودية داخل دائرة قطرها ٤ أمتار، وفي وسط الدائرين صفين من ثلاثة أحجار، ولها أبواب ومداخل للاتجاهات الأربعة الشمال والجنوب والشرق والغرب، وباستطاعة هذه الساعة تحديد المواسم لا سيما الانقلاب الصيفي الذي يتواكب مع نزول المطر في ١٨ يونيو من كل عام، وهذه الساعة كانت هي تقويمهم الخاص، الذي ينظم الوقت والمواسم وترتيب النجوم، إضافة إلى أنها كانت بوصلتهم لتحديد الاتجاهات.

يُعتقد أنها النبتة الأولى للحضارة المصرية، ولقد هجر سكانها الصحراء بسبب التقلبات المناخية والجفاف، ليسكنوا على ضفاف النيل في ما بعد.

حضارة كيوكوتيني (تريبيليان)

حضارة كيوكوتيني (تريبيليان)

حضارة «كيوكوتيني»، أو حضارة «تريبيليان»، هي حضارة نشأت منذ مهد الحضارة الأوروبية، وقد قامت في ٥٥٠٠ ق.م، حتى عام ٢٧٥٠ ق.م، على أراضي رومانيا ومولدوفا وأوكرانيا الحديثة، وقد عاش شعب هذه الحضارة على المنتجات الزراعية، والصيد وتربية المواشي وصناعة الفخار، وشيدوا منازل مميزة، وعرفوا الكثير من الفنون لعل أبرزها النحت والشعر.

وهذه الحضارة غاية في الغموض، وأهم الألغاز التي تحملها هذه الحضارة، هو أن أهلها كانوا يقومون بحرق وتدمير مستوطناتهم بأنفسهم كل ٦٠ أو ٨٠ سنة، ثم يقومون ببنائها من جديد، ولا يجد العلماء تفسيرا لهذا الأمر الغريب حتى الآن.

اختفت هذه الحضارة من الوجود، دون معرفة سبب اختفائها الغامض، ولكن يرى بعض العلماء أنه ربما يرجع اختفاؤها إلى غزو ما، علاوة على أن الاكتشافات الأثرية الأخيرة تشير إلى حدوث تغير مناخي مفاجئ وقاتل بالنسبة للحياة الزراعية، ما ترتب عليه هجرة تلك الأرض بعدما أصبحت قاحلة.

حضارة الهاربا

حضارة الهاربا

هي من أقدم الحضارات على وجه الأرض، حيث بدأت هذه الحضارة في الازدهار قبل نحو ٤٥٠٠ ق.م، والتي قامت في باكستان، وشمال غربي الهند، وباكستان وأفغانستان، واكتسبت

هذه الحضارة اسمها من اسم مدينة «هارابا» الباكستانية، ويعتقد الكثير من العلماء أن حضارة «هاربا» هي نفسها حضارة وادي السند القديم، والتي كانت هي النبتة الأولى للحضارات التي قامت على هذه الأرض، كالحضارة الهندية التي قامت على شبه القارة الهندية كما ذكرنا، وتشير الأبحاث إلى أن عدد سكان الكوكب في ذلك الوقت كان لا يتجاوز ٥٠ ميلونا، وكانت هذه الحضارة تحتوي على ٥ ملايين منهم وحدها، وكانت شوارعها وأبنيتها ضخمة متعددة الطوابق، وبها محلات لبيع المعادن.

وهذه الحضارة هجرها أهلها وتركوها خاوية منذ ٣٥٠٠ سنة، وهناك وجهات نظر عديدة لشرح سبب سقوط تلك الحضارة، منها من يقول إن السبب هو التغيرات المناخية القاسية والجفاف، ونظرا للكثافة السكانية العالية وقلة الغذاء تركها أهلها. وهناك رأي آخر يقول: إن السبب هو ضيق مساحة «وادي هاكرا» بسبب النهر، أو بسبب الجو البارد الجاف الذي أصاب الشرق الأوسط، ورأي أخير يقول: إن الآريين قاموا بغزوهم والقضاء على ملكهم في نحو ١٥٠٠ قبل الميلاد.

حضارة نورتي شيكو (نورتون)

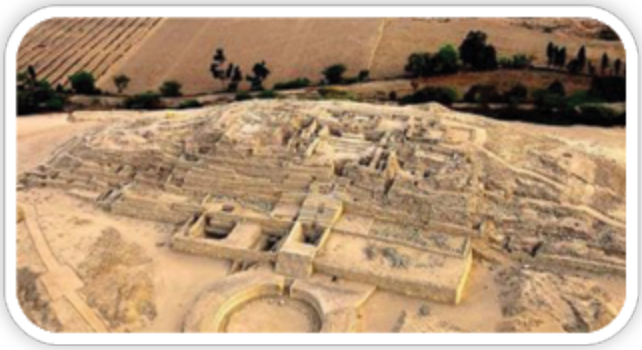

حضارة نورتي شيكو (نورتون)

تعتبر هذه الحضارة من أقدم الحضارات التي قامت في الأمريكتين، وتعتبر واحدة من ستة مواقع نشأت فيها الحضارة بشكل منفصل في العالم القديم، سُميت بحضارة «كارال»، وكانت الحياة فيها على شكل ٣٠ تجمعا سكانيا رئيسيا، في المنطقة التي تعرف اليوم

بإقليم «نورتي شيكو» الواقع في الجزء الشمالي من ساحل «البيرو»، لم يُعرف بالضبط متى نشأت هذه الحضارة بالتحديد، لكن أجمع العلماء على أنها موجودة منذ آلاف السنين، وربما تكون كانت موجودة وموازية لحضارات بلاد الرافدين وقدماء المصريين. ازدهرت هذه الحضارة ووصلت لذروتها في عام ٣٠٠٠ ق.م، ووقتها كانت تضم ٢٠ مدينة كبيرة، و١٠ مدن صغيرة، وقامت هذه الحضارة المتقدمة على الزراعة والصيد واشتهروا بزراعة القطن وصناعة الخزف، وتُشير الاكتشافات الأثرية إلى وجود خيوط ملابس ومنسوجات قطنية، وظهر تقدمهم الفكري في تشييد المباني والمدن بطرق خاصة، مستخدمين المواد النباتية في المباني، والأهرامات المُدرَّجة، والأفنية الدائرية والنصف دائرية.

هجر السكان مدينة «كارال» بالكامل وبطريقة سريعة، ولا يعلم أحد أسباب هذه الهجرة التي حدثت نحو عام ١٢٠٠ ق.م، والتي ربما تكون مناخية أيضًا.

حضارة الفصح (جزيرة القيامة)

حضارة الفصح (جزيرة القيامة)

تعتبر جزيرة القيامة التي تقع على الشاطئ الجنوبي للمحيط الهادئ، والموجودة الآن في ضمن حدود تشيلي، من أكثر مناطق العالم غموضا، وأكبر مثالا للحضارة المفقودة. اشتهرت تلك الحضارة بتماثيلها الغامضة المقسمة لصغيرة وعملاقة على شكل رؤوس بشرية موزعة على طول ساحل الجزيرة والذين بدوا كحراس للشاطئ، وكان يطلق السكان على هذه التماثيل اسم «مواي». وتم اكتشاف تلك الجزيرة في عام ١٩١٤م عندما زارها فريق بحث

بريطاني، ثم توقف، ثم تلاه فريق بحث فرنسي عام ١٩٣٤م، وجاء تقريرهم النهائي ينص على أن: هذه الجزيرة كانت مأهولة بالسكان من شعب غير محدد بالضبط، ولكن ما تم تحديده أنهم كانوا يسكنونها في العصر الحجري الأخير، أي منذ نحو ٤٥٠٠ عام ق.م، وبالنسبة لحزمة التماثيل الموجودة هناك الصغيرة والضخمة، فقالوا إن تماثيل الرؤوس الصغيرة التي هي بحجم رأس الإنسان قد صنعوها في القرن الأول الميلادي، ثم بعد ذلك بقرون استطاعوا صنع نفس الأشكال لكن على هيئة هذه التماثيل الضخمة.

وبالنسبة لنهاية تلك الحضارة فقد دل تاريخ عنصر الكربون المشع أن كارثة رهيبة أصابت الجزيرة عام ١٦٨٠م، فرحل الجميع عن الجزيرة أو اختفوا تماما، وهناك رأي آخر يقول إن سكان هذه الجزيرة أثناء قرون استيطانهم فيها استنفدوا كافة خيراتها وثمارها وأشجارها ومزروعاتها مع الزمن، فأصبحت أرضا قاحلة، فرحلوا عنها.

حضارة البنط (بونت)

حضارة البنط (بونت)

هي حضارة بلاد «بونت»، وهذا الاسم أطلقه عليهم القدماء المصريون، حيث كانت بلاد «بونت» هي الشريك والحليف التجاري الأول للمصريين، وكانت أول بعثة معروفة إلى بلاد «بنط» قد اتجهت في عهد الملك المصري «ساحورع» من الأسرة المصرية الخامسة، وفي

نفس الأسرة أيضا قامت بعثة أخرى في عهد «جد كا رع»، كما أرسل الملك «منتوحتب الثالث» أيضا بعثة إلى بلادهم، أما الملكة حتشبسوت فكانت هي الأخرى قد أرسلت إليهم البعثات، وهذا اتضح بسبب تسجيل ذلك على جدران معبدها بالدير البحري بالأقصر.
وكانت تسافر البعثات إليهم بغرض إحضار البخور واللبان ونبات المر وأخشاب الأبنوس والذهب والعاج، وحيوانات من إفريقيا مثل القردة والنسانيس والطاووس والنمور وغير ذلك، ويعتقد بعض العلماء أن بلاد «بونت» كانت تقع في الجنوب الشرقي من مصر (بلاد الصومال وجيبوتي وإريتريا وإثيوبيا وشمال شرق ساحل البحر الأحمر في السودان)، ويعتقد البعض الآخر أنها في سواحل ظفار جنوب عمان إلى الشحر وميفعة، من أرض المهرة، جنوب وشرق مملكة حضرموت، وبسبب عدم تحديد أهل هذه الحضارة لم يُعرف كيف انتهت.

حضارة «دلمون»

حضارة «دلمون»

هي تلك الحضارة التي قامت في جزيرة البحرين، وشرق الجزيرة العربية، وسميت باسم «دلمون» لأن مياه البحر تحيطها من جميع الجهات، وذكرها السومريون بـ«أرض الفردوس» و«أرض الخلود والحياة»، وكانت قد قامت قبل ٥٠٠٠ عام تقريبا، وكان موقعها استراتيجيا، حيث إنها كانت المعبر الوحيد ونقطة الوصل بين بلدان الشرق الأوسط والأدنى، وامتدت حضارة «الدلمون» على طول الساحل الشرقي لشبه الجزيرة العربية من الكويت عند

جزيرة «فيلكا» حتى حدود حضارة «مجان» في سلطنة عمان، وحضارة «أم النار» في الإمارات العربية المتحدة، والآن تضم جزيرة البحرين الصغيرة أكبر مقبرة تاريخية اكتشفت في العالم حتى الآن، وهي عبارة عن مجموعة مقابر تم العثور عليها فوق مجموعة من التلال المتجانسة، أما تحت قلعة البحرين وما حولها، فقد عثر المنقبون على سلسلة من المدن القديمة، بارعة التخطيط ومحصنة بشكل واع، ويعود تاريخ بناء أقدم مدينة فيها إلى نحو سنة ٢٨٠٠ ق.م، ونظرا لمهاجمة غزاة البحر للمدينة الرئيسة الموجودة تحت القلعة، فقد قام أهلها بحرقها بعد ٥٠٠ سنة من إنشائها، ثم في ما بعد شيدوا مكانها مدينة أخرى محصنة بشكل أكبر، حيث أحيطت بسور عالٍ.

حضارة «سانكسينجدوي»

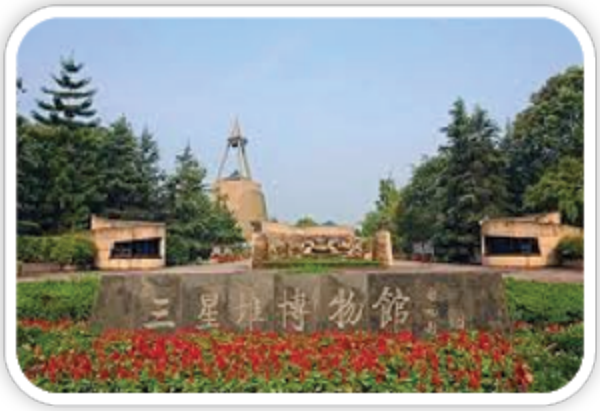

حضارة «سانكسينجدوي»

لم تعرف الأبحاث من هم أهل تلك الحضارة، على الرغم من الأدلة على القدرات الثقافية لأهلها، فقد صنعوا أقنعة من البرونز والذهب بغزارة، وبدأت حضارتهم في الظهور في العصر البرونزي المبكر، فيما يُعرف الآن بمقاطعة «سيتشوان» الصينية، وتم الكشف عن مزارع متميزة، وحفريات تحتوي على نقوش اليشم المعقدة، ومنحوتات برونزية، ولا يُعرف تحديدا متى قامت، ولكن يُعرف فقط أنها ماتت وتحللت منذ نحو ٢٨٠٠ أو ٣٠٠٠ سنة مضت.

لا يُعرف سبب اختفائها واندثارها لسنوات طويلة، ولكن بعد اكتشاف مدينة أخرى قديمة اسمها «جينشا»، ظهرت أدلة جديدة أكدت أن سكان حضارة «سانكسينجدوي» كانوا قد تركوا منازلهم وهاجروا إلى تلك المدينة الجديدة، وفي عام ٢٠١٤م، قال الباحثون في الاجتماع السنوي للاتحاد الجيوفيزيائي الأمريكي:

«إنه في هذا الوقت تقريبا، وقع زلزال كبير وأحدث انهيارا أرضيا، وغير سريان مجرى نهر «مينجيانغ»، فانقطعت عنهم المياه، ومن ثم أنشأوا وطنا جديدا.

حضارة «عيلام»

حضارة «عيلام»

عُرفت تلك الحضارة بعد ما تم العثور على سجلات قديمة خاصة بها تعود إلى ٣٠٠٠ سنة ق.م، وكانت قد قامت بمنطقة «الأهواز» (هي الإقليم المتنازع عليه بين العراق وإيران، ويقع الآن جنوب غرب إيران)، وامتدت هذه الحضارة من الجنوب إلى مناطق «عربستان» و«كهكيلوية» و«بوشهر» في الأحواز العربية ومن الغرب إلى «البصرة» و«الكوت» في العراق.

اختفت آثارهم ومعابدهم ولم يتبق منها إلا معبد «دور إنتاش»، والذي أثبتت الاكتشافات أنه تم تأسيسه في عام ١٣٠٠ ق.م على يد الحاكم العيلامي «إنتاش جال». وكحضارة المايا هي أيضا لها سلالة باقية بعادات وتقاليد ولغة خاصة، ولغتهم هي اللغة «العيلامية» وهي لغة معزولة مستقلة وصعبة، ولم تتأثر بلغات الجيران ولم تتأثر بهم كالسومرية والسامية وغيرهم، وكانت عاصمة حضارة العيلامين هي مدينة شوشان (سوسة)، اختفت تلك الحضارة للأبد ولكن بشكل غامض ومحير، وتعتقد بعض الأبحاث أن اختفاءها كان بسبب ظروف مناخية قاسية أيضا.

حضارة هوريانس (أوركيش)

حضارة هوريانس (أوركيش)

شعب «الهوريانس» هم شعوب العصر البرونزي في الشرق الأدنى، وخلفاؤهم يعيشون حاليا في سوريا، ولهم لغتهم الخاصة، وكانت حضارتهم لها تأثير كبير على حضارة الحيثيين، ويعتقد الكثير من العلماء أن «تل موزان» هي نفسها مدينة أوركيش الأثرية القديمة، وهي مدينة مهمة كانت مركزا مقدسا لشعب «الهوريانس». ومن آثار تلك الحضارة القديمة أسدين برونزيين شهيرين قد تم بيعهما في مدينة «عامودا» السورية بأربعينيات القرن الماضي، ليذهب أحدهما إلى متحف «اللوفر» في باريس، والآخر إلى متحف «ميتروبوليتان» في نيويورك، ويوجد أدلة أثرية أخرى منها الكثير من طبعات الأختام الطينية، إحداهما تخص أحد ملوك أوركيش، منقوش عليها اسمه «توبكيش» ملك «تل موزان»، والتي يرجع تاريخها إلى ٢٢٥٠ قبل الميلاد، كما نجم عن الاكتشافات وجود

ساحة واسعة أمام شرفة المعبد وسط التل، وعدد كبير من السلالم الحجرية وجزء من أحد القصور، وإن دل هذا على شيء، فسيدل على التطور الحضاري للعمران الذي قام على هذه الأرض.

أجمع العلماء على أن هذه الحضارة قد دُمرت نتيجة للصراعات والحروب.

حضارة «الحيثيين»

حضارة «الحيثيين»

«الحيثيون» هم أحد الشعوب القديمة، وهم شعب «هندو-أوروبي» سكنوا بآسيا الصغرى وشرقي الأناضول وشمال بلاد الشام منذ ٣٠٠٠ ق م، وقد عُرفوا باسم «ختي»، وكان سكانها يسمون أنفسهم «نسيين»، وقد ذُكروا في التوراة باسم «الحيثيين»، وسماهم الرومان «هيثي»، وعرفت حضارتهم ذروة الازدهار ما بين عامي (٢٠٠٠ – ١٢٠٠ ق.م)، عندما أقاموا العاصمة القوية «هاتوشا»، وفي نحو ١٨٠٠ ق.م حكم «الحيثيون» إمبراطورية كان مركزها «كابدوكية»، وتقدموا عسكريا على يد ملكهم «مرشلش الأول» الذي استطاع أن ينهب

مدينة بابل، والتغلب على أسرة «حمورابي»، وبحلول عام ١٤٠٠ ق.م، كان الحيثيون هم القوة العظمى في آسيا، وبحلول عام ١٢٩٠ ق.م استطاع الحيثيون القضاء على إمبراطورية «الميتانيين»، فانتقل صراعهم ليواجه المصريين بقيادة «رمسيس الثاني» والذي انتصر عليهم في «قادش»، ثم وقعا اتفاقية صلح.

وبعد هذه القوة، سقطت الإمبراطورية «الحيثية» بعد مجموعة هجمات جاءتهم من شعوب البحر، لتقضي على تلك الحضارة في أواخر القرن الثاني عشر ق.م، وقامت على أنقاضها الممالك السورية الصغيرة مثل «قرقميش» و«حلب» و«حماة» وغيرها.

حضارة بيل بيكر (القدور الجرسية)

حضارة بيل بيكر (القدور الجرسية)

هي الحضارة التي سكنت جميع أنحاء قارة أوروبا في الفترة من (٢٨٠٠ - ١٨٠٠ ق.م)، وبسبب أنها مجهولة فقد أطلق عليها العلماء هذا الاسم بسبب الاكتشافات التي عثروا عليها، والتي تميزت بشكل الجرس المقلوب، لذلك أسموها حضارة «الأجراس المقلوبة»، وكانوا قد تفننوا في صنع كؤوس الشرب والقطع النحاسية، وقبورهم كانت كثيرة ومميزة، ففي التشيك وحدها يوجد ١٥٤ مقبرة، إضافة إلى الأبنية الموجودة في «ستونهنج»، ويعتقد الباحثون أن هذه الشعوب هي التي رتبت الأحجار الزرقاء الصغيرة الغامضة في هذا الموقع الموجود في ما يعرف حاليا بـ«ويلز».

لم يعرف السبب الرئيسي حول انتهاء تلك الحضارة، ولكن ربما التغيرات المناخية هي السبب، أو ربما قد تفرقوا وتشتتوا لجماعات مستقلة ساهمت بعد ذلك في نشأة حضارات متتالية.

حضارة أم النار

حضارة أم النار

هي الحضارة التي قامت في شمال الإمارات العربية المتحدة وشمال سلطنة عمان، تحديدا في العصر البرونزي من عام ٢٦٠٠ ق.م. إلى ٢٠٠٠ ق.م، ونسبة للأدلة الأثرية المكتشفة فيها فإن السكان الأوائل للإمارات العربية المتحدة كانوا قد عملوا في الصيد وصهر النحاس، ومارسوا التجارة خارج حدود الجزيرة، ليصلوا إلى بلاد الرافدين ووادي السند. وقد عثروا في مقابرهم الأثرية على أدوات زينة شخصية وحليّ، وعقود ومجوهرات ودبابيس شعر ذهبية، وأسلحة نحاسية وأدوات فخارية حمراء، كما اكتشفوا صنارات صيد وشِباك لغطاسين، وذلك لأن الصيد كانت المهنة الرئيسية لسكان هذه الحضارة.

انتهت هذه الحضارة بسبب التغيرات المناخية، فسكان العصر البرونزي لم يتمكنوا من الاستمرار في العيش في هذا المكان الذي يتزايد فيه الجفاف باستمرار، فعرفوا نظام البداوة والترحال، وكانوا يعودون إلى الجزر خلال موسم الشتاء البارد فقط.

حضارة فينيقيا

حضارة فينيقيا

الحضارة الفينيقية كانت حضارة سامية قديمة، نشأت في شرق البحر الأبيض المتوسط وغرب الهلال الخصيب قبل ٢٥٠٠ عام ق.م، وامتدت عبر المدن الساحلية في شمال فلسطين، ولبنان وجنوب سوريا، حتى وصلت إلى «أرواد» شمالا، ثم امتدت في وقت لاحق إلى غرب البحر الأبيض المتوسط وحتى المحيط الأطلسي، ومن أبرز محطاتهم «قرطاج» والمدن الساحلية الكنعانية الكبرى، وانتشرت الحضارة عبر البحر المتوسط بين عامي ١٥٠٠ حتى ٣٠٠ ق.م، قاموا بتنظيم حضارتهم على غرار دول اليونان القديمة، وربما كانت أبرز المدن التي طغت عليها تلك الحضارة «صور» و«صيدا» و«أرواد» و«بريتوس» و«جبيل» و«قرطاج»، وفي حوالي عام ١٠٥٠ ق.م، ظهر استخدام الأبجدية الفينيقية في هذه العواصم وتم تعميمها، وانتشرت من قِبل التجار الفينيقيين في جميع أنحاء الشرق الأوسط، ليعترف بها العالم ويستوعبها.

ويعتقد بعض العلماء أن الفينيقين هم الكنعانيون، تلك المجموعات السامية، أبناء «سام بن نوح» الذين كانوا بدوًا سكنوا الصحارى كبقية الدول العربية، وربما يكون الدليل على ذلك أن حدود كنعان ما قبل سنة ١٢٠٠ ق.م.، كانت تبدأ من خليج «إسكندرون» وممتدة عبر

الساحل حتى شمال شرق مصر، وشرقا نحو البحر الميت وتمتد شمالا حتى تصل بمحاذاة نهر الفرات، وهذه المناطق تعتبر منخفضة عن سطح الأرض، ولفظ «كنعان» يعني سكان المنطقة المنخفضة، أي الساحل، وبذلك يكون أصل كلمة «كنعان» هو فعل «كنع» أي انخفض باللغة السامية، وتعني أيضا كنع الإنسان في الأرض أي بنى وركع وصلّى، واسم «فينيقيا» ربما من «فينيكس» حيث أطلقه اليونانيون أو المصريون أيضا بمعنى «سكان المنطقة المنخفضة».

انتهت الحضارة الفينيقية بغزو الملك الفارسي «سايروس» لها عام ٥٣٩ ق.م، ثم قسم الفرس فينيقيا إلى أربع ممالك رئيسية: صيدا، صور، أرواد، وجبيل، ثم بدأ التأثير الفارسي يطغوا على السكان، وانخفض التأثير الفينيقي بعد ذلك، حتى تفككت الحضارة في ٣٥٠ إلى ٣٤٥ ق.م.

حضارة «كوش»

حضارة «كوش»

هي حضارة وادي النيل النوبية القديمة، والتي أطلق عليها فيما بعد «الفراعنة السود»، والتي قامت في منطقة جنوب الشلال الأول والواوات على شماله في بلاد النوبة العليا

والسفلى، قبل عام ٢٤٠٠ ق.م، وكان لها ثلاثة عواصم متتالية عبر التاريخ (كرمة ونبتة ومروي).

تنافسوا بقوة مع مصر في الشمال، وخصوصا خلال الفترة المتأخرة من تاريخ مصر القديمة، بل إنهم مع الوقت استطاعوا احتلال مصر، وحكموا كفراعنة الأسرة الخامسة والعشرين لأكثر من قرن، وكانت قوة عظمى في عصرهم الذهبي بين القرنين الثامن والرابع قبل الميلاد، حيث امتدت إمبراطوريتهم الشاسعة من سواحل البحر الأبيض المتوسط إلى أعماق أفريقيا، جاعلة من مناطق نفوذها مساحة تبادل للفنون والهندسة واللغات والأديان، ويقول الباحثون إن تأثيرهم الثقافي والاقتصادي والسياسي والعسكري بادئ الأمر، جاء من الإمبراطورية المصرية الواقعة في الشمال. وبنى ملوك «كوش» أكثر من ٢٤٠ هرما في العاصمة «مروي»، والعديد من المعابد أهمها معبد الإله الأسد «أباداماك».

اندثر صيت «كوش» عالميا في القرن الرابع الميلادي، ولم تعد لعاصمتهم الأخيرة «مروي» الأهمية السياسية التي عرفت بها من قبل، وليس معروفا بالضبط ما الأسباب التي أدت إلى نقل «الكوشيين» عاصمتهم نقلة ثالثة إلى الجنوب إلى «سوبا» شرق النيل الأزرق، ونقلة رابعة بعدها إلى موقع «سنار» الحالية، ولكن هناك رأي يزعم بأن مملكة «أكسوم» الجنوبية أسقطت مملكة «مروي» على يد الملك المسيحي «إيزانا».

حضارة «مجان»

حضارة «مجان»

هي الحضارة قصيرة الأمد التي أقامها الملك «مانيوم»، والتي تم اكتشافها من خلال المدونة المكتوبة على تمثال الملك الأكدي «نرام سن» (٢٢٩١-٢٢٥٥ ق.م)، حيث ذكر أنه استطاع هزيمة أهالي حضارة «مجان»، وتغلب على ملكهم «مانيوم» أو «مانو» وقام بأسره، وهذه الحضارة كان قد أقامها أهل عُمان، عندما كانوا قد ثاروا على العراقيين الأكديين الذين أخضعهم لحكمهم والد «نارام سن». ازدهرت هذه الحضارة في وقت بسيط جدا، وتميزوا في صناعة وبناء السفن، وركبوا البحر وعززوا علاقاتهم التجارية.

والجدير بالذكر أن نهاية هذه الحضارة قد وقعت بعد تدميرها من قبل الملك الأكدي «نرام سن» كما ذكرنا.

حضارة «الأولمك»

حضارة «الأولمك»

هي الحضارة التي نشأت في الأراضي الاستوائية المنخفضة بجنوب وسط المكسيك، وعرفت هذه الحضارة التطور التجاري الراقي بجانب الهندسة المعمارية المذهلة، وهذا واضحا في آثارهم المتميزة، فلقد بنوا المدن بمساكن مرتفعة في طراز جليل، وبنوا بكل مدينة قاعة ضخمة لاحتفالاتهم، وتزينت مدنهم بالتماثيل الحجرية الرائعة، والأهرامات المخروطية، والرؤوس الضخمة التي تميزوا بصنعها من الحجر، ومن أكبر مدنهم مدينتا «تينوتشتلان» و «بوتريو نوفو» واللتان بُنيا بعد مدينة «سان لورانزو» في عام ١٤٠٠ ق.م.

اختفت تلك الحضارة بشكل سريع، وتحديدا في عام ٤٠٠ ق.م، وللعلماء أكثر من رأي في انهيار تلك الحضارة، فبعضهم يقول إنهم هجروها - وخصوصا الجزء الشرقي - بسبب ثورة بركانية نجم عنها تغيرات بيئية، ويقول البعض الآخر إن هناك آثار حروب ودماء، فربما قد هاجمهم أقوام غازية وقضوا عليهم، ولكن لم يعرف أحدا من الغازي ومن أين أتى.

حضارة الميسنيين

حضارة الميسنيين

هي الحضارة التي أقامها الميسنيين بعدما انشقوا عن الحضارة «المينوية» في بعض الجزر بجنوب اليونان بعد عام ١٦٠٠ ق.م، والتي قامت بعدما غزوا وبنوا الكثير من المدن الكبيرة مثل (ميسين وتيرنوس وبيلوس وأثينا وطيبة وأركمينوس ولولكس وكنوسس). واشتهر مؤسسو تلك الحضارة بحنكتهم العسكرية، وكانوا يملكون أسطولا كاسحا استخدموه في التجارة والغزوات، وكانوا حرفيين بارعين معروفين بـ«بحر ايجة» بأسلحتهم ومجوهراتهم.

اختلطت معظم حقائق هذه الحضارة بالأساطير الإغريقية، وانتشرت تلك الأساطير في مدينة «ميسين» ومن ضمنها أسطورة الملك «أجاممنون» الذي قاد الإغريق في حرب مدينة «طروادة» الشهيرة، التي تقع في غرب تركيا، والتي بلغت ذروة ازدهارها في الألف الثالث قبل الميلاد، وقد اشتهرت «طروادة» بحربها مع «الإسبرطيين» بقيادة الملك «مينلاوس» ملك «إسبرطة» وقيادة أخيه «أجاممنون».

اختفت حضارة «الميسيين» فجأة، ولم يُعرف السبب الدقيق وراء اختفائها، ولكن هناك بعض الآراء، منها: أنه ربما قد نشأ صراع بين طبقة الفلاحين وطبقة الحكام قضت عليهم، وهناك رأي آخر يقول إنه ربما قد ضربتها الزلال، ورأيٌ ثالث يعتقد أن تجارتهم قد انهارت ومن ثَم قد انهاروا، ورأي رابع يقول إنه ربما قد تم غزوهم من القبائل القادمة من الشمال

مثل «الدوريين»، الذين استوطنوا المنطقة بعد سقوط «الميسنيين»، أو ربما من شعوب البحر الذين كانوا قد هاجموها من وقت لآخر.

حضارة الأناسازي (بويبلو)

حضارة الأناسازي (بويبلو)

«الأناسازي» حضارة قد نشأت في نحو عام ١٢٠٠ق.م، وهي حضارة السكان الأصليين لأمريكا الأصلية، ونتجت عن اندماج الولايات المتحدة الأربعة وهي (نيو مكسيكو، أريزونا، كلورادوا، أوتاواه)، وكان غالبية سكان تلك الحضارة صيادين وجامعي ثمار، وكانوا يعيشون في منازل مسطحة فوق الأرض، وبعد ذلك عرفوا زراعة المحاصيل والخضروات، وكانوا متقدمون في المصنوعات الفخارية، التي وُجدت بمساكنهم المنحوتة في الجبال أو المصممة بالحجارة والطين، وكذلك سلال وصنادل خشبية، وحبال من فرو الأرانب ومطاحن حجرية وأقواس وأسهم، تقدمت تلك الحضارة ثقافيا، وعرفوا هندسة المدن، فقد شيدوا طرقا معقدة، ومتصلة لمئات الأميال.

اختفت تلك الحضارة عندما تركها أهلها وهاجروا في نحو عام ١٣٠٠ميلادية، إلى هضاب «هوبي» و«ريو جراندي»، ربما بسبب التضخم السكاني وقلة الموارد والغذاء نتيجة لعوامل الجفاف التي طغت على بلادهم، وكان هذا واضحا في ما وجده الباحثون من أشلاء وعظام بشرية، تعود للقرن الثاني عشر في المواقع التي كانت تعيش فيها شعوب

«أناسازي»، ما يجعل الجميع يعتقد أنهم أكلوا لحوم بعضهم في ذروة مجاعة كبرى، فلقد عُثر على رفات بشرية في أوعية طهي مقطعة بشكل منهجي، وهي على نفس حالة عظام الحيوانات المستخدمة لأغراض الطهي، وتوجد مؤشرات كثيرة تدل على أن تلك العظام تعرضت للهب وطُبخت على النار، اختفى باقي المهاجرين واندثروا ولا يُعرف ما هي نهاية هذا الشعب بأكمله، لكن يعتبر «الأناسازي» هم السلالة الأصلية لليهود الحاليين.

حضارة «نوق»

حضارة «نوق»

حضارة «نوك» أو «نوق» هي تلك الحضارة الأفريقية، التي قامت غرب أفريقيا (شمال ووسط نيجيريا حاليا) في نحو ١٠٠٠ سنة ق.م، وكان المجتمع متطورا جدا في هذه الحضارة، حيث كانت أول حضارات أفريقيا جنوب الصحراء إنتاجا لتماثيل الطين «التيراكوتا» بحجم الإنسان الطبيعي، التي تظهر فيها الأشخاص بشكل غريب، وكان قد استخدم «النوق» الحديد قبل عام ٥٥٠ ق.م، فصهروه وطرقوه، وتميزوا أيضا بصناعة المشغولات المعدنية؛ كتشكيل السكاكين الصغيرة وأنصال الرماح والأساور. وقد تم اكتشاف هذه الحضارة الغامضة عام ١٩٢٨ صدفة على يد مجموعة من عمال مناجم القصدير النيجيرية، وأثبتت الاكتشافات أن هذه الحضارة أنشأت نظاما قضائيا معقدا، ونشروا العدل بينهم.

اختفت تلك الحضارة في ظروف مجهولة في حدود عام ٣٠٠ ق.م، ويقال إنها تطورت لتصبح أحد ممالك «اليوروبا»، بينما هناك رأي آخر يقول إن عدد السكان قد تقلص بشكل حاد، ربما بسبب التغيرات المناخية الحادة، أو بسبب المجاعات أو الاعتماد المُفرط على الموارد حتى استنفدوها.

حضارة «الأنباط»

حضارة «الأنباط»

هي الحضارة التي بدأت في القرن السادس قبل الميلاد، و«الأنباط» هم الأشخاص الذين أقاموا تلك الحضارة السامية، في بعض مناطق الأردن وكنعان والجزيرة العربية، والذين اشتهروا بالثراء بسبب أنهم كانوا يسكنون على مفترق الطرق التجارية، فمارسوا التجارة، وكانت تلك الحضارة تملك سمة كانت نادرة في زمانهم، وهي سمة المساواة، فلا يوجد بينهم عبيد، فكل فرد يساهم بواجبه في المجتمع. لم يتبق من آثارهم إلا مدينة عظيمة اسمها «البتراء»، و«البتراء» مدينة منحوتة بشكل تام في الجبل، كانوا يطلقون عليها اسم «الخزينة»، وفنونها شبيهة بالطراز الإغريقي، وذلك بسبب أن الأنباط كانوا قد تأثروا بالإغريق والرومان والعرب والأشوريين.

ونسبة لآراء العلماء، انتهت حضارة الأنباط خلال القرن الرابع الميلادي، وقد أثبتت الأبحاث أن النبطيين قد هاجروا وتركوا بلادهم بشكل منظم ومرتب، وهذا دليل على أنهم لم يتم

إجبارهم أو إرغامهم على الهجرة بواسطة حضارة أخرى، وهناك رأي يقول بأن هذه الهجرة قد تمت بسبب التدهور الاقتصادي، الذي نجم عن تغير طرق التجارة ونقلها إلى الشمال.

حضارة «الزابوتيك»

حضارة «الزابوتيك»

هي حضارة أقامها السكان الأصليون لأمريكا اللاتينية قبل الوجود الكولومبي، والتي ازدهرت في وادي «أواكساكا» جنوب ميزو أمريكا، في نفس منطقة الوسط الأمريكي، الذي شهد حضارة «المايا» و«الأزاتيك» في ما بعد، ونظرا للدلائل الأثرية الموجودة هناك، قدر العلماء عمر تلك الحضارة بما يقارب ٢٥٠٠ عاما على الأقل، ومن أهم تلك الآثار، المدينة القديمة التي تُسمى «مونتي ألبان»، التي وجدوا بداخلها مقابر متميزة ممتلئة بالحليّ والذهب فائق الجمال، ووجدوا فيها مباني رائعة ومتميزة، وقد عرف سكان تلك الحضارة الألعاب الرياضية، وأنشأوا ملاعب للكرة.

استمرت هذه الحضارة لأكثر من ١٢٠٠ عام، ويعتقد العلماء أن انهيارها قد وقع بسبب الجفاف والتدهور الاقتصادي.

حضارة أكسوم (الحبشة)

حضارة أكسوم (الحبشة)

هي الحضارة الحبشية القوية والغنية التي قامت في إفريقيا، فوق جبال «عدوة» شرق إقليم «تجراي» بأرض إثيوبيا، والتي قد تأسست عام ٣٢٥ ق.م، بقيادة «السلالة السليمانية» التي ترجع حسب بعض الأساطير إلى «الملك سليمان» نبي الله عليه السلام، والذي ضم في ما بعد مملكة سبأ، وزُعم أنها تضم تابوت العهد.

ذاع صيتها بسبب تجارتها للعاج والذهب والمحاصيل الزراعية، ووصلت تجارتها إلى الهند شرقا، وروما شمالا، وكانت حضارة متطورة جدا ولها عملة مسكوكة خاصة بها، تميزوا بتشييد المسلات على نطاق واسع، والتي وضعوها كقبور لملوكهم ونبلائهم.

في بداية نشأة الحضارة كانوا يعبدون آلهة عديدة أهمها «أستار»، وفي عام ٣٢٤ ميلادية، انتشرت الديانة المسيحية هناك، وكان يحكمها في ذلك الوقت الملك «إيزانا» أو «عيزانا» الذي اعتنق المسيحية ونشرها في عموم البلاد، لتصبح مملكة مسيحية، ومع بدايات القرن السابع الميلادي بدأت حضارة أكسوم في الأفول أمام انتشار الإسلام، ولكنها لم تختفِ بشكل تام، وأسباب اختفائها مازالت غامضة، فحسب الأسطورة المحلية هناك يقال إن ملكة يهودية تدعى «يوديت» كانت قد هاجمتهم وهزمتهم وأحرقت الكنائس، وتقول بعض الآراء الأخرى إن ملكة من ملوك «آل الحموية» هزمتهم، وهناك رأي أخير يعتقد أن اختفاءها كان ناجما عن حدوث مجاعة كبيرة بسبب التغيرات المناخية، والعزلة التجارية والزراعة المجهدة للأرض.

حضارة «سيجريا»

حضارة «سيجريا»

هي الحضارة السريلانكية التي تعد واحدة من أجمل وأعرق الحضارات القديمة، والتي قامت في محافظة «ماتيل» وسط سريلانكا حاليا، في القرن الثالث قبل الميلاد، وفي المنطقة الواقعة شرق الصخرة الشهيرة المسماة بصخرة «سيجيريا» أو صخرة الأسد، البالغ ارتفاعها ٣٣٧ مترا عن سطح الأرض، وكانوا قد بنوا لها سلالم يحرسها تمثال لأسد ضخم. كبرت وتزينت وتجملت تلك الحضارة عندما عرفوا فنون الرسم وأتقنوها، تحديدا في حلول عام ٤٤٧ ميلادية، وظهر ذلك عندما شهدت جدران هذه المدينة اللوحات البارعة لنساء جميلات، وقد بنيت تلك الجدران في عهد الملك «كاسيابا»، بعد أن اغتصب الحُكم بقتل أبيه «داتوسينا» بمساعدة قائد الجيش «ميجارا»، ويقال إنه بناها فوق قمة الجبل كي يحتمي بها من أخيه خوفا من أن يقتله انتقاما لأبيه، ولكنه انتحر بعد أن هزمه أخوه في المعركة.

اختفت تلك الحضارة وأصبحت بائدة ولم يتم اكتشافها إلا بعد قرون من انتهائها، في فترة الاحتلال البريطاني للبلد ففي عام ١٨٩٠ م، من قِبل عالم الآثار البريطاني «إتش سي بي بيل»، ولم يعرف سبب اختفائها حتى الآن.

حضارة هوهوكام (بيما)

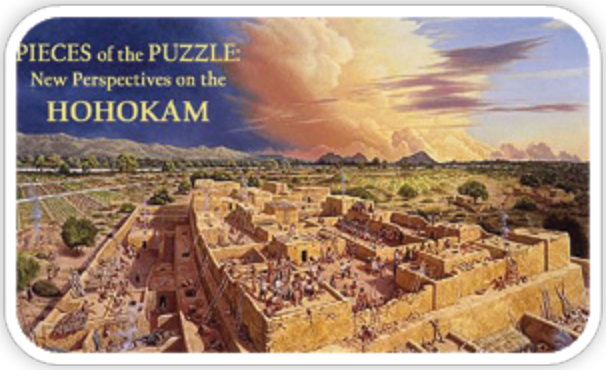

حضارة هوهوكام (بيما)

هي الحضارة التي أقامها أسلاف هنود «البيما» وهنود «الباباغو»، بين القرنين الثاني قبل الميلاد والرابع عشر الميلادي تقريبا، في وسط وجنوب «أريزونا» في المنطقة الجنوبية الغربية من الولايات المتحدة، وجزء من غرب الولايات المتحدة والولايات الجبلية الغربية، والتي كانت جزءا من المكسيك، وحضارة «هوهوكام» شهدت نهايات حضارة «الأناسازي». كانوا قد بنوا في بادئ الأمر القرى بالخشب والطين، واعتمدوا على زراعة الذرة وجمع البقول البرية والفواكه والصيد، وحفروا قنوات للري بطول ٣ أميال (٥ كيلومترات) في وادي «نهرغيلا»، التي أتت بمياه النهر إلى الحقول حيث كان نظام الري أعظم إنجازاتهم، كما قاموا بالعديد من الصناعات الخزفية، وكان يتم بناء الأسوار حول كل قرية، ومع مرور الوقت تطور نظام الأبنية وظهرت بنايات متعددة الطوابق مع جدران ضخمة، وأصبح حفر البيوت مهنة بارعة، ونظام الري وصل إلى لأعلى مدى له.

انتهت هذه الحضارة واختفت بحلول عام ١٤٠٠ ميلادية، ولا يُعرف أسباب انهيارها حتى الآن، ربما عوامل طبيعية ومناخية، اختفت هذه الحضارة وبقيت سلالتهم المتمثلة الآن في هنود «البيما» و«الباباغو» اللذين سكنا المنطقة لاحقا.

حضارة «نازكا»

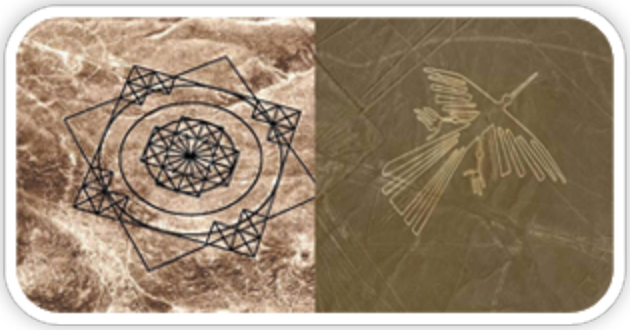

حضارة «نازكا»

تعتبر هذه الحضارة من أكثر حضارات العالم لغزا وغموضا، ولعلك قد شعرت بذلك عندما شاهدت «خطوط نازكا» العملاقة من قبل، وهذه الحضارة من ضمن حضارات أمريكا الجنوبية، وقد قامت في «البيرو» ناحية ساحلها الجنوبي في عام ٢٠٠ ق.م، وشملت الوديان «نازكا» و«أكاري» و«تشينتشا» و«إيكا» و«بالبا» و«بيسكو»، وتميز هؤلاء بصناعة الفخار الملون بألوان عديدة، الذي طغى عليه التعقيد التقني النادر، والألوان المتدرجة والمنسجمة، ومن أشهر الرسومات التي نقشوها، رسومات لحيوانات عملاقة كالحيتان، وأخرى مثل القرد وغيرها. وعلى امتداد الساحل يبقى حتى الآن أشكال على هيئة خطوط متوازية ومستقيمة، ربما حدثت عندما تم رفع الأحجار وجرها، ورسومات أخرى وُصفت بأنها عبارة عن مدارج لعربات الآلهة، فربما كانت تتم هنا مسارات لطقوس الحج لكهنة الماء.

ومنطقة وادي «نازكا» فيها أغرب الخطوط والرسومات على الإطلاق، لذلك سميت تلك الحضارة باسم هذا الوادي، ويرى الكثير من العلماء أن خطوط «نازكا» ربما لم يرسمها إلا عمالقة، بسبب كبر حجمها، فلا يستطيع أحد رؤية الشكل المرسوم كاملا إلا بالطيارة، وما هو متوقع أن هذه الرسومات لم تُرسم لغرض إلا تسجيل وجود الأشخاص في هذا المكان في هذا الوقت، وتسجيل شكل البيئة.

اختفت تلك الحضارة في عام ٦٠٠ م، ولا يزال الغموض سائدا على سيرتها، من هؤلاء؟ وكيف عاشوا، وكيف ماتوا؟ وكيف انتهت حضارتهم؟! لا يعرف أحد.

حضارة موغويون

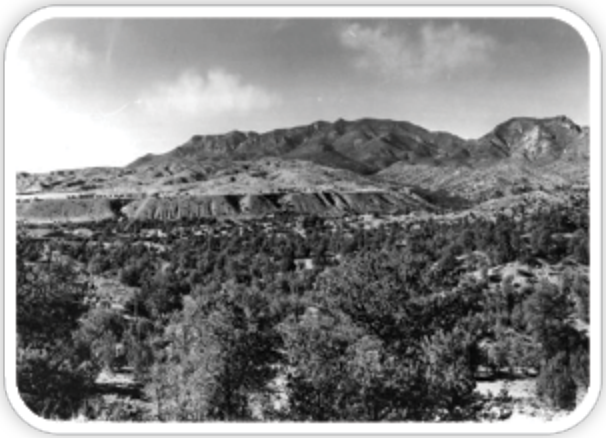

حضارة موغويون

هي حضارة أخرى قامت على أرض «أريزونا» وتحديدا في منطقة الوسط، وتوسعت حتى سلسلة الجبال الممتدة في غرب «نيو ميكسيكو»، أقامها الهنود الحمر بين القرنين الثاني قبل الميلاد حتى الثاني عشر الميلادي. في بادئ الأمر عاش مؤسسو تلك الحضارة في قرى صغيرة في بيوت دائرية محفورة في الأرض بعمق متر، ويتم الدخول إليها بأنفاق، ومغطاة بالأعمدة والطين، ثم عرفوا الصيد بشكل متأخر بعد ما أدخلوا على حضارتهم الكثير من التطورات، منها تغيير بنائهم للبيوت حيث أصبحت تُبنى بشكل شبه مستطيلي في بنيان قوي ومتماسك بعدما تبدلت صناعتها، فبدلا من الطين تم تغييرها إلى أخرى مصنوعة من الحجر، وأقاموا القاعات والبيوت الاحتفالية، أما صناعة الخزف فقد عرفوها وطوروها وأصبحت أكثر تنوعا وترفا.

ثم في الفترة الأخيرة من تلك الحضارة تطور الأمر، وتم استبدال البيوت المحفورة بشقق ووحدات سكنية مذهلة، بعلو طابق إلى ثلاثة طوابق، واحتوت القرى على غرف، وصل عددها من ٤٠ إلى ٥٠ نُظمت حول الساحة، ويعتقد العلماء أن تلك التطورات قد حدثت بعد هجرة شعب «الأناسازي» إليهم من شمال «نيو مكسيكو»، الذين اندمجوا معهم وعاشوا معهم بسلام.

انتهت هذه الحضارة في غضون عام ١٢٠٠ ميلادية، وتم هجر القرى واختفى شعبها لأسباب غامضة لم تُعرف حتى اليوم!

الحضارة الحميرية

الحضارة الحميرية

هي تلك الحضارة التي وقعت في اليمن القديم، والتي قامت في «ظفار يريم»، والتي ازدهرت بعدما ضمت ووحدت الممالك اليمنية المتفرقة، مثل مملكة «سبأ» و«ذو ريدان» و«حضرموت» و«يمنت» وأعرابهم في عام ١١٠ ق.م، يعود أصل الحميريين إلى السلالة السبئية، وكانوا وثنيين في بدايتهم ثم تحولوا لليهودية واعتنقوا الإسلام في القرن السابع الميلادي. بعد هذا الاتحاد انتعش الاقتصاد بعد الاضطراب الذي كان قد تمكن من الممالك، فاعتمدوا على الزراعة، وتجارة البخور واللبان والصمغ، وأقاموا عددا من السدود الصغيرة إضافة لترميمهم سد مأرب القديم. ومن مرحلة القوة تولدت مرحلة الضعف في بدايات القرن السادس الميلادي، بعدما ظهر الانقسام، حيث نادى زعماء القبائل بالانفصال والاستقلال.

وفي عام ٥٣١ ميلادية، بعد مرور ثلاثة عشر سنة على هزيمة الحميريين للأحباش، أرسل «كالب» ملك الحشبة جيشا جديدا بقيادة «آبراهموس» (أبرهة الحبشي) لغزو اليمن مجددا والانتقام من الحميريين والقضاء على حكمهم وحضارتهم، وقام أبرهة ببناء «كنيسة القليس» في صنعاء، ودخلت اليمن تحت حكم الحبشيين، وأجمع أبرهة حملة عسكرية،

واتجه بها نحو مدينة «مكة» لهدم الكعبة المشرفة، في نفس العام الذي ولد فيه النبي «محمد» صلى الله عليه وسلم، نحو ٥٧٠ م وقد فشلت الحملة رغم استعانته بالفيلة.

حضارة «نيا»

حضارة «نيا»

حضارة «نيا» هي حضارة قديمة قامت في صحراء الصين، تم اكتشافها عن طريق الصدفة البحتة، وبعد التنقيب تم العثور على كنوز كثيرة لا تعد ولا تحصى، وأخشاب منازل قديمة ومعابد مدفونة في الرمال، وبعد الكشف وجدوا أن تلك الحضارة عمرها ١٦٠٠ سنة، وكانت مدينتهم المتطورة الواقعة على طول ٧٠٠٠ كم، متقدمة علميا، وكانت مزدهرة تجاريا، وذلك بسبب موقعها المتوسط بين آسيا وأوروبا وأفريقيا، وهو ما يسمى بطريق الحرير.

انتهت هذه الحضارة بسبب الانحطاط الاقتصادي بسبب تفضيل الطرق البحرية للتجارة مع الصين في ما بعد.

الحضارة الخميرية (أنغكور)

الحضارة الخميرية (أنغكور)

«الخمير» هم شعب قديم في منطقة جنوب شرق آسيا، أسسوا حضارتهم في أعماق غابات شمال كمبوديا، وكانوا قد شرعوا في بناء حضارتهم في القرن السادس الميلادي، بعدما استولوا على مملكتي «شتلا» و«فونان» الهندوسيتين، لتكون إمبراطوريتهم هندوسية واسعة، لتشمل مساحات واسعة من الأراضي التايلندية إلى جانب جميع أنحاء كمبوديا. ولقد أكدت الاكتشافات أنه ربما تكون حضارة «خمير» هي أكبر تجمع بشري في عصرها، نظرا لطرقها العديدة وقنواتها المائية، ولعل من أهم آثارها في عاصمتهم القديمة هو معبد «أنغكور وات» الشهير في كمبوديا والباقي حتى الآن. و«أنغكور» تعد من أشهر المواقع التاريخية في العالم، لما تحتويه من معابد وتماثيل غاية في الإبداع والتصميم المعماري، ومساحتها الكبيرة التي تمتد إلى أكثر من ٤٠٠ كيلومتر مربع، إضافة إلى بحيراتها الشاسعة، ولهذه الأسباب تعد أكبر موقع أثري في العالم.

اختفت الحضارة «الخميرية» كباقي الحضارات المندثرة، ولا يعرف العلماء عوامل اختفائها بالضبط، ولكن بعض الأبحاث اعتقدت أن للكوارث الطبيعية والحروب والمجاعات دورا مهما في انهيارها وطمرها في غابات كمبوديا، ولكن يقول بعض المتخصصين إن هذا بسبب أن الإمبراطورية كان يحكمها «الديفاراجوا» أي الآلهة الملوك، ومع اعتناق «الثيرافادا» البوذية واجهت الإمبراطورية الصعوبات، بسبب قلة الرغبة في العمل للملوك

الآلهة بسبب كفرهم بهم، نتج عن ذلك نقص الطعام، ووقوع مجاعة، ما أوقعهم في الغزو من قبل «الإيوثايا».

حضارة كاهوكيا (المسيسيبي)

حضارة كاهوكيا (المسيسيبي)

حضارة المسيسيبي هي الحضارة التي قامت فيما هو معروف الآن بمنطقة الإقليم الأوسط الغربي والشرقي وجنوب شرق الولايات المتحدة، في الفترة من نحو عام ٨٠٠ بعد الميلاد إلى عام ١٥٠٠ بعد الميلاد وذلك حسب كل منطقة حيث قامت في أماكن متفرقة، وقد بدأ القاطنون على ضفتي المسيسيبي في اتباع نمط حياة مستقل في وادي نهر المسيسيبي، ثم بنوا السد الترابي أو التلال الهرمية أو التلال السدية المقتطعة الكبيرة، وبنوا منازلهم ومعابدهم فوق هذه التلال، وقد اشتهروا بزراعة الذرة بعدما استطاعوا تحويل مجرى أحد فروع نهر الميسيسبي ليروي أراضيهم، كما عرفوا صناعة الفخار المطعم والمزين بالأصداف النهرية والبحرية النادرة، وانتشرت في عصرهم شبكات التجارة على نطاق واسع غربا حتى الجبال الصخرية، وشمالا حتى البحيرات العظمى (أمريكا الشمالية)، وجنوبا حتى خليج المكسيك وشرقا حتى المحيط الأطلسي... ومن أشهر آثارهم المذهلة، مدينة «كاهوكيا» وهي مدينة كبيرة قامت على مساحة تقارب ١٦ كم٢، محاطة بعشرات الأهرام

الترابية والمجموعات الدائرية من البنيان الخشبي، وكان الهدف من بنائها مراقبة حركة النجوم، وأحاطوا بهذه المدينة حوالي ١٠٠ هرم، واحتوت في مركزها على ميدان واسع.

لا يعلم أحد كيف اختفت هذه الحضارة، ولكن تقول بعض الأبحاث إنه ربما بسبب الجفاف والأمراض والأوبئة.

فاكينج جرينلاند

فاكينج جرينلاند

هم الشعوب الجرمانية النوردية والذين بدأوا من «آيسلندا»، ويقال إن قائدهم «إريك الأحمر» كان قد قاد أسطولا من ٢٥ سفينة بغرض احتلال «جرينلاند» في عام ٩٨٥ ميلادية، ليبدأ في بناء مستعمرتين، واحدة شرقية كبيرة وأخرى غربية صغيرة.

لاحظ الكثير من العلماء تحولهم الكبير من الوحشية إلى الحضارة بعد فترة قصيرة لا تتعدى قرنين من الزمان، حيث عرفت بلادهم السلام بعد اعتناقهم الديانة المسيحية، ثم بنوا مستوطنات جديدة في (آيسلندا، وجرينلاند، وأمريكا الشمالية، والأطلسي الشمالي)، ثم توسعت إمبراطوريتهم لتُأسس ممالك في شبه الجزيرة الإسكندنافية على طول الحدود مع الممالكِ الأوروبية في الجنوب، وبعد الوحدة والاندماج ازدهرت حضارتهم وازدهرت

الزراعة والتجارة، وبدأوا في تربية قطعان الماشية، كما بنوا كنائس حجرية مميزة لا تزال آثارها موجودة حتى اليوم.

اختفت حضارة «الفاكينج» في بداية العصر الجليدي الصغير في القرن الرابع عشر، والذي تسبب في تجمد الطرق البحرية المُستخدمة في السفر، ما أثر ذلك على موت تجارتهم الرئيسية، وهي تجارة العاج المستخلص من حصان البحر الذين اشتهروا بصيده، واختفت المستعمرة الغربية من الوجود، بينما بقيت المستعمرة الشرقية قليلا من الوقت تُكافح رغم الظروف المناخية القاسية، ويُعتقد أنهم ماتوا جوعا في ما بعد أو ربما أبادهم الإسكيمو الذين وصلوا إلى جرينلاند من كندا قرب نهاية القرن الثاني عشر.

حضارة «المايا»

حضارة «المايا»

هي حضارة كلاسيكية غامضة، اختفت آثارها وطرقها وعمرانها وتماثيلها العظيمة وجميع مدنها الجليلة، بسبب غرقها في أعماق غابات أمريكا الوسطى - كما سبق وذكرنا - تركها سكانها وتبعثروا في قرى صغيرة متناثرة، ولكن برغم ذلك توارث معظم سكان قبائل هذه الغابات المنغلقين على أنفسهم لغات وتقاليد أسلافهم أصحاب تلك الحضارة حتى الآن، ويعتبر العصر الذهبي لتلك الحضارة هو الذي تم في الألفية الأولى بعد الميلاد، وكان لهم العديد من الإنجازات العمرانية والمشاريع الزراعية الضخمة والتي قامت بمنطقة «بيوكاتان» (المنطقة الممتدة من المكسيك إلى جواتيمالا في أميركا الوسطى).

وتُعتبر المايا هي أعظم حضارة في أمريكا الوسطى، ولقد توصل الباحثون إلى أن نهاية تلك الحضارة جاءت بسبب الظروف المناخية القاهرة والحروب الطاحنة، ما أدى لحدوث مجاعة ضخمة، أجبرت السكان بالنزوح بعيدا عن مراكز المدن، والتفرق للبحث عن حيل جديدة لسد احتياجاتهم ومتطلباتهم، للقدرة على البقاء على قيد الحياة.

حضارة الإنكا

(جبال الإنديز)

حضارة الإنكا (جبال الإنديز)

حضارة «الإنديز» هي واحدة من مجموعة الحضارات التي بنتها شعوب الهنود الحمر في منطقة أمريكا الجنوبية، وتعتبر «الإنكا» أكبر هذه الحضارات على الإطلاق في فترة ما قبل العصر الكولومبي، والتي أسسها الملك «مانكو»، وهي التي قامت على أرض بوليفيا والبيرو والإكوادور وأجزاء من تشيلي والأرجنتين، في حوالي عام ١١٠٠ ميلادية.

تطورت وازدهرت حضارة «الإنكا»، وكانت عاصمتها «مدينة الشمس المقدسة» هي أهم الأماكن، حيث اتسمت بالوجاهة والترف، واكتظت بالقصور والمعابد المزينة، وبلغت مساحتها ٩٩٠٠٠٠ كلم٢، وكانت الإدارة في تلك المملكة إدارة مركزية، فالأرض كانت ملكا للدولة لضمان قوت الفقير، وتميزت في بلادهم العدالة الاجتماعية، حيث كانت الدولة تقوم بتوزيع الذهب والفضة ومعادن أخرى وقطعان الماشية، وبخاصة حيوان اللاما، الذي يقوم

بدور المواصلات على العائلات بشكل متساوٍ، وكانوا يرتدون ملابس أنيقة، وأحذية متميزة قد تفننوا في صنعها، وكانوا يسبكون الذهب والفضة بأنفسهم، وكانت لهم دور رعايا للعاجزين والمرضى وكبار السن والمسنين، كما كانوا متميزين في الزراعة، وبنوا الجسور المجدولة بالحبال.

بعد سنوات وقرون طويلة من الرخاء والتقدم، شهدت تلك الحضارة النزاعات على كرسي الحكم، فانقسمت إمبراطوريتهم إلى قسمين ما أضعفها كثيرا، حتى جاءهم الإسبان وغزوهم وقضوا على ملامح حضارتهم، وسرقوا ونهبوا ممتلكاتهم في عام ١٥٣٢ ميلادية.

حضارة الأزتيك

حضارة الأزتيك

هي الحضارة التي أقامها شعب «الأزتيك» في الشمال الغربي من وادي المكسيك، وربما في غرب المكسيك، أما شعب «الأزتيك» نفسه فهو ينتمي إلى آخر عشائر البرابرة التي دخلت وادي المكسيك بالأمريكتين بالقرن الثاني عشر الميلادي، وانطلقت حضارتهم بعد تأسيس مدينة «تينوتشتيتلان» عاصمة دولتهم في عام ١٣٢٥م، وكانت العاصمة «تينوتشتيتلان» التي كانت موجودة على موقع «مكسيكو سيتي» عبارة عن تحفة معمارية، وبها هرم من أعظم أهرامات «الآزتك» وكان يمثل إله الحرب، وكثير من المكسيكيين المعاصرين من الأزتك يتكلمون لغة الأزتيك القديمة «ناهواتل»، وبلغ تعدادهم أكثر من مليون مكسيكي.

كانت إمبراطورية «الآزتيك» قوية جدا، وكان يُطلق عليها «كونفدرالية التحالف الثلاثي المكسيكي»، وكانت لها طقوس دموية عنيفة، حيث عرفت طريقتهم التعبدية فكرة التضحيات البشرية، ما تسبب في مقتل ٢٠٠ ألف شخص سنويا إرضاء للآلهة جميعا، بخاصة إله الشمس الذي كان يحتاج يوميا إلى ضحية جديدة يتم نزع قلبها، في حين بعض الضحايا كان يتم إغراقهم، أو تقطع رأسهم، أو يتم حرقهم، أو إلقائهم من مرتفعات. أما إله المطر فكان إرضائه يتطلب ذبح الأطفال الذين يبكون بصوت عال في عدة أماكن حتى ينزل المطر، في حين أن إله الذرة كان يتم إرضائه برقص عذراء ٢٤ ساعة متواصلة ثم قتلها وسلخها ليقوم أحد الكهنة بارتداء جلدها، وتذكر بعض الآثار أن أحد ملوك «الأزتك» قام بذبح ٨٠ ألف سجين في حفل تنصيبه ملكا إرضاء للآلهة.

انتهت إمبراطورية «الأزتيك» بعد الغزو الإسباني، الذي دمرها في عام ١٥١٩ ميلادية، بقيادة «إرنان كورتيس»، ولكن ظلت حضارتهم ذات تأثير مهم على تطور الثقافة المكسيكية حتى يومنا هذا.

* * *

المراجع والمصادر

كتاب العالم قبل الطوفان – ترجمة وإعداد علاء الحلبي الجزأين الأول والثاني

كتاب حضارات ما قبل التاريخ – تأليف خزعل الماجدي – دار الرافدين – لبنان

كتاب قصة الحضارة: نشأة الحضارة – تأليف ويل ديورانت وزوجته أريل ديورانت - دار الجيل – بيروت ١٩٨٨.

كتاب طوفان نوح بين الحقيقة والأوهام – تأليف جمعية التجديد الثقافية الاجتماعية – دار كيوان ٢٠٠٩

كتاب تاريخ حضارات العالم تأليف شارل سنيوبوس – ترجمة محمد علي – دار العالمية

-كتاب المعارك الفاصلة في التاريخ – تأليف حنا خبّاز - دار الكتاب العربي - بيروت ١٩٥٩.

كتاب أطلس حضارات العالم القديمة - ترجمة عماد الدين أفندي – دار الشرق العربي

كتاب قصة الحضارة: الشرق الأدنى - تأليف ويل ديورانت وزوجته أريل ديورانت - ترجمة: د/ زكي نجيب محمود - دار الجيل – بيروت ١٩٨٨.

كتاب تاريخ الحضارات العام – المجلد (١) تاريخ الشرق واليونان القديمة - تأليف أندريه إيمار - جانين أوبوايه

كتاب تاريخ حضارة وادي الرافدين الجزء (١) – تأليف سوسة أحمد - دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٩٨٣

كتاب الأطلس الثقافي لمصر القديمة – تأليف بينز، جون وجارومير مالك.

كتاب مصر القديمة كتاب - لعالم المصريات الفرنسي جان فيركوتير.

كتاب قصة الحضارة «الهند وجيرانها» - ويل وإيرل ديورانت - ترجمة - د/ زكي نجيب محمود

كتاب حضارة الهند - تأليف روميش تشاندر دات – ترجمة مجموعة اقرأ.

كتاب تاريخ الصين منذ ما قبل التاريخ حتى القرن العشرين تأليف هيلدا هوخام - ترجمة أشرف محمد كيلاني.

كتاب مصر واليونان وروما – تأليف تشارلز فريمان - مطبعة جامعة أكسفورد ١٩٩٦

كتاب تاريخ الشرق الأدنى القديم - تأليف د / أسامة عدنان يحيى

كتاب البداية والنهاية – تأليف ابن كثير سماعيل بن عمر الدمشقي

كتاب التاريخ الإسلامي: الوجيز- تأليف محمد سهيل طقوش - ٢٠٠٢

كتاب الكامل في التاريخ – تأليف عز الدين أبو الحسن ابن الأثير - الطباعة المنيرية، عام ١٣٥٧ هـ / ١٩٣٨م.

كتاب مختصر التاريخ الإسلامي - تأليف حكمت عبد الكريم فريحات و محمد عبد الله عودة و إبراهيم ياسين الخطيب

كتاب تاريخ البشرية – تأليف أرنولد توينبي – نقله عنه د/ نقولا زيادة.

كتاب موجز تاريخ الشرق الأدنى القديم – تأليف د/ نعيم فرح

كتاب الحضارات القديمة – تأليف ف. دياكوف - س. كوفاليف – ترجمة وسيم واكيم البازجي

كتاب انتصار الحضارة: جيمس هنري برستد - ترجمة دكتور أحمد فخري - مكتبة الأنجلو المصرية - القاهرة ١٩٦٢.

الفكر العسكري: مجلة تصدر عن: الأكاديمية العسكرية العليا - دمشق العدد الثالث ١٩٧٨ والعدد الرابع ١٩٧٩.

بطاقات تدريب التاريخ العسكري: المدرسة الحربية - السنة الثانية - إعداد العميد الركن فرنسوا جينادري - الجهاز العسكري الإغريقي في الحقبة الهيلينية والهيلينستية.

كتاب الحضارة- تأليف د/ حسين مؤنس - سلسلة عالم المعرفة - المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب: الكويت ١٩٧٧

كتاب حضارات مفقودة - تأليف محمد العزب موسى

كتاب الحضارات الهندية في أمريكا - تأليف: ب. رادين

- تقارير ومقالات من منصات بحثية:

https://www.livescience.com

https://www.history.com/news

https://fb.ru/post/history

http://omgfacts.com

Listverse.com.www

https://www.theguardian.com

https://www.ancient-origins.net

/ https://www.ancient-code.com

/https://www.britannica.com

الهيئة العامة للاستعلامات مصر http://www.sis.gov.eg/Ar/History/Pharaonic

دار الوثائق المصرية http://www.sis.gov.eg/Ar/History/Pharaonic

الموسوعة العربية العالمية (النسخة الإعلامية)

https://www.geonames.org

http://www.bbc.com/arabic

https://ar.unesco.org

للتواصل مع الكاتب

- facebook/ sherif.samy.92

المفتش - شريف سامي /facebook

المفتش - شريف سامي / youtube.

www.sherifsamy.com

good reads/sherif samy

فهرس الموضوعات

إهــداء ٥

مقدمة ٧

تمهيد ٩

الفصل الأول

حضارات العالم القديم (عالم ما قبل الطوفان – الكارثة الكونية) ١١

الكارثة الكونية (الطوفان العظيم) ١٤

قصة الطوفان في الوثائق والمخطوطات ١٦

الدليل على وجود حضارات متقدمة قبل الطوفان ١٨

هل قامت الحضارات بعد الطوفان دون فترة تمهيد؟ ٢٧

إنسان الكهف ٣١

لماذا لم يصل إلينا تاريخ أمم ما قبل الطوفان؟ ٣٨

ما بعد الكارثة كيف عادت الحياة للأرض ٤٥

الفصل الثاني

أعظم حضارات الأرض ٤٩

الباب الأول

حضارة ما بين النهرين ٥١

كيف ظهرت الحضارة في وادي الرافدين؟ ٥٣

الحكم الأكدي ٥٤

الغزو الكوتي (الفترة المظلمة الأولى) ٥٥

الحكم السومري للبلاد ٥٦

العصر البابلي القديم ٥٨

العصر البابلي الوسيط (الفترة المظلمة الثانية) ٥٩

العهد الآشوري ٥٩

العهد البابلي الحديث ٦١

الباب الثاني

حضارة وادي النيل المصرية ٦٥

حضارة ما قبل الأُسرات ٦٩

بداية عصر الأسر ٧١

الفترة الانتقالية الأولى (عصر الاضمحلال الأول) ٧٢

ميلاد الدولة الوسطى ٧٣

الهكسوس - الفترة الانتقالية الثانية (عصر الاضمحلال الثاني) ٧٤

ميلاد الدولة الحديثة ٧٦

الفترة الانتقالية الثالثة (عصر الاضمحلال الثالث) ٧٨

العصر المظلم ٧٩

حكم أسرة البطالمة ٨١

الباب الثالث

الحضارة الهندية ٨٥

سلالة الحضارة الفيدية ٨٨

حقبة الممالك العظمى (ماهاجانادابا) ٨٩

ظهور «جوتاما بوذا» مؤسس البوذية ٩٠

فترة الضعف والاحتلال ٩١

حكم إمبراطورية موريا ٩١

الفترة الذهبية (الممالك الوسطى الأولى) ٩٢

ظهور إمبراطورية جوبتا ٩٤

الفترة الكلاسيكية (الممالك الوسطى المتأخرة) ٩٤

حكام الشمال ٩٥

شكل الحكم في الجنوب ٩٥

الباب الرابع

الحضارة الصينية ٩٩

العصر الحجري ١٠١

بداية حكم السلالات ١٠٢

أولا: دور التقدم الحضاري الأول ١٠٢

ثانيا: دور الركود ١٠٥

ثالثا: دور الازدهار الحضاري الثاني ١٠٥

الغزو ثم الاضمحلال ثم الاستعمار ثم نهاية الحضارة ١٠٦

الباب الخامس

الحضارة اليونانية الإغريقية ١٠٩

الحقبة الكلاسيكية القديمة ١١٠

الفترة الكلاسيكية الوسطى ١١٢

صراع أثينا مع إسبرطة ١١٤

ظهور القوة المقدونية ١١٥

اليونان الهيلينستية ١١٦

الباب السادس

الحضارة الرومانية ١١٩

تأسيس الجمهورية الرومية ١٢٣

تأسيس الإمبراطورية الرومية ١٢٥

عهد زعامة الإمبراطورية ١٢٦

الباب السابع

الحضارة الفارسية (الأخمينية) ١٣١

كيف تأسست الحضارة الأخمينية؟ ١٣٥

الانطلاقة ١٣٥

التوسع الأخميني ١٣٧

بداية الانحدار ١٣٩

بداية النهاية ١٤٠

محاولات التعافي مجددا ١٤٢

الباب الثامن

الحضارة الإسلامية ١٤٥

خلافة أبو بكر الصديق ١٥٢

خلافة عمر بن الخطاب ١٥٤

خلافة عثمان بن عفان ١٥٦

خلافة علي بن أبي طالب ١٥٧

الدولة الأموية ١٥٧

الدولة العباسية ١٥٩

الدولة الفاطمية ١٦٠

الدولة الأيوبية ١٦٢

الدولة المملوكية ١٦٣

نهاية الخلافة العباسية ١٦٤

الدولة العثمانية ١٦٦

الفصل الثالث

٤٠ حضارة ربما لم تسمع عنهم من قبل (حضارات غامضة قصيرة الأمد) ١٧١

حضارة كوبيك تيبي ١٧٦

حضارة الكلوفيس ١٧٧

حضارة كاتال هيوك ١٧٨

حضارة المينويون ١٧٩

حضارة نبتة بلايا ١٨٠

حضارة كيوكوتيني (تريبيليان) ١٨١

حضارة الهاربا ١٨٢

حضارة نورتي شيكو (نورتون) ١٨٣

حضارة الفصح (جزيرة القيامة) ١٨٤

حضارة البنط (بونت) ١٨٥

حضارة «دلمون» ١٨٦

حضارة «سانكسينجدوي» ١٨٧

حضارة «عيلام» ١٨٨

حضارة هوريانس (أوركيش) ١٨٩

حضارة «الحيثيين» ١٩٠

حضارة بيل بيكر (القدور الجرسية) ١٩١

حضارة أم النار ١٩٢

حضارة فينيقيا ١٩٣

حضارة «كوش» ١٩٥

حضارة «مجان» ١٩٧

حضارة «الأولمك» ١٩٨

حضارة الميسنيين ١٩٩

حضارة الأناسازي (بويبلو) ٢٠١

حضارة «نوق» ٢٠٣

حضارة «الأنباط» ٢٠٤

حضارة «الزابوتيك» ٢٠٥

حضارة أكسوم (الحبشة) ٢٠٦

حضارة «سيجريا» ٢٠٨

حضارة هوهوكام (بيما) ٢٠٩

حضارة «نازكا» ٢١٠

حضارة موغويون ٢١٢

الحضارة الحميرية ٢١٣

حضارة «نيا» ٢١٤

الحضارة الخميرية (أنغكور) ٢١٥

حضارة كاهوكيا (المسيسيبي) ٢١٧

فاكينج جرينلاند ٢١٨

حضارة «المايا» ٢١٩

حضارة الإنكا (جبال الإنديز) ٢٢٠

حضارة الأزتيك ٢٢٢

المراجع والمصادر ٢٢٥

للتواصل مع الكاتب ٢٢٩

1. الغلاف
2. 1
3. مختصر حضارات العالم
4. شريف سامي: مختصر حضارات العالم، كتاب
5. 4
6. إهـــداء إلى الحقيقة الغامضة والتائهة في...
7. مقدمة مما لا شك فيه أن هدفك من قراءة هذا...
8. تمهيد عندما نقرأ عن الماضي البعيد، يُلفت...
9. الفصل الأول
10. * * *
11. الفصل الثاني
12. الباب الأول
13. الباب الثاني
14. الباب الثالث
15. الباب الرابع
16. الباب الخامس
17. الباب السادس
18. الباب السابع
19. الباب الثامن
20. الفصل الثالث
21. * * *
22. المراجع والمصادر كتاب العالم قبل الطوفان...
23. الباب الأول